دكتور محمد علي محمد المرصفي

أستاذ أصول التربية المساعد
كلية التربية ـــ جامعة طنطا

في



بحوث ودراسات

الناشر : مكتبة وهبة
١٤ شارع الجمهورية ـ عابدين
تليفون ٩٣٧٤٧٠

الطبعة الأولى

١٤٠٧هـ — ١٩٨٧م

مطابع
دار التراث العربي
ت ٩٣٦١٤٥

بسم الله الرحمن الرحيم

« وهذا كتاب أنزلناه مبارك مصدق الذى بين يديه ولتنذر أم القرى ومن حولها ، والذين يؤمنون بالآخرة يؤمنون به ، وهم على صلاتهم يحافظون » .

(صدق الله العظيم)

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

مما لا شك فيه أن المجتمع الاسلامى يمر فى الفترة الأخيرة ، بظروف حرجة على جميع المستويات السياسية والثقافية والاقتصادية والاجتماعية • ولما كانت التربية تحتل المقام الأول فى مواجهة تلك الأزمات ، فقد قمنا وعلى مدار الأعوام القليلة السابقة بنشر دراسات وبحوث فى عدد من الدوريات الثقافية العامة وأيضا الدوريات العلمية المتخصصة ، بالاضافة الى نشر بحوث أخرى ضمن كتاب « من المبادىء التربوية فى الاسلام » •

هذا وقد عالجت تلك البحوث والدراسات عددا من قضايا الفكر التربوى فى الاسلام ، واستندت فى الكثير منها الى العديد من كتب التراث والفكر التربوى المعاصر ، بالاضافة الى الاستدلال الغزير من الكتاب والسنة المطهرة •

وقد جاء البحث الأول نظرة عامة حول التربية الإسلامية ، والمنشور بمجلة كلية التربية بمكة المكرمة ، جاء كمحاولة لفهم طبيعة التربية الاسلامية وما تمر به فى ظروفنا الراهنة ، كما تقدم الدراسة نموذجا تربويا من القرآن الكريم •

أما الدراسة الثانية والمنشورة بمجلة كلية التربية بمكة المكرمة العدد العاشر فقد تحدثت عن : « قيم تربوية فى القصص القرآنى ، تحليل لمواقف من قصة يوسف عليه السلام » وقد استعرضت الدراسة الكثير من الأهداف التربوية فى الفكر الحديث ، فى اطار قصة يوسف عليه السلام •

وأما البحث الثالث فيتناول الحرية والتربية فى الاسلام كما تناولت الدراسة الرابعة للعلاقات الانسانية والتربية ، وقد جاء هذان البحثان بالكثير من مبادىء التربية الاسلامية فى ظل المصادر الأساسية وهى القرآن الكريم والسنة المطهرة • وقد وضحت تلك الدراسات الكثير من الحقائق ، حتى يتبين الفرد المسلم كيف يمكن أن يتفهم الآراء التربوية الحديثة من منظور اسلامى ، وحتى لا ينبهر بالفكر الغربى أو الثقافة الوافدة •

أما المقالات الخاصة بالغزو الثقافى للمجتمع الاسلامى ، فقد نشرت بمجلة التضامن الاسلامى ، التى تصدرها وزارة الحج والأوقاف بمكة المكرمة وأيضا مجلة « رسالة المسجد » التى تصدر عن الأمانة العامة للمجلس الأعلى للمساجد برابطة العالم الاسلامى بمكة المكرمة ، وقد جاءت هذه المقالات فى وحدة وانسجام ، حيث انها تتجه جميعا الى كشف النقاب عن الكثير من الأدوار التربوية التى تستطيع أن تقوم بها المؤسسات الاجتماعية والتعليمية والأسرية فى مواجهة الغزو الثقافى للمجتمع الاسلامى •

كما تناولت المقالات أيضا كيف يمكن أن تؤدى العبادة على شتى صورها وأشكالها دورها التربوى فى العصر الحديث • والدراسات والبحوث والمقالات التى جاءت فى هذا الكتاب تتسق جميعا فى وحدة واحدة وفى انسجام متناسق لتضيف الى مكتبة التربية الاسلامية فى العالم العربى والاسلامى فكرا جديدا منتوحى من الكتاب والسنة والفكر الحديث •

والكتاب فى عمومه محاولة جادة لخدمة الفرد المسلم والباحث المسلم •• والله سبحانه وتعالى من وراء القصد •

القاهرة ٢٥ يناير سنة ١٩٨٦ — د• محمد على محمد المرصفى

* * *

الفصل الأول

نظرة عامة حول التربية الإسلامية

* تقـــديم :

درج الناس على مدى التاريخ الطويل للحضارة الانسانية ، على أن يستندوا على التربية فى توجيه حياتهم • غير أن التربية بهذا الشكل كانت تقليدية محضة ، مما أكد من وجهة النظر الحديثة ، ضرورة جعل التربية تأخذ شكلا آخر ، وجعلها طاقة وقوة دافعة للحضارة الانسانية ، ومرتبطه بمشكلات الفرد والجماعة ، ومرآة يرى المجتمع فيها نفسه ، ويؤكد فيها ذاته •

والمجتمع الذى ينتظم جزء كبير من أفــراده فى مراحل التعليم المختلفة ، لابد وأن يصبح التعليم قوة حاسمة فى تحديد شكل هــذا المجتمع • والتربية بهذا تؤدى دورها على مستوى الفرد والجماعة ، وتؤكد ارتباطها بمشكلات المجتمع ومقدراته •

والتربية الحقيقية هى التى تؤدى دورها فى بناء المجتمع • ولن يتحقق ذلك الا بنوع معين من التربية ، تنطلق فيه طاقات الأفــراد وتستثمر فيه قدراتهم ، ويكونون بذلك قادرين بما لديهم من مهارات وقيم وفكر على أن يحولوا كل ما لدى المجتمع من موارد طبيعية الى طاقات تكون فى خدمة الانسان المعاصر •

ومن هنا فان الأثر الذى تحدثه التربية فى المجتمع هو المقيــاس الحقيقى لمدى فعالية النظام التعليمى ، داخل المجتمع بصرف النظر عن حجم هذا النظام • والتربية بهذا تهدف بالدرجة الأولى ، الى تنمية الفرد بشكل كامل عقليا وبدنيــا وروحيا وعاطفيا وجماليا واجتماعيا وأخلاقيا وثقافيا وسياسيا •• الخ •

واذا صح كل ما تقدم فلا شك أن الجانب التطبيقى السلوكى يحتل وسط تلك الاغراض المكان الأول ، وخصوصا أن السلوك هو المحك الأساسى لقياس مدى استيعاب الفكر النظرى ، وقدرة الفرد على التخلق بما ثبت فيه من ركائز أصبحت سمة من سمات حياته ، وصفة مميزة فى تعامله مع أقرانه من بنى البشر •

واذا كانت العلاقات بين الأفراد هى التى تكشف عن مضمون مدى استيعاب الادراك الواعى لأغراض التربية ، بما تشتمل عليه من تطبيق عملى لتلك الأغراض ، فما هى نظرة الاسلام الى تلك الجوانب السلوكية وأهميتها فى تربية الانسان المسلم ؟ وقبل ذلك ، ما هو الاطار النظرى العام للتربية الاسلامية •• ؟

هذا ما سوف نناقشه فى هذا البحث آخذين فى الاعتبار أننا سوف نسوق الحديث عن واقع وحال التربية الاسلامية بشكل اجمالى ، كما سنعطى نموذجا وحيدا ، من أساليب التربية فى الاسلام ، تاركين التفصيل الموسع ، والشرح المفصل لمناسبة أخرى ، وعسانا وقتها نكون قد وفقنا الى كشف النقاب عن أسرار جديدة ، حول ما تعانيه التربية الاسلامية سواء على أيدى كتاب فى التربية مسلمين أو على أيدى غيرهم من التربويين ممن لا يعتنقون الاسلام ، وقبل كل شىء وبعده ، فان النية خالصة لله رب العالمين ، أن يكون هذا البحث مفتتحا وليس خاتمة ، وبدءا وليس نهاية (فالمجال على حد علمى خلو من الكتابة المتخصصة التى تعتمد على أصول من كتاب الله وسنة رسوله • وتراعى فى نفس الوقت الحيطة فى التفسير للكتاب الكريم ، والتحليل لمواقف الاسلام من القضايا التربوية) •

وعموما فأول الغيث قطرة ، وعسى الله أن يأتى بالفتح ويهيىء لمجال التربية الاسلامية من يدفع عنها غائلة الدخلاء عليها ، المنبثين داخل أفنائها ، من يحاولون أن يثروا ثراء أدبيا أو ماديا على حسابها • وان غدا لناظره قريب ، وعسى ذلك أن يكون قريبا •

* * *

* التربية الاسلامية •• لمـــاذا ؟

بادىء ذى بدء فلا غرابة ونحن على أبواب هذا البحث ، أن نقرر أنه لا يوجد بين جميع النظم التربوية قديمها وحديثها نظام تربوى

استطاع أن يولى اهتمامه للانسان من جميع جوانبه العقلية والروحية والبدنية ، سوى نظام واحد هو التربية الاسلامية •

وان كان المنطق والتفكير العلمي يحتمان بالضرورة طرح المقدمات وتحليلها من أجل الوصول الى النتائج فاننا لن نجافى الحقيقة حينما نضع هذه النتيجة المسبقة قبل الخوض فى حيز الدليل والبرهان •

ومن غريب الأمر أن يطرأ حتى على ألسنة بعض المثقفين ، لا أقول التشكيك ولكن أقول لبس فى الفهم أو خلط فى التفكير ، فتراهم يقولون : لماذا التربية الاسلامية •• ؟ أو بشكل آخر : ما هى الاضافة التى سوف تضيفها بحوث صممت أو تصمم فى مجال التربية الاسلامية •• ؟

والواقع أن نظرة حول النظم الفلسفية الأخرى سواء القديم منها أو الحديث ترينا أن تلك الأنظمة لم تفلح فى وضع اطار عام تربوى فبعضها قد عالج الجانب المادى ، والبعض الآخر قد عالج الجانب الروحى فقط وسوف نسوق فى هذا المجال بعض الأدلة على ذلك :

فأفلاطون استخدم الفلسفه كمبرر لحياة الترف فى المجتمع كما استخدمها للدفاع عن القيم الأخلاقية والسياسية لطبقته الاجتماعية ، كما وجد أن قيم الطبقة الأرستقراطية الحاكمة متأصلة فيما يسمى بالبناء أو التركيب الخالد للعالم وبذلك خول أفلاطون لنفسه تنحية هذه القيم عن متناول الفحص والنقد والنقاش • من جانب الفرد العادى فى المجتمع وقصر البحث فى تلك القضايا على الفلاسفة وعلى الذين يتمتعون بوقت الفراغ ، ومن هنا يمكن أن نستنبط تفسير كل فلسفة أفلاطون سواء فى نظرية المعرفة فى العالم ، فى الكون ، فى الأخلاق ، فى السياسة التربوية •

ونخرج بتلك النتيجة أن الفلسفة عند أفلاطون لم تكن حبا للحكمة كما أنها لم تبرأ من التحيز بل انها تهدف منذ البداية الى خدمة وظيفة اجتماعية محددة[1] •

وحينما نصل الى العصور الوسطى فاننا نلمح أن الفلاسفة المدرسين قاموا بتبرير المعتقدات التى أضفت عليها الكنيسة طابع القداسة وبالتالى فانهم أكدوا أولوية الايمان على التفكير وسمو الحقائق التى

---

(١) صادق سمعان . الفلسفة والتربية ، محاولة لتحديد مبدان فلسفة التربية ، دار النهضة العربية . القاهرة . ١٩٦٢ ص ١٥ .

تدور حول الدين على الحقائق العلمية ، ومن هنا أطلقوا ذلك المصطلح ان « الفلسفة خادمة للدين » ••

كما اننا أيضا نشاهد فى العصور المسيحية التالية ، أن جزءا من الفلسفة كان عبارة عن محاولات لوضع العلم فى مكان محدد بحيث لا يغطى على القيم الدينية ، وبالتالى لا يؤثر على وضع نفوذ رجال الدين •

أما فى القرن التاسع عشر ، فلقد وصل الاتجاه نحو التبرير الى درجة كبيرة خصوصا على يد هيجل الذى برر باسم المثالية العقلية المذاهب التى كادت أن تهددها بروز الروح العلمية وظهور الاتجاه الجديد نحو الحكومة الشعبية[٢] •

وفى أحضان الفلسفة الوجودية نرى أنها فلسفة ذاتية ميتافيزيقيه غير علمية وتأبى دائما من الاتجاه الاجتماعى ، وأكثر من ذلك فالقلق واليأس والفشل كل أولئك مظاهر الوجود فى نظرهم • والوجوديون لايعيرون اهتماما لمشكلات الحياة العلمية ، لأنها لا قيمة لها ، بالاضافة الى أنها قد تصرف الانسان عن التفكير فى الموت الذى هو فى نظرهم غاية تجذب الوجود كله تجاهها[٢] •

ونظرة حول تلك الفلسفات ترينا أن الاتجاه التقليدى للفلسفة يهتم بالبحث عن طبيعة الحقيقة المطلقة النهائية ، والتـأمل فى طبيعة الأشياء فى ذاتها كما أننا نلحظ أن التشكيك فى قيمة الفلسفة نابع من الفلاسفة أنفسهم هل يقتصرون فقط على مناقشة المسائل العقلية النظرية أم يزاولون الاسهام فى الجوانب العملية للمشكلات •

ومن عجيب الأمر أن نرى بعض الفلسفات مثل الوجودية تحمل بين طياتها مقومات فشلها وعجزها عن الاتساق مع الحياة ، اذ كيف تفصل تلك الفلسفة الانسان عن متطلبات الطبيعة الانسانية ، وكيف تتنكر لما يصلح النفس البشرية ويضمن لها الحياة الكريمة ناهيك عن جعل تلك الحياة وسيلة لحياة أخرى أزلية •



---

(٢) المرجع السابق ص ١٨   (٣) المرجع السابق ص ١٣

* نظرة الاسلام الى الفلسفة :

لما لم تخل الفلسفة من تركيزها على هدم نظريات علمية سابقة أو موازية لها ولما كان التشكيك يحتل جزءا كبيرا من منهج الفيلسوف ولما كانت القيم والعقائد يشوبها التشكيك عن طريق الفيلسوف المتحمس فى غالب الأحيان لفلسفته الخاصة ، لذلك فقد يجد الشباب أنفسهم مضطرون الى اتباع فكر هذا الفيلسوف أو التفكير باستقلاليتهم فى فلسفة أخرى خاصة تناسبهم • أقول : لما كان ذلك ، بات واضحا مدى أهمية التربية الاسلامية كاطار نظرى وعملى صالح للفرد والمجتمع يمارس الفرد من خلاله ما يصلح شئون دينه ودنياه كما يرى المجتمع أنه بتبنيه نظرية التربية الاسلامية •• قد انصاع الى أعلى الفلسفات ، وأصدق المعتقدات •• وكيف لا !! وهى قد اشتقت من مصدرين كريمين : كتاب الله وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم من تمسك بهما فقد هدى الى صراط مستقيم ومن تنحى عنهما ضل فى متاهات الظلم والظلام **« فمن اتبع هداى فلا يضل ولا يشقى • ومن أعرض عن ذكرى فان له معيشة ضنكا ونحشره يوم القيامة أعمى • قال رب لم حشرتنى أعمى وقد كنت بصيرا • قال كذلك أتتك آياتنا فنسيتها ، وكذلك اليوم تنسى »**(٤) •

وقال صلى الله عليه وسلم : « تركت فيكم ما ان تمسكتم بهما لن تضلوا بعدى أبدا كتاب الله وسنتى » •

ومن هنا نرى التوافق العجيب ، والتنسيق المبهر ، بين متطلبات الطبيعة الانسانية للفرد المسلم وسائر الحياة كلها بما ومن فيها • وكذلك نرى التوفيق بين مصالح المسلم فى دنياه وفى أخراه فالاسلام اذ يرغب فى عمل الصالحات من أجل الآخرة ، فانه أيضا يفتح الباب فى استثمار الحياة الدنيا استثمارا فى الخير للانسان وللجماعة ، ملاحظا أن يبتغى بذلك وجه الله والدار الآخرة **« وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة ، ولا تنس نصيبك من الدنيا ، وأحسن كما أحسن الله اليك ، ولا تبغ الفساد فى الأرض ، ان الله لا يحب المفسدين »**(٥) •

وهكذا أقر الاسلام العمل فى الدنيا من أجل الآخرة ، كما يبدو جليا كيف أن الاسلام بنظامه التربوى عنى بأمور الفرد والمجتمع جميعا ،

---

(٤) طه : ١٢٣ — ١٢٦ (٥) القصص : ٧٧

بل وفتح باب الاجتهاد بالرأى ، فيما لم يرد فيه نص من كتاب أو سنة ، وفيما لا يتعارض مع أصل العقيدة ، كما أننا نلمح أن الاسلام قد اختص قوما بالحكمة واختارهم الله سبحانه وتعالى من بين سائر خلقه **« يؤتى الحكمة من يشاء ، ومن يؤت الحكمة فقد أوتى خيرا كثيرا »**[٦] .

والحكمة هى « لبـــاب كل خير ، بحيث ان الانحراف عنهـــا ، أو التحريف فيها ، أو زخرفتها بشبهة من الرياء : خروج عن رحاب الجادة ، ودخول فى مزالق الباطل »[٧] .

وبهذا المفهوم نجد انفراد الاسلام ، بالنظرة التكاملية للانسان ، بينما نرى كثيرا من الفلاسفة يقصرون نشاطهم على جوانب نظـــرية جدلية ، ويبتعدون عن ميادين الصراع فى قضايا المجتمع .

وبهذا يبدو أن البرج العاجى للفلسفة ، أو الانعزالية الفلسفية من دواعى التأكيد على عدم امكانية قيام الفلسفة أو وفائها بمتطلبات الكائن البشرى . فى الوقت الذى نلمح فيه أن اختلاف الفلاسفة ، راجع الى اختلاف القيم والأهداف التى يؤمنون بها . « ويجب ألا نتوقع استبعاد هـــذا الخلاف فى الفلسفة اللهم الا اذا اجتمع الفلاسفة على القيم والأهـــداف الاجتماعية وعلى أساليب وطرق النقـــد والتحليل الاجتمـــاعى »[٨] .

وهذا مما يدعم بل يؤكد أن ثبات قيم الاسلام ومناهجه مع امكانية المرونة فى اتخاذ الأساليب المعينة على التنفيذ مما يزكى انفراد نظرية التربية الاسلامية عن سائر النظريات بالدوام والصلاحية ، لكل مجتمع فى أى زمان أو مكان ، وأن تلك النظرية قد عالجت فى الانسان الجانبين البدنى والروحى .

* * *

* نظرة الاسلام الى العقل :

العقل بما أوتى من قدرة يستطيع أن ينسق المعلومات وينظمها ويضع العلاقة بينها ، كما يبحث عن الأسباب والمسببات حولها . والعقل فى كل هذه العملية لا يصل الا الى نتائج ربما يرجع عنها مع التقـــدم

---

(٦) البقرة : ٢٦٩

(٧) ابن الخطيب . أوضح التفاسير ص ٥٧ (ب) .

(٨) صادق سمعان . مرجع سابق ص ٢٥

العلمى المستمر والعقل بهذا نظرا لاعتماده على الحواس التى كثيرا ما تخدع ، لا يصل الى حقائق الأشياء ، بل يصل الى وصفها فقط ، وما كان كذلك كان عاجزا عن وضع المنهج المتكامل للانسان •

واذا وصلنا الى هذه النقطة ، فاننا نشاهد أن هذا العقل منوط بثلاثة أصناف من البشر : صنف متبلد الفكر ، متحجر الفهم يقف عند حد النهم فهو انسان شره لا يلقى بالا الا للمطعم والمشرب وكفى •

وصنف آخر ربما يحظى بقدر من الذكاء غير أنه يستثمره فيما يجر له نفعا ، ويجلب عليه عائدا ماديا ، ولا شك أن هذين الصنفين من البشر لا خير فيهم ، ولا يملكون قدرة على افادة المجتمع ، فضلا عن التقنين ووضع الاطار الفكرى •

أما الصنف الثالث فهم العلماء ، ومهما تعددت تخصصاتهم ، وتفردت مذاهبهم ، فاننا وبلا أدنى شك نضعهم فى المرتبة الأولى ، وكيف لا ؟ وهم الصفوة المختارة وأصحاب العقول المفكرة ونسأل :

هل فى مكنة هؤلاء العلماء والفلاسفة ، أن يقننوا للبشرية اطارا ومنهجا دينيا يصلح لكل زمان ؟

والحقيقة التى تبقى هى أن قضايا الحب والاخاء والمساواة وتحقيق القدر الكافى من الأمن للانسانية ، ما كانت لتقدر على تقنينه عقول الفلاسفة أو العلماء أو المفكرين ، مهما أوتوا من علم ومهما وصلوا الى صواب فى بعض القضايا العلمية ، ومن هنا فلا يوجد بين نظريات الفلاسفة نظرية واحدة ، صلحت أن تكون دستورا لمن عاصر هذا الفيلسوف من الجماعة ، فضلا عما تلاه من عصور ، أو لحقه من أجيال ، وربما بدا فى بعض العصور انبهار بعض المجتمعات وخصوصا فى قطاع الشباب ، ببعض نظريات فلسفية لفيلسوف معين ، وقد تستمر تلك النظرية تؤدى دورها فى قيادة المجتمع ، طالما أن هناك من يحاول تلقينها للأفراد ، ولكن قد يحدث أنه بعد فترة زمنية محددة ينكشف أمام المجتمع سلبيات تلك النظرية وعجزها عن تحقيق الأمن والعدل والحب والاخاء والمساواة •

واذا ثبت بهذا أن العقل البشرى قد عجز فى المجال الدنيوى ، وفى عالم المحسوسات ، فلا شك أنه يكون أشد عجزا فى مجال الجانب الغيبى ، ولا شك أنه عاجز عن معرفة كنه ذاته ، وعن معرفة حقيقة الروح التى هى قوام حركته كما هو عاجز عن ادراك ما وراء الموت

ومضير الانسان ، وسائر القضايا الغيبية الأخرى من بعث وحساب وجنة ونار •• الخ •

وعلى هذا فلنا أن نقرر فى اطمئنان كامل أن الدين الذى هو الركيزة الأساسية للتربية ليس من تصميم العقل ، وانما هو من صنع الخالق القادر ، من لدن حكيم عليم ، سميع بصير ، يعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور ، يعلم السر وأخفى ••

ومن هنا فان الدين يوقف الانسان على حقائق تعجز عنها القوانين الوضعية التى يخطىء من يعتقد أنها تأتى بسلوك سوى كامل متكامل ، أو أنها ترقى الى حقيقة الدين الذى هو من عند الله •

❋ ❋ ❋

❋ التربية الاسلامية حقيقة :

وعلى هدا الأساس ، ومن هذا المنطلق ، فانه لمن العبث كل العبث ومن الخطأ كل الخطأ أن نتأرجح بين فلسفات غربية أو شرقية ، لا هى اسلامية ولا هى قرآنية ، أقول : من العبث ، لأننا وقد شاهدنا عجز الانسان عن التقنين للبشرية بما يسعدها وما يربيها ، وما ينظم حياتها ، أحرى بنا أن ننظر فى تراثنا ، نستمد منه مقومات حياتنا ، ونستعين به على فلسفة أمور مجتمعنا •

ومن هنا فلا نكون قد جانبنا الصواب اذا قررنا أن للاسلام نظرية تسمى التربية الاسلامية ، واذا كنا اليوم نبدو كما لو كنا نجافى هذه النظرية ، فهذا ليس راجعا فى حد ذاته الى عيب فى النظرية التربوية الاسلامية — وحاشاها أن يصاحبها عيب أو يلازمها خلط — بقدر ما هو راجع الى عيب فينا نحن المسلمين ، وفى مدى استجابتنا لتلك النظرية ، ومن قدرتنا على التطبيق •

أفبعد هذا يتطرق الشك — عند من يساورهم الشك — نحو تربية مصدرها كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم ، أيتطرق الشك نحو تربية استمدت وحى كل عناصر مقوماتها من السماء ؟

لا شك أن الخالق المبدع ، أقدر على وضع الأسس والمبادىء ، والقوانين التى تضمن للانسان سعادته •

وعلى هذا فان الاسلام هو الدين العالمى الوحيد ، الذى انفرد الى السبق ، فى تصميم اطار نظرى وعملى متكامل يصلح للتطبيق كما يستهدف الانسان كله ، روحه وجسده ظاهره وباطنه •

هذا فى الوقت الذى نرى فيه أن التربية الوضعية ، قد تهتم بالجانب الحسي ، والذى يقوم على اهمال كل ما يعدو الحس ويفارق المحسوس ويؤمن ايمانا راسخا بكل ما تراه العين وتحسه النفس ، فوضع من التربية وأساليبها ، كل ما ينظم الجوانب الحسية والحياتيه من زراعة وصناعة وتعليم وتشييد بصرف النظر عن أية جوانب أخرى تكون من متطلبات الطبيعة الانسانية والجماعات البشرية .

أما الاسلام فانه يربى الانسان كانسان بصرف النظر عن البيئة التى ينتمى اليها ، وبصرف النظر عن الأسرة التى استمد منها مقومات حياته ، وبهذا يكون الاسلام قد غض الطرف عن الأحساب والأنساب ، والغنى والفقر ، ووضع مصلحة الانسان بالدرجة الأولى يربيه ، ويسعى فى ذلك فى مساواة كاملة وفى عدالة تامة .

ومما يدعم هذه الدلالة ، أننا نلمح فى هذا القرن العشرين ، والذى ارتقت فيه الحياة المادية ، ووصلت الى ذروتها من جراء الفكر المعاصر أن الانسانية لم تنعم بعد بثمرة هذا الرقى وذلك التقدم ، حيث أن التركيز كان بالدرجة الأولى ينحو للجانب المادى فقط ، مما ترتب عليه اختفاء القيم الأصلية والروابط الأسرية والاجتماعية وانتشار الأمراض النفسية ..

كما أننا نلمح أيضا الاحساس بالضياع بين القطاع الكبير من الشباب والفتيات على المستوى الدولى والعالمى .. وكيف لا ؟

وتلك الاتجاهات المادية ، الماركسية منها والوجودية والبراجماتية لا تولى وجهها الا شطر التعامل مع الانسان كمادة ، فلا تؤمن تلك المذاهب الا بها ، فالانسان فى نظر الماركسية (ترس) فى آلة كبيرة اسمها المجتمع .

كما لا يخفى ما للوجودية من أثر بغيض فهى التى أطلقت للانسان العنان باسم الحرية ، وتأكيد الذات ، ليتخبط فى القلق وحيدا بلا وازع من ضمير أو خلق أو قوة عليا وتركته ليعتصره الصراع .

وان ننس لن ننسى البراجماتية ، التى تؤكد فى غير ما حياء ولا خجل أن كل ما جر نفعا ماديا عاجلا أو آجلا فهو الحق ، وما عداه فهو الباطل .

ولعل النتيجة القريبة لتلك الاتجاهات ، ربما تنعكس فى تحقيق هدف مادى دنيوى يتمثل فى امتلاء المعدة بالطعام والشراب ، كما يتمثل فى توفير المسكن والملبس وسائر الكماليات .

غير أن الحقيقة تبقى مدوية ، ان هذه الاتجاهات تنتج حتمـا وبالضرورة نوعا من التخبط ، ونوعا من القلق والسقوط ، الذى أصبح من أهم سمات هذا العصر ، والذى كان نتيجة حتمية للتعامل مع الانسان كمـادة .

والواقع أن الانسان مادة وروح ، وبينما الجزء المـادى يشده الى الأرض فان الجزء الروحى يسمو به الى السماء .

أفبعد هذا يمكن للعقل البشرى أن يضع أطارا دينيا أو منهجيا يمكنه أن يحقق التوازن بين الجانبين ؟

الواقع وكما سبق أن ألمحنا أن العقل ، أثناء تعامله مع الكون يستمد المعلومات من المـادة عن طريق الحواس ، السمع أو البصر أو الشم أو اللسان أو غيرها ، ولمـا كان لتلك المعلومات دلالة خاصة ، فان نقلها الى العقل عن طريق تلك الحواس يخضع لمؤثرات كثيرة ، تؤثر على صدق النقل مما يترتب عليه تزويد العقل بمعلومات يشوبها التشويش ، ويسيطر عليها الخلط . واذا تركنا هذا جانبا لنرى أنظمة أخرى ، اتجهت تسطر الجانب الروحى الذى يقوم على العناية بالروح ، وترك كل شىء يتصل بالحس ، حينئذ ندرك ضرورة وأهمية التربية الاسلامية التى وضعت فى المقام الأول الانسان بكيانه كله ، جسمه وروحه وعقله ، واعترفت أن الانسان مجموعة من هذه العوامل كلها ، وأنه كيان واحد مترابط الأجزاء .

وعلى هذا الأساس فان التربية الاسلامية حقيقة لا تحتاج الى دفاع وحق لا يقبل الجدل ، غير أننا أردنا فى هذا الجزء أن نطرح بعض الخيوط حول تلك النظرية لتكون بمثابة قاعدة قوية ننطلق من خلالها نحو اعطاء نموذج وحيد تطبيقى يكون بمثابة ضرب المثل ، لنماذج عملية أخرى فى المنهج الاسلامى ، نماذج تضمنت التشريعات الخاصة ببناء الأسرة ، سواء فيما يتعلق بالعلاقة الزوجية ، أو ما يتعلق بتربية الأبناء والبنات . كذلك تناولت تلك النماذج العلاقات الانسنانية ، فيما يتصل بسياسات الدول ، والعلاقات على مستوى الأفراد والأسر والمجتمعات .

وفى ظل نماذج التربية الاسلامية نلمح درجات عالية من سمو الجانب الأخلاقى سواء على مستوى الفرد ، أو على مستوى التعامل مع الجماعة ، حتى فى مجال المعاملات أعطى الاسلام نماذج عديدة لصيانة أفراد المجتمع من الفقـر والتخلف وكانت فريضة الزكاة من أركان الاسلام التى ضمنت حفظ الحياة لقطاع كبير من أبناء الأمة من الفقراء

« **والذين فى أموالهم حق معلوم • للسائل والمحروم** »[9] ومنهج التربية الاسلامية بذلك الأسلوب يبنى المجتمع المسلم القـائم على احترام العلاقات بين الأفراد ، « والمجتمع الاسلامى هو مجتمع انسانى : يدعو الى الروابط الانسانية بين الأفراد فى الدرجة الأولى •• كما يدعو الى تبادل المصالح المـادية ، ولكن فى محيط العلاقات الانسانية »[10] •

وسوف نستعرض بالتحليل لموقف نموذجى من حياة الرسـول صلى الله عليه وسلم : كان فيه معلما ومربيا •

هذا الموقف هو : « مسرح الأحداث فى حديث الافك » •

وتكمن مبررات اختيارنا لهذا النموذج فى :

(ا) التعليم بالقدوة والذى يتركز فى الجانب الأخلاقى للرسول صلى الله عليه وسلم فى تلك الأحداث « **لقد كان لكم فى رسـول الله أسوة حسنة لمن كان يرجوا الله واليوم الآخر وذكر الله كثيرا** »[11] •

(ب) السلوك الواجب اتباعه فى مواجهة الشـائعات المغرضة والأكاذيب المدعاة •

(جـ) العلاقات الوالدية ، وكيف تستثمر لصالح الدين والدنيا •

(د) العلاقات الزوجية ، وكيف يمكن أن نؤمن صيانتها ونحافظ عليها بالرغم مما قد يبدو فى الأفق من ضباب أو غيوم حول أحد الزوجين •

(هـ) التريث فى اتخاذ القرارات خصوصا اذا كانت تتعلق بمصير انفرد الانسـان •

*** * ***

* بين يدى حديث الافك :

بداية نهى الاسلام عن الغيبة ، وطلب من المسلم والمسلمة التحرى فى القول ، وعدم تصديقه الا بعد التأكد من صحته وحتى عند التأكد من صحته نهى الاسلام عن ترويجه أو التشهير به وعدم الخوض فيه ، جلبا للمصالح ودرءا للمفاسد ، وتجنبا لأمور قد تتطور الى ارتكاب مخاطر كبيرة •

---

(٩) المعارج : ٢٤ ، ٢٥

(١٠) « منهج القرآن فى تطوير المجتمع » مكتبة وهبة ١٩٧٩ ط ٢ ص ٤

(١١) الأحزاب : ٢١

ولا شك أن هذا جانب رئيسي في أخلاقيات الاسـلام ، يرتبط ارتباطا جوهريا بروح التربية الاسلامية التي تهدف الى بناء الانسان المسلم • والقرآن الكريم فيما يتعلق بحديث الافك ، قد ذكر في عشر آيات متتاليات من سورة النور وقائع هذا الدرس التربوي ، وما كان من خوض بعض المسلمين جريا وراء من روج للشـائعات — في حق أم المؤمنين عائشة رضي الله تعالى عنها •

يقول الحق تبارك وتعالى في سورة النور :

« ان الذين جاءوا بالافك عصبة منكم ، لا تحسبوه شرا لكم ، بل هو خير لكم ، لكل امرىء منهم ما اكتسب من الاثم ، والذي تولى كبره منهم له عذاب عظيم • لولا اذ سمعتموه ظن المؤمنون والمؤمنات بأنفسهم خيرا وقالوا هذا افك مبين • لولا جاءوا عليه بأربعة شهداء ، فاذ لم يأتوا بالشهداء فأولئك عند الله هم الكاذبون • ولولا فضـل الله عليكم ورحمته في الدنيا والآخرة لمسكم في ما أفضتم فيه عذاب عظيم • اذ تلقونه بألسنتكم وتقولون بأفواهكم ما ليس لكم به علم وتحسبونه هينا وهو عند الله عظيم • ولولا اذ سمعتموه قلتم ما يكون لنا أن نتكلم بهذا سبحانك هذا بهتان عظيم • يعظكم الله أن تعودوا لمثله أبدا ان كنتم مؤمنين • ويبين الله لكم الآيات ، والله عليم حكيم • ان الذين يحبون أن تشيع الفاحشة في الذين آمنوا لهم عذاب أليم في الدنيا والآخرة ، والله يعلم وأنتم لا تعلمون • ولولا فضـل الله عليكم ورحمته وأن الله رؤوف رحيم »(١٢) •

وفي هذا المقام يذكر الامام ابن كثير : « هذه العشر الآيات كلها نزلت في شأن أم المؤمنين رضي الله عنها حين رماها أهل الافك والبهتان من المنافقين بما قالوه من الكذب البحت ، والفرية التي غار الله عز وجل لها ولنبيه صلوات الله وسلامه عليه فأنزل الله براءتها صيانة لعرض الرسول صلى الله عليه وسلم فقال تعالى : « **ان الذين جاءوا بالافك عصبة منكم** » أي جماعة منكم ، يعني ما هو واحد ولا اثنان بل جماعة فكان المقدم في هذه اللعنة — عبد الله بن سلول — رأس المنافقين ، فانه كان يجمعه ويستوشيه حتى دخل ذلك في أذهان بعض المسلمين ،

---

(١٢) النور : ١١ — ٢٠ •

فتكلموا به ، وجوزه آخرون منهم وبقى ذلك الأمر قريبا من شهر حتى نزل القرآن ، وبيان ذلك فى الأحاديث الصحيحة »[13] •

ولا شك أن هذه الواقعة فيها نهى ولفت للأنظار أن يتحرى المسلم الصدق فى كل ما يقول أو يفعل •

والاسلام فى هذا يهدف الى بناء العلاقات الانسانية على أسس تربوية سليمة ولا شك أن ما نشاهده فى عالم اليوم ، من هدر للكرامة ، وتحقير للفرد الانسان ، كان نتيجة حتمية للتطرف الأخلاقى وعدم الالتزام بالسلوك السوى •

والقرآن الكريم ، فى أكثر من موضع يشير الى أن الفتنة أكبر وأشد من القتــل « **والفتنة أكبر من القتل** ••• »[14] •

يفسر المفسرون الفتنة فى الآية بأنهــا الكفر والشرك • والكفر يكون باللسان كما يكون بالأفعال المخالفة لشرع الله •

وحينما نعيش أحداث هذه الواقعة فاننا نجد أنفسنا أمام درس تربوى •

ــ المعلم فيه هو الرسول صلى الله عليه وسلم ، وأسلوبه مع زوجته عائشة وأسلوبه مع أصحابه ، ثم منهجه الذى اتبعه فى علاج أخطر ما يمكن أن يصاب به المرء فى أهله ، وأيضا حسن الصنيع مع أبى بكر وهو مع ما له من منزلة وقدم صدق فى الاسلام •

ــ والمتعلم من هذه الواقعة ، هم المسلمون والمسلمات جميعا فى شخص من عايش هذه الواقعة من الصحابة وخلفاء رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأيضا أم المؤمنين عائشة وكيف واجهت فى صبر وقوة تحمل هذا الأمر الجلل ، وكيف صمدت أمام هذا البهتان صمود الصادقات الصابرات الخاشعات القانتات •

ــ والمنهج المستخدم فى هــذا الدرس التربوى هو الاستقرائى التحليلى ، حيث لم يدع رسول الله صلى الله عليه وسلم الأمور تسير جريا وراء الهوى ولكن فى ثبــات الصــادقين وفى عزم النبيين جمع رسول الله صلى الله عليه وسلم المعلومات من أصحابه وخدامه ، حتى أنزل الله عليه قرآنا يتلى فكان مسك الختام ، لأعظم اختبــار للنبى

---

(١٣) محمد على الصابونى « مختصر تفسير ابن كثير » المجلد الثانى ص ٥٨٧

(١٤) البقرة : ٢١٧

صلى الله عليه وسلم فى أهله وصدق الله العظيم حيث يقول : **« الله أعلم حيث يجعل رسالته »**[١٥] .

وقد كانت أم المؤمنين عائشة ضمن من خرج فى غزوة غزاها النبى صلى الله عليه وسلم بعد أن خرج سهمها فى قرعة أجراها رسول الله صلى الله عليه وسلم بين أهله فلما فرغ رسول الله صلى الله عليه وسلم من غزوته ، خرجت عائشة رضى الله عنها من خبائها تفتش عن عقدها الذى انقطع من صدرها ، ولما عادت الى مكانها وجدتهم قد رحلوا ظانين أنها فى هودجها ، ومن ثم مكثت فى مكانها فنامت .

تقول عائشة : وكان صفوان بن المعطل السلمى ثم الذكوانى قد عرس[١٦] من وراء الجيش ، فأدلج[١٧] فأصبح عند منزلى ، فرأى سواد انسان نائم ، فأتانى فعرفنى حين رآنى ، وقد كان رآنى قبل الحجاب ، فاستيقظت باسترجاعه[١٨] حين عرفنى فخمرت وجهى بجلبابى ، والله ما كلمنى كلمة ولا سمعت منه كلمة غير استرجاعه حين أناخ راحلته ، فوطىء على يدها فركبتها ، فانطلق يقود بى الراحلة حتى آتينا الجيش بعد ما نزلوا موغرين فى نحر الظهيرة ، فهلك من هلك فى شأنى[١٩] وكان الذى تولى كبره « عبد الله بن أبى سلول »[٢٠] .

وهذا الدرس التربوى فى بيت النبوة ، فى حد ذاته يحمل بين طياته عوامل تبرئة أم المؤمنين مما لصق بها ، اذ كيف يتصور عاقل ، أن يرتكب مسلم ومسلمة الفاحشة ثم يستعرضان راكبين أو راجلين ، أو أحدهما راكبا والآخر مرتجلا أمام الناس ، وكأن لسان حالهما يطلبان كشف ما انستر وظهور ما أبهم ، وبالرغم من ذلك فلقد انغمس البعض فى الحديث وتورطوا فيما نهى عنه الاسلام .

والواقع أننا نوجز الحديث فى هذا الأمر لأن امتثال هذه المواقف الحكم الفصل فيها هو رب العالمين ، ولذلك فالتبرئة تتم فى هـذا النموذج العملى من قبل رب العباد ، السميع ، اللطيف ، الخبير الذى يعلم السر وأخفى .

---

(١٥) الأنعام : ١٢٤

(١٦) عرس من التعربس وهو الاقامة ليلا .

(١٧) فأدلج : سار ليلا .

(١٨) باسترجاعه : ردد دعاء فى مقام الاستغراب مما رآه .

(١٩) فهلك من هلك فى شأنى : قالوا ما به استحقوا الهلاك .

(٢٠) مختصر ابن كثير ، مرجع سابق ص ٥٨٧

ومن عجيب الأمر أن عائشة رضى الله عنها ، تمكث شهرا لا تدرى عن حديث الافك شيئا ، غير أنها تلمح أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يقدم لها اللطف الذى كانت تراه منه خصوصا عندما يعتل بدنهـا أو تشتكى ، وهذا هو الذى كان يريبها •

واذا كان الاسلام يدعو الى التأسى بالنبى صلى الله عليه وسلم والذى كان خلقه القرآن ، فان لنا فى صنيع رسول الله صلى الله عليه وسلم مع أم المؤمنين عائشة رضى الله عنهـا ، لأعظم درس تربوى من خير رسـول •

فالمعلم الأول : محمد صلى الله عليه وسلم ، لم يشأ أن يفجأ أو يفاجىء زوجته عائشة بالواقعة رغم علمه بما يتنـاقله البعض فى شأنهـا . ولكنه يضبط نفسه انتظـارا لمـا تسفر عنه الاستقراءات والتحليلات وهذا يتم بنمط تربوى سليم •

وعندما علمت عائشة بحـديث الافك ، ما كان الا أن استأذنت رسول الله صلى الله عليه وسلم أن تذهب لأبويها •

تقول عائشة : « فقلت له : أتأذن لى أن آتى أبوى ، قالت : وأنا حينئذ أريد أن أتيقن الخبر من قبلهما ، فأذن لى رسول الله صلى الله عليه وسلم فجئت أبوى فقلت لأمى : يا أمتاه •• ماذا يتحدث الناس ؟ فقالت : أى بنية •• هونى عليك فوالله لقلما كانت امرأة قط وضيئة عند رجل يحبها ولها ضرائر الا أكثرن عليها •• قالت فقلت : سبحان الله أو قد تحدث الناس بهذا ؟ فبكيت تلك الليلة حتى أصبحت لا يرقأ لى دمع ولا أكتحل بنوم ، ثم أصبحت أبكى »[٢١] •

* * *

* المنهج الاستقرائى فى المعالجة :

رأينا كيف تحمل رسول الله صلى الله عليه وسلم فى صبر ورباطة جأش لمدة شهر أو يزيد ما كان من حديث الافك ، لم يغير فى سلوكه مع زوجته ، ولم ينفعل ولم يصبه ما يمكن أن يصيب غيره فى مثل هذا الموقف ، وخصوصا اذا كان فى موقف القائد ، كما أنه لم يلق باللوم على أحد بعينه ولكنه استخدم منهج الاسـتقراء وهو تتبع الواقعة وأبعادها كما رويت عن أصحابه صلوات الله وتسليماته عليه •

---

(٢١) مختصر ابن كثير ، المرجع السابق ص ٥٨٨

تقول عائشة : « فدعا رسول الله صلى الله عليه وسلم « على ابن أبى طالب » و « أسامة بن زيد » حين استلبث الوحى ، يسألهما ويستشيرهما فى فراق أهله قالت : فأما أسامة بن زيد فأشار على رسول الله صلى الله عليه وسلم بالذى يعلم من براءة أهله ، وبالذى يعلم فى نفسه لهم من الود فقال أسامة : يا رسول الله .. أهلك ولا نعلم الا خيرا ، وأما على بن أبى طالب فقال : يا رسول الله .. لم يضيق الله عليك والنساء سواها كثير ، وان تسأل الجارية تصدقك الخبر ، قالت : فدعا رسول الله صلى الله عليه وسلم بريرة فقال : « أى بريرة .. هل رأيت من شىء يريبك من عائشة » ؟ فقالت له بريرة : والذى بعثك بالحق ان رأيت منها أمرا قط أغمصه عليها أكثر من أنها جارية حديثة السن تنام عن عجين أهلها فتأتى الداجن فتأكله ، فقام رسول الله صلى الله عليه وسلم من يومه ، فاستعذر من عبد الله بن أبى سلول ، فقالت : فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو على المنبر : « يا معشر المسلمين .. من يعذرنى من رجل قد بلغنى آذاه فى أهلى فوالله ما علمت على أهلى الا خيرا ، ولقد ذكروا رجلا ما علمت عليه الا خيرا ، وما كان يدخل على أهلى الا معى » ، فقام سعد بن معاذ الأنصارى رضى الله عنه فقال : أنا أعذرك منه يا رسول الله ، ان كان من الأوس ضربنا عنقه ، وان كان من اخواننا من الخزرج أمرتنا ففعلنا أمرك ، قالت : فقام سعد بن عبادة وهو سيد الخزرج وكان رجلا صالحا ولكن احتملته الحمية ، فقال لسعد بن معاذ : كذبت لعمر الله لا تقتله ولا تقدر على قتله ، ولو كان من رهطك ما أحببت أن يقتل ، فقام أسيد ابن حضير وهو ابن عم سعد بن معاذ فقال لسعد بن عبادة : كذبت لعمر الله لنقتلنه ، فانك منافق تجادل عن المنافق ، فتثاور الحيان الأوس والخزرج ، حتى هموا أن يقتتلوا ورسول الله صلى الله عليه وسلم على المنبر فلم يزل رسول الله صلى الله عليه وسلم يخفضهم حتى سكتوا وسكت رسول الله صلى الله عليه وسلم »[٢٢] .

كل هذا والمعاناة تشتد بأم المؤمنين عائشة رضى الله عنها وتبكى بكاء يفلق الأكباد وتستأذن عليها وهى على تلك الحال امرأة من الأنصار فتأذن لها عائشة فتبكى المرأة لبكاء عائشة رضى الله عنها ، وبينما هى كذلك دخل عليها رسول الله صلى الله عليه وسلم فسلم ثم جلس قالت :

---

(٢٢) المرجع السابق ص ٥٨٨

ولم يجلس عندى منذ قيل ما قيل وقد لبث تيهزا لا يوحى اليه فى شأنى شيء .

قالت : فتشهد رسول الله صلى الله عليه وسلم حين جلس ، ثم قال : « أما بعد ، يا عائشة .. فانه قد بلغنى عنك كذا وكذا ، فان كنت بريئة فسيبرئك الله وان كنت ألمت بذنب فاستغفرى الله وتوبى اليه ، فان العبد اذا اعترف بذنبه وتاب تاب الله عليه » قالت : فلما قضى رسول الله صلى الله عليه وسلم مقالته قلص دمعي حتى ما أحس منه قطرة ، فقلت لأبى : أجب عنى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال : والله ما أدرى ما أقول لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقلت لأمى : أجيبى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقالت : والله ما أدرى ما أقول لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، قالت فقلت وأنا جارية حديثة السن لا أقرأ كثيرا من القرآن : والله لقد علمت ، لقد سمعتم بهذا الحديث حتى استقر فى أنفسكم وصدقتم به ، فلئن قلت لكم انى بريئة والله يعلم أنى بريئة ، لا تصدقوننى ولئن اعترفت بأمر والله يعلم أنى منه بريئة لتصدقننى ، فوالله ما أجد لى ولكم مثلا الا كما قال أبو يوسف : **« فصبر جميل ، والله المستعان على ما تصفون »**[٢٣] قالت : ثم تحولت فاضطجعت على فراشى ، قالت : وأنا والله أعلم حينئذ أنى بريئة وأن الله تعالى مبرئى[٢٤] ببراءتى ، ولكن والله ما كنت أظن أن ينزل فى شأنى وحى يتلى ، ولشأنى كان أحقر فى نفسى من أن يتكلم الله فى بأمر يتلى ، ولكن كنت أرجو أن يرى رسول الله صلى الله عليه وسلم فى النوم رؤيا يبرئنى الله بها . قالت : فوالله ما رام رسول الله صلى الله عليه وسلم مجلسه ولا خرج من أهل البيت أحد حتى أنزل الله تعالى على نبيه فأخذه ما كان يأخذه من البرحاء[٢٥] عند الوحى حتى انه لينحدر منه مثل الجمان[٢٦] من العرق وهو فى يوم شات من ثقل القول الذى أنزل

---

(٢٣) يوسف : ١٨ .

(٢٤) مبرئى ، تعنى أن الله سوف يبرئها وعائشة بهذا تزداد ثقتها بربها ، غير أنها رغم تعجلها فى طلب البراءة فانها لم تكن لتتوقع أن ينزل فى شأنها قرآن يتلى ، فمبرئى هنا توقع عائشة أن يبرئها الله .

(٢٥) البرحاء : الشدة .

(٢٦) الجمان : الفضة ، أى أن العرق تصبب منه فى لون الفضة أو الدر .

عليه قالت : فسرى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يضحك فكان أول كلمة تكلم بها أن قال : « أبشرى يا عائشة ، أما الله عز وجل فقد برأك » (٢٧) .

وهكذا يسلك رسول الله صلى الله عليه وسلم منهج الاستقراء فيتتبع الخبر من الجارية ثم يتتبع الوسيلة المناسبة للعقاب من الصحابة ، ولا يهمل صاحبة الشأن .. فيطيب خاطرها بل ويفتح لها مجال التوبة ، وأيضا موقف عائشة من صبرها وتحملها وعدم تبرمها حينما قال لها رسول الله صلى الله عليه وسلم مقالته الأولى وموقفها حينما حاولت أن تستنطق أبويها لعلهما يردان عنها غائلة الافك ، وفى تواضع الصفوة المختارة من المسلمين الصادقين وأصحاب قدم الصدق فى الاسلام يجيبان بما يندر أن نجده من أبوين فى مثل ظروفهما : والله ما نجد ما نقوله لرسول الله صلى الله عليه وسلم ..

ولذا فلقد بدا واضحا أن المعلم الأول رسول الله صلى الله عليه وسلم ينشد الحق فيسلك المنهج التتبعى من أجله وأن عائشة تصمد فى أدب وتواضع الزوجة الصالحة الرشيدة المؤمنة المستوثقة .. فلم تصرخ ولم تتهيج وانما تواضعت تواضع التلميذ من أستاذه .

وأبو بكر وزوجه حريصان أن يراقبا الدرس العملى فى ايمان الصادقين المستوثقين فى الله وفى رسوله والحريصين على محبة معلمهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ..

والجميع ينشد الحق ، والحق الذى لا مراء فيه ولا جدال حوله . والجميع يترقب وعلى الله قصد السبيل طالما صدقت النية وخلصت لله رب العالمين واستكمالا لهذا الدرس العملى فاننا نلمح أن الطبيعة الانسانية بما ركب فيها من دوافع نفسية ونوازع فيها جانب شيطانى قد يكون أحيانا كامنا فى النفس البشرية غير أنه يبدو على السطح فى الوقت المناسب أقول : نلمح أن أبا بكر الصديق رضى الله عنه يعتريه نوع من روح الانتقام الأدبى والمادى ممن تسبب فى الترويج لحديث الافك وهو مسطح بن أثاثة بعد أن نزل قرآن يتلى يبرىء عائشة رضى الله عنها مما التصق بها .

تقول عائشة رضى الله عنها : « فلما أنزل الله فى براءتى قال أبو بكر رضى الله عنه ، وكان ينفق على مسطح بن أثاثة لقرابته منه وفقره :

---

(٢٧) المرجع السابق ص ٥٨٩

والله لا أنفق عليه شيئا بعد الذى قال لعائشة ، فأنزل الله تعـالى : **« ولا يأتل أولوا الفضل منكم والسعة أن يؤتوا أولى القربى والمساكين والمهاجرين فى سبيل الله ، وليعفوا وليصفحوا ، ألا تحبون أن يغفر الله لكم ، والله غفور رحيم »**(٢٨) .

فقال أبو بكر : بلى والله انى لأحب أن يغفر الله لى . فرجع الى مسطح النفقه التى كان ينفق عليه ، وقال : والله لا أنزعها منه أبدا »(٢٩) .

ونلمح فى هذا السلوك القدوة الصالحة المتمثلة فى مسلك أبى بكر الصديق رضى الله عنه تجاه مسطح بن أثاثه كما نلمح العفو والمسامحة وعدم اللجوء الى الانتقام من الظالم خصوصا اذا كان الانسان فى موقف أقوى يتيسر فيه منهجية العفـو **« الذين ينفقون فى السراء والضراء والكاظمين الغيظ والعافين عن الناس ، والله يحب المحسنين »**(٣٠) .

بهذا العرض لنموذج عملى فى مجال التربية الاسلامية الرشيدة يمكننا أن نستنتج السمات السلوكية الصحيحة التى يجب أن يتخلق بها الانسان المسلم :

١ ــ الالتزام بالصدق فى القول والوفاء بالعمل .
٢ ــ الحذر والحيطة فى تقبل المعلومات .
٣ ــ البعد عن مظان الشبهات .
٤ ــ عدم السرعة فى اصدار الأحكام .
٥ ــ استخدام منهج الاستقراء فى علاج المشكلات .
٦ ــ التقصى الى أبعد مدى فى سبيل الوصول الى الصواب .
٧ ــ التسلح بالصبر فى الأمور المعضلة .
٨ ــ استبطان الأمور بالشكل العلمى السليم .

* * *

---

(٢٨) النور : ٢٢
(٢٩) مختصر ابن كثير ، مرجع سابق ص ٥٨٩
(٣٠) آل عمران : ١٣٤ .

الفصل الثاني

قيم تربوية في القصص القرآني

تحليل لمواقف من قصة يوسف عليه السلام

*** مقدمة حول موضوع البحث وأهميته :**

الحاجة ماسة فى الآونة الأخيرة الى النظر فى القرآن الكريم ، بمنظور تربوى ، نتحرى فيه عمق التأثير ، وننهج فيه استنباط القيم التربوية من نصوص قرآنية ، بما يبرز حاجة البشر الى تلك القيم متفقة مع حاجات البشر ، ومتناسقة مع أهدافهم الحياتية .

ولعل من مبررات هذا الاتجاه لهذا النوع من الأبحاث ، ما استشرى فى العصر الحاضر ، من بعض كتابات وبحوث عن التربية الاسلامية ، من منطلق تاريخى عن التعليم الاسلامى ، الذى يتعرض للمدرسة فى الاسلام ، وتاريخ الكتاب ، ومعلم الكتاب .. الخ ، دون التعمق فى الفكر التربوى من منظور الكتاب والسنة ، اللهم فيما عدا النزر اليسير الذى يأتى باستشهاد اجمالى ، دون التعمق والفحص واستخراج ما بداخل تلك النصوص من فكر تربوى اسلامى .

ومع أهمية هذه الكتابات بهذا الشكل ، ومع تأثيرها كفكر وتراث تاريخى لا غنى عنه ، الا أن التركيز على هذا اللون فقط من الكتابة مما يبرز قضايا تربوية على النحو التالى :

(ا) عدم وضوح فكر تربوى من منظور اسلامى متكامل .

(ب) يبدو الفكر التربوى الغربى وقد احتل مكانا فى بعض النفوس ، مما قد يوحى بأنه هو الجدير بالبحث ، لأنه يتمشى مع متطلبات العصر ، وتقدم الأمم والشعوب .

(ج) قلة اهتمام بعض مفكرى التربية باستنباط بعض القيم الكامنة فى القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة .

(د) توفير المجال الخصب والأرض الرحبة ، أمام الغزو الفكرى ، حتى يتمكن من بث ونشر اتجاهاته وآرائه ، معتمدا فى هذا على التشكيك فى قدرة التربية الاسلامية على مواكبة الحياة العصرية من جهة • ومن جهة أخرى على جذب الشباب الى الفكر التربوى المشوه ، والذى امتزج فيه السم بالعسل ، من أجل تحويل المجتمعات الاسلاميه عن النظر فى قرآنها ، أو التشكيك فى قدرة هذا الكتاب على التناسق مع العصر والتوافق مع متطلباته وأهدافه •

هذا ولا أدعى أن بحثا كهذا ، سوف يزيل هذه السحب القاتمة . ويمحو هذا الضباب من وجه الفكر التربوى الاسلامى ، لأن هذا المجال أعنى التربية الاسلامية من القرآن الكريم ، ليس بالأمر الهين ، أو اليسير ، لأنه يحتاج الى دقة ، والى روية ، وبعد نظر •

وعلى كل حال فهى بدايه ، نرجو الله لها التوفيق ، فى مسارها الرحب الطويل •

ونحن يحدونا الأمل ويستلهمنا الرجاء ، أن نقتطف ذرات من قطرات من قيم تربوية ، يحتويها الكتاب المبين ، ويضمها القرآن الكريم •

وكم وقفنا متأملين وناظرين ، بل ومنتظرين ، لعل القدر يقذف الينا بعضا مما نرجوه حول كتابة من هذا النوع قد تشبع النهم ، وتشفى الغليل وتريح الضمير •

وهذا يلقى علينا تبعة الاعتراف بالفضل ، لاجتهاد المجتهدين فى هذا الميدان — جزاهم الله عن الاسلام خيرا — هذا الاجتهاد الذى جاء — من وجهة نظرنا — من منظور اسلامى بحت أحيانا أو من منظور تربوى أحيانا أخرى ، بينما بدا فيه المزج مبعثرا ، بعيدا عن الدقة والترابط مع أهداف الجماعة وقيمها التربوية ، كما بدت حاجة الكائن البشرى ، والمجتمع الانسانى غير واضحة فى تلك الكتابات •

وعسانا نجد — ان شاء الله — من يسهمون فى احياء هذا الفكر التربوى ويضيفون الى هذا الميدان شيئا يعتز به الاسلام والمسلمون ويكون قذائف فى وجه أعداء الاسلام من تربويين وغيرهم **« يريدون ليطفئوا نور الله بأفواههم والله متم نوره ولو كره الكافرون »**[1] •

* * *

(١) الصف : ٨

* التعريف العام بالسورة :

تجول هذه السورة بنا فى عالم الانسان ، وتهتم وتركز على الحياة الانسانية بحوادثها ودقائقها ، بكل ما فيها من عواطف وأفكار وعقائد ومشاعر ، وبهذا لا تتعرض السورة لعالم الكون الخارجى[٢] .

ان الله تعالى يقص فيها حياة الانسان أحسن القصص انها قطعه من الحياة بعروقها النابضة ومشاعرها المتأججة ونوازع الخير والشر فيها . اننا نرى فيها أنفسنا ، ولكن نرى مع ذلك يد القدر ونحس أثرها فينا وفى أعمالنا ، اننا نراها تخط فى الحوادث مصيرنا وتبلغ بنا الغايات المقـدرة منفذة لقضاء الله منسجمة مع غايات قـدره التى هى الخير المحض ، فتجمع بذلك بين الطاعة والارادة والعمل والتفاؤل بالمستقبل . ذلك هو السبب الذى يجعل لسورة يوسف هوى فى نفوسنا[٣] .

من هذا المنطلق كانت سورة يوسف درسا فى التربية ، كل التربيه بما فيها من اتجاهات نظرية وأفكار فلسفية ، بل ومواقف عملية يمكن لو أحسن استثمارها أن تكون مثلا يحتذى ونموذجا يقتفى .

هذا وبالرغم من أن جو الفترة التى نزلت فيها السورة ، كان حرجا وموحشا ، ويوحى بالشدة والحزن ، وبالرغم كذلك من أن بها مواقف . تبدو لأول وهلة أنها محزنة ، أقول : بالرغم من ذلك كله ، فقد انتهت بالفرج والتيسير ، وكأننا بهذه السورة ، وقد جاءت لتعيد الأمل ولتحيى صيحة الحق ، واليقين ، التى استمرت عالية حتى كتب الله النصر لهذا الدين ، فارتفعت رايته خفاقة على ربوع الدنيا كلها[٤] .

وكأننا فى سورة يوسف عليه السلام ، نترسم خطى نماذج تربوية ، كقدوة تحتذى ، ومثل يمكن أن نترسم خطاه ونسير على نهجه .

ومن هنا جاء اختيارنا لتلك القصة ، كنموذج فى غاية الدقة ، وتطبيق منهج الاسلام فى غير ما تباه أو غطرسة .

* * *

---

(٢) محمد المبارك ، دراسة أدبية لنصوص القرآن . دار الفكر ط ٤ ١٩٧٣ ، ص ٨٠

(٣) المرجع السابق .

(٤) سيد قطب . فى ظلال القرآن . المجلد الرابع . الجزء الثانى عشر مطبعة دار الشروق . ط ١ ، ١٤٠١ / ١٩٨١ ، ص ١٩٤٩

* بين السمات الفنية للقصة عمــوما والسمات الفنية للقصص القــرآنى :

قبل الحديث عن بعض خصائص الأسلوب القصصى فى القرآن ، يجدر بنا أن نعرف مفهوم القصة عموما ، ثم أقسامها من ناحية القالب والمظهر والشكل •

والقصة ــ أى قصة ــ هى طريقة تعبر عن الحياة أو بعض منها ، وذلك بتناول واقعة واحدة أو عدد من الوقائع ، يكون بينها ترابط ، على أن يكون للقصة بداية ونهاية •

أما أقسامها فأربعة :

(ا) الأقصوصة :

وتتضمن علاجا لجانب معين من حياة ، بحيث تقتصر على سرد حادثة ، أو مجموعة من حوادث ، تشكل موضوعا منفردا بأفراده ومقوماته ، بيد أنه يجب أن يكون الموضوع ــ مع قصره ــ كامل النضج من حيث التحليل والعلاج • وهذا يتطلب مهارة معينة عند الكاتب ، لأن المجال محدد وضيق ويحتاج الى براعة تامة •

(ب) القصـــة :

وفيها يعالج الكاتب مجموعة من المواقف والحوادث ، تكون أرحب مما يعالج فى الأولى ، والقصة وسط بين الأقصوصة والرواية ، وعليه فلا مندوحة أن يطول زمن القصة وتمتد حوادثها •

(جـ) الرواية :

وفيه يتاح للمؤلف أن يعالج موضوعا كاملا أو أكثر ، على أن يكون مملوءا بحياة تامة ، بحيث يفرغ القارىء من الرواية ، وقد أحاط علما بحياة بطلها أو أبطالها فى مراحلها المختلفة •

(د) الحكاية :

عبارة عن سرد لواقعة أو عدد من الوقائع الحقيقية أو الخيالية لا يلتزم فيها الحاكى بممارسة قواعد الفن الدقيقة ، ويمكنه أن يرسل الكلام بما ينسجم مع طبعه •

ويفترض العلماء ثلاثة عناصر أساسية فى القصة الفنية بمعناها المطلق : الموضوع ــ الشخصيات ــ الحوار •

ويحتمون توفر شروط معينة لكل من تلك العناصر ، ويبرزون جوانب المحال التى تحيل القصة الى نموط غير فنى •

ومن أهم تلك الأسس :

(ا) أن تتوفر للقصة وحدة فنية •

(ب) أن يتوفر فى عرضها أسلوب التلميح ما أمكن •

(ج) أن يبرز الكاتب شخصيات القصة بعناية تامة •

(د) وضوح الهدف والغرض من القصة •

(هـ) ألا تتضح الحكمة والموعظة بها بشكل مباشر وظاهر •

(و) ألا تخلو من عناصر التشويق •

(ز) أن يكون أسلوبها وسطا ، لا هو بالسهولة ، ولا بالبالغ الصعوبة[5] •

أما القصة فى القرآن الكريم فانها « ليست عملا فنيا مستقلا فى موضوعه وطريقة عرضه وادارة حوادثه كما هو الشأن فى القصة الفنية الحرة التى ترمى الى عرض فنى طليق ، انما هى وسيلة من وسائل القرآن الكثيرة الى أغراضه الدينية ، والقرآن كتاب دعوة دينية قبل كل شىء والقصة احدى وسائله لابلاغ هذه الدعوة وتثبيتها •

وقد خضعت القصة القرآنية فى موضوعها وفى طريقة عرضها وادارة حوادثها لمقتضى الأغراض الدينية ، ولكن هذا الخضوع الكامل للغرض الدينى لم يمنع بروز الخصائص الفنية فى عرضها ، ولا سيما خصائص القرآن الكبرى فى التعبير وهى التصوير »[6] • هذا ومع الأخذ فى الاعتبار أن خصائص القرآن الكبرى لا تنحصر فقط فى التصوير ، بل هنالك السطح والعمق والصدور والتنويع الابداعى •• الى غير ذلك •

والقصص القرآنى يرتبط أحيانا بالأنبياء ، فيتناول دعوتهم الى قومهم ، وتأييدهم بالمعجزات من الله سبحانه وتعالى • وذلك كما جاء فى قصة نوح وابراهيم وموسى وهارون وعيسى ومحمد وغيرهم من الرسل والأنبياء عليهم الصلاة والسلام •

وقد تكون القصة عابرة تتعلق بحوادث وأشخاص ، لم تثبت نبوتهم كما جاء عن الذين أخرجوا من ديارهم وهم ألوف حذر الموت

---

(٥) عبد الله شحاته • علوم القرآن والتفسير • دار الاعتصام • القاهرة ١٩٨٠ ص ١٩٥ ، ١٩٦

(٦) المرجع السابق ص ١٩٧

وطالوت وجالوت وابنى آدم وأهل الكهف وأصحاب الأخدود ••• الخ •
وقد تكون القصة متعلقة بحوادث فى عهد الرسول صلى الله عليه وسلم كغزوة بدر وأحد وحنين وتبوك ••• الخ •

ولكن مع هذا التنوع فى أشخاص القصة فى القرآن الكريم الا أن جميعها متفق حول تحقيق الأغراض الدينية البحتة ، ومنها توحد الدين المنزل من عند الله واثبات وحدانية الله رب العالمين ، واثبات الوحى والرسالة ، وكذلك اثبات عواقب الصبر والجزع والشكر والبطر ••• الخ[7] •

ويأتى مظاهر التنسيق الفنى فى القصة القرآنية من حيث كونها لا تخضع للقواعد الفنية للقصص الحديثة ، وقد تتوافق معها فى بعض الأحيان « وقد تنفرد بابداعها الفنى فى بعض الأحيان لكنها مع الاتفاق والاختلاف تبقى دائما قصة قرآنية لها سماتها ولها خصائصها ومميزاتها الخاصة دون أن تكون عملا فنيا مستقلا فى موضوعه وطريقة عرضه وادارة حوادثه ، ويبقى هدفها الأول والأخير هو هدف القرآن ذاته »[8] قال تعالى : **« نحن نقص عليك أحسن القصص بما أوحينا اليك هذا القرآن وان كنت من قبله لمن الغافلين »**[9] •

* * *

*** السمات الفنية فى قصة يوسف عليه السلام :**

لقد امتزجت فى هذه القصة — التى نحن بصددها — التوجيهات الدينية والتربوية ، وظهر ذلك فى سياق القصة وقبلها وبعدها ، وقد بدئت السورة بقوله تعالى : **« الر ، تلك آيات الكتاب المبين »**[10] ومعناه عند الطبرى : « وهذه آيات الكتاب المبين ، لمن تلاه وتدبر ما فيه ، من حلاله وحرامه ونهيه ، وسائر ما حواه من صنوف معانيه ، لأن الله جل ثناؤه أخبر أنه مبين ، ولم يخص ابانته عن بعض ما فيه دون جميعه ، فذلك على جميعه ، اذ كان جميعه مبينا عما فيه » •

يقول تعالى ذكره : **« انا أنزلناه قرآنا عربيا لعلكم تعقلون »**[11]

---

(٧) المرجع السابق ص ١٩٧ ، ١٩٨
(٨) المرجع السابق ص ٢٠٧ ، ٢٠٨
(٩) يوسف : ٣ (١٠) يوسف : ١
(١١) يوسف : ٢

انا أنزلنا هذا الكتاب بلسانهم ، ليعقلوه ، ويفقهوا منه ، وذلك قوله عز وجـل : ((**لعلكم تعقلون**))[١٢] .

((**نحن نقص عليك أحسن القصص بما أوحينا اليك هذا القرآن وان كنت من قبله لمن الغافلين**))[١٣] .

يقول جل ثناؤه لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم : « نحن نقص عليك يا محمد أحسن القصص ، بوحينا اليك هذا القرآن فنخبرك فيه عن الأخبار الماضية وأنباء الأمم السابقة والكتب التى أنزلناها فى العصور الخالية ، وان كنت من قبله لمن الغافلين عن ذلك ، لا تعلمها ، ولا شيئا منه »[١٤] .

وعلى هذا يكون القول ان بداية سورة يوسف جاءت كرد على المشركين ، الذين ادعوا أن القـرآن كان يعلمه أعجمى لرسـول الله صلى الله عليه وسلم ، كما أن فى قوله تعالى : ((**وان كنت من قبله لمن الغافلين**))[١٥] اشارة الى أن القرآن وحى من عند الله وكان النبى صلى الله عليه وسلم من الغافلين عن اتجاهه وموضوعاته[١٦] .

واذا كانت تلك بداية القصة اتضح فيها التوجيه نحو تثبيت الدعوة الاسلامية وأن القرآن كلام الله أنزله على محمد صلى الله عليه وسلم ، فاننا نجد تعقيبا دينيا تربويا فى نهاية القصة ، لا يقل أهمية عن بدايتها لأن هذا التعقيب يناسب الغرض الرئيسى من عرض القصة ، والعبرة الأساسية من ذكرها فى القرآن الكريم والايحاء بها الى النبى محمـد صلى الله عليه وسلم ، كما جاء التعقيب مؤكدا لما جاء فى مفتتح السورة بقول الله تعالى : ((**لقد كان فى قصصهم عبرة لأولى الالباب ، ما كان حديثا يفترى ولكن تصديق الذى بين يديه وتفصيل كل شىء وهـدى ورحمة لقوم يؤمنون**))[١٧] .

يقول تعالى ذكره : « لقد كان فى قصص يوسف واخوته عبرة

---

(١٢) أبو جعفر محمد بن جرير الطبرى ، جامع البيان عن تأويل آى القرآن . الجزء الثانى عشر ، ط ٢ ، ١٣٧٣ / ١٩٥٤ ، مطبعة مصطفى البابى الحلبى بمصر ، ص ١٤٩

(١٣) يوسف : ٣

(١٤) المرجع السابق ص ١٥٠

(١٥) يوسف : ٣

(١٦) سيد قطب . فى ظلال القرآن ، مرجع سابق ص ١٩٤٩

(١٧) يوسف : ١١١

لأهل الحجا والعقول فيعتبرون بها ، وموعظه يتعظون بها ، وذلك لأن الله جل ثناؤه بعد أن ألقى يوسف في الجب ليهلك ، ثم بيع بيع العبيد بالخسيس من الثمن ، وبعد الاسار والحبس الطويل ـ ملكه مصر ، ومكن له فى الأرض ، وأعلاه على من بغاه سوءا من اخوته ، وجمع بينه وبين والديه واخوته بقدرته ، بعد المدة الطويلة ، وجاء بهم اليه من الشقة النائية البعيدة ، فقال جل ثناؤه للمشركين من قريش ، من قوم نبيه محمد صلى الله عليه وسلم : لقد كان لكم أيها القوم فى قصصهم عبرة لو اعتبرتم به ، ان الذى فعل ذلك بيوسف واخوته لا يتعذر عليه أن يفعل مثله بمحمد صلى الله عليه وسلم ، فيخرجه من بين أظهركم ، ثم يظهره عليكم ويمكن له فى البلاد ويؤيده بالجند والرجال من الأتباع والأصحاب ، وان مرت به شدائد ، وأتت دونه الأيام والليالى والدهور والأزمان »[١٨] •

« **ما كان حديثا يفترى** »[١٩] يقول تعالى ذكره : ما كان هذا القول حديثا يختلق ويتكذب ويتخرص •• « **ولكن تصديق الذى بين يديه** »[١٦] يقول : ولكن تصديق الذى بين يديه ، من كتب الله التى أنزلها قبله على أنبيائه ، كالتوراة والانجيل والزبور ، ويصدق ذلك كله ، ويشهد له ، أن جميعه حق من عند الله[٢٠] •

« **وتفصيل كل شىء** »[١٦] يقول تعالى ذكره : وهو أيضا تفصيل كل ما للعباد اليه حاجة من بيان أمر الله ونهيه ، وحلاله وحرامه وطاعته ومعصيته ، وقوله : « **وهدى ورحمة لقوم يؤمنون** »[١٦] يقول تعالى ذكره : وهو بيان أمره ورشاد من جهل سبيل الحق ، فعمى عنه ، اذا تبعه فاهتدى به من ضلالته ، ورحمة لمن آمن به ، وعمل بما فيه ، ينقذه من سخط الله ، وأليم عذابه ، ويورثه فى الآخرة جناته ، والخلود فى النعيم المقيم • « **لقوم يؤمنون** » يقول : لقوم يصدقون بالقرآن وبما فيه من وعد الله ووعيده وأمره ونهيه فيعملون بما فيه من أمره وينتهون عما فيه من نهيه[٢١] • وبهذا تحتل قضية الايمان بالله وحده والاقرار له بالعبودية مفتتح السورة وختامها بنمط يعز على الوصف ويربو عن الخيـــال •

---

(١٨) أبو جعفر محمد بن جرير الطبرى ، ج ١٣ مرجع سابق ص ٩٠

(١٩) يوسف : ١١١

(٢٠) المرجع السابق ص ٩٠

(٢١) المرجع السابق ص ٩١

هذا ولقد كانت هذه القصة رائعة خصبة غنية تمثل الحياة بما فيها من وقائع وحوادث متسلسلة مترابطة ومؤامرات ومصادفات ومفاجات وعواطف ودوافع وآراء بشرية وأقدار الهيه وهى اطول قصة فى كتاب الله تضمنت مشاهد كثيرة متوالية[22] .

كما أن هذه القصة قد اشتملت على الكثير من صور الحياة الواقعية بما فيها من دوافع الخير ونوازع الشر ، ومن عاطفة الحنين والشفقة احيانا والكيد والتآمر أحيانا أخرى .

كما أنها اشتملت على الضمير الرادع والشهوة الجامحة والايمان القوى بالله والثقة به والتفاؤل العميق .

وبالجملة فلقد جمعت القصة صورا من الصراع بين الغريزة والواجب الخلقى والهوى والايمان[23] . واتسمت بأنها تحول الأنظار من السماء الى الأرض فتأخذ الانسان ليعيش الحياة وليشاهد الطبيعة الانسانية بكل مقوماتها واتجاهاتها ، سواء فيما يتعلق بالحب أو الكره ، البغض والحسد ، المكر والخديعة ، فهى آية فى الكشف عن عاقبة الصبر والصدق والاخلاص والشكر لله رب العالمين .

* * *

* الأهداف التربوية فى قصة يوسف عليه السلام :

لا شك أن الغرض الدينى التربوى ، قد احتل مكانا موسعا فى قصة يوسف عليه السلام ، واذا كانت القصة فى ذاتها بها مواقف تربوية ، ظهرت من خلالها فان اتحاد الغرض الدينى والتربوى قبل القصة ، وبعدها يعتبر الملمح الرئيسى فى تلك القصة ، والذى جاء كاطار عام وهدف أساسى لأنه يدور حول وحدة الدين ووحدة الألوهية .

وبهذا يمكننا أن نميز نمطين من الأهداف التربوية فى تلك القصة :

(ا) الهدف التربوى العام .

(ب) الأهداف التربوية الخاصة .

وسوف نتحدث عن كل تلك الأهداف بالتفصيل، آخذين فى الاعتبار أن كلا منهما مكمل للآخر ، فهما يلتقيان سعيا فى سبيل بناء الفرد المسلم والشخصية الاسلامية الموحدة .

---

(٢٢) محمد المبارك : دراسة أدبية لنصوص القرآن . مرجع سابق ، ص ٨٢ ، ٨٣

(٢٣) المرجع السابق ص ٨٨ ، ٨٩

أولا ــ الهدف التربوى العام : توحيد الله وعبادته والدعوة اليه :

تجىء وحدة الدين ووحدة الألوهية ، واتحاد الأنبياء والمرسلين حول الدعوة الى الله ، ونصرة دينه ، هدفا رئيسيا عاما فى تلك القصة ، حيث يمكن استنباط العبرة والعظة من قصص الأنبيــاء والمرسلين ، واستخلاص المواقف المتشابهة ، لادراك مدى الاعجاز الباهر والاتحاد الملتحم بين الأنبيــاء والمرسلين مع الاختــلاف فى الأزمنة والأمكنة ونوعية البشر •

وبهذا يأتى فى النهاية أن تدعيم مسار الدعوة الى الاسلام هدف رئيسى ومطلب ملح ، لجميع الأنبياء والمرسلين ، مع اختلاف فى المواقف والأحداث مع قومهم •

واذا كان هذا يصدق على جميع الرسل والأنبياء ، كما قال تعالى مخاطبا النبى محمد صلى الله عليه وسلم : **((شرع لكم من الدين ما وصى به نوحا والذى أوحينا اليك وما وصينا به ابراهيم وموسى وعيسى ، أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه ، كبر على المشركين ما تدعوهم اليه ، الله يجتبى اليه من يشاء ويهدى اليه من ينيب))**[٢٤] •

أقول : اذا كان ذلك ، كذلك ، فانه ينطبق على يوسف عليه السلام ، لأن قصته جاءت متماسكة فى وحدة كاملة مع دين الاسلام ، ومع مسار دعوة النبى محمد صلى الله عليه وسلم •

ولذلك جاءت بداية القصة ــ كما سبق أن ذكرنا ــ خطابا موجها للنبى صلى الله عليه وسلم ، كايناس له فيما يعانيه وما سوف يعانيه من قومه فى سبيل دعوته ، وما يقاسيه من أجلها ، فتبكر القصة لتؤكد أن القرآن كتاب الله أنزل لهداية الناس وارشادهم ، من أجل اصلاح حالهم ، وتقويم سلوكهم واستقامتهم على الطريق الصحيح لعلهم يثوبون الى رشدهم ، ويعقلون ما آتاهم به النبى محمد صلى الله عليه وسلم •

وفى القصة لفت للأنظار الى أن الهدف الأسمى من الحياة هو تحقيق العبودية لله رب العالمين فمع تمكين الله ليوسف فى الأرض ، وتبوئه خزانة الدولة ، ومع تمكين الله تعالى له بالعلم ، ومع تمكين الله له من تعبير للرؤيا ، لم يرج يوسف بعد هذا كله الا أن يتوفاه الله مسلما وأن يلحقه بالصالحين •

---

(٢٤) الشورى : ١٣

وهذا هدف تتفق فيه الديانات كلها ، وعلى رأسها خاتمة الديانات ، وصدق الله اذ يقول : ((**وما خلقت الجن والانس الا ليعبدون • ما أريد منهم من رزق وما أريد أن يطعمون • أن الله هو الرزاق ذو القـــوة المتين**))(٢٥) •

ويحقق يوسف عليه السلام الهدف الرئيسى للحياة بعد تلك المحن وتلك المواقف من الابتلاء والصبر فى الضراء والشكر فى السراء ، ويلتقى مع القرآن الكريم ، روحا كما التقى مع الاسلام عملا •

وهكذا يتحقق بقصة يوسف الهدف الأكبر ، وهو تمحيص المؤمنين بالاسلام فى بداية السنوات الأولى من الدعوة •

وقد كان الفقراء من المؤمنين بالاسلام فى حاجة الى نموذج عملى تربوى ، فكانت قصة يوسف عليه السلام بنصها ، وأحوالها وما فيها من مواقف محزنة وأليمة ، وما فيها من مكر وخداع وتدبير انتهت بنصر الله ينصر من يشاء ، وهو وحده المتكفل بعباده الأوابين الصالحين •

وفى العام الذى نزلت فيه سورة يوسف ، اشتد البلاء بالمسلمين وكانوا فى حاجة ماسة الى من يسرى عنهم ، فلقد ماتت خديجة أم المؤمنين ومات عم النبى صلى الله عليه وسلم أبو طالب ، سنده الوحيد ، ومن ذوى المكانة والجاه فى مكة واشتد الكرب بالمسلمين فكانت هذه القصة بمثابة مائدة نزلت من السماء تهون على المسلمين ما هم فيه لذلك فلا غرابة ، والموقف هكذا أن يخرج المسلمون من ديارهم فيهاجروا ولا غرابة أن يحيك المشركون المؤامرات لرسول الله ، ولا غرابة أن تقع المعارك ، وينتصر فيها المسلمون ، ويستشهد منهم العديد ، لا غرابة فى ذلك ففى قصة يوسف شىء من هذا ولكن النهاية هى الأساس ، ففيها الاطمئنان وفيها السلوى ، وصدق الله العظيم اذ يقول فى ختام سورة يوسف : ((**حتى اذا استيأس الرسل وظنوا أنهم قد كذبوا جاءهم نصرنا فنجى من نشاء ، ولا يرد بأسنا عن القوم المجرمين**))(٢٦) •

وهكذا تظهر عواقب الصبر فى تلك القصة ، حيث فيها الدعوة الى الاعتبار بمواقفها التربوية ، وما آلت اليه القصة من معنى عميق من معانى الحياة ، وهو أن الله يخلق من العسر يسرا ومن الضيق فرجا ومخرجا ، وأن تصرفات الانسان وأعماله تأتى نتائجها وفقا لقدر الله.

---

(٢٥) الذاريات : ٥٦ — ٥٨ (٢٦) يوسف : ١١٠

وارادته ، والمؤمن الصحيح الايمان هو من لا ييأس ولا ييتئس من روح الله ، فانه لا ييأس من روح الله الا القوم الكافرون •

ومن هنا فعليه أن يتحمل ويصبر ، فى ساعات الشدة ، ولا ينحدر مع الهوى أو الشهوة ، بل يترقب ساعة الانتظار والظفر ، ولقد كان النبى صلى الله عليه وسلم وصحبه فى أشد الحاجة الى هذا المعنى ، خصوصا وقد اشتدت بهم الخطوب وأحاطت بهم كل أساليب الاضطهاد من خصوم عنيدين أقوياء •

ولذلك جاء الخطاب للنبى صلى الله عليه وسلم : « **ذلك من أنباء الغيب نوحيه اليك ، وما كنت لديهم اذ أجمعوا أمرهم وهم يمكرون** »(٢٧) « **حتى اذا استيأس الرسل وظنوا أنهم قد كذبوا جاءهم نصرنا فنجى من نشاء ، ولا يرد بأسنا عن القوم المجرمين** » • وجاء هذا الخطاب داعيا النبى عليه الصلاة والسلام ألا ييأس لقلة المؤمنين المستجيبين لدعوة الاسلام(٢٨) « **وما أكثر الناس ولو حرصت بمؤمنين** »(٢٩) •

وحول نفس المعنى يذكر الامام الطبرى فى تفسير تلك الآيات « **ذلك من أنباء الغيب** » يقول تعالى ذكره : هذا الخبر الذى أخبرتك به من خبر يوسف ووالده يعقوب واخوته وسائر ما فى هذه السورة « **من أنباء الغيب** » يقول : من أخبار الغيب الذى لم تشاهده ولم تعاينه ، ولكنا « **نوحيه اليك** » ونعرفكه ، لنثبت به فؤادك ونشجع به قلبك ، وتصبر على ما نالك من الأذى من قومك فى ذات الله ، وتعلم أن من قبلك رسل الله اذ صبروا على ما نالهم فيه ، وأخذوا بالعفو ، وأمروا بالعرف ، وأعرضوا عن الجاهلين ، فازوا بالظفر ، وأيدوا بالنصر ومكنوا فى البلاد وغلبوا على من قصدوا من أعدائهم وأعداء دين الله ، يقول الله تبارك وتعالى لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم : فبهم يا محمد فتأسى وآثارهم فقص(٣٠) •

وفيما يتعلق بحرص النبى صلى الله عليه وسلم على ايمان قومه « **وما أكثر الناس ولو حرصت بمؤمنين** » يقول الله عز وجل : هناك

---

(٢٧) يوسف : ١٠٢

(٢٨) محمد المبارك . دراسات أدبية . مرجع سابق ص ٨٨

(٢٩) يوسف : ١٠٣

(٣٠) ابو جعفر محمد بن جرير الطبرى . جامع البيان عن تفسير آى القرآن . مرجع سابق ج ١٣ ص ٧٥

كثير من قومك يا محمد لا يؤمنون بك ولا يصدقونك ولا يتبعون ما جئتهم به بالرغم من حرصك على ايمانهم . وبالرغم من أنك لم تطلب على دعوتك لهم أجرا من ثواب وجزاء منهم ، انما ثوابك وأجر عملك على الله ، لأنك لو قلت لهم أو طلبت منهم ذلك فانهم سوف يقولون لك : انما تريد بدعائك ايانا اتباعك فى سبيل اقتطاع جزء من أموالنا . واذا كان الحال والشأن كذلك فكان جديرا بهم وحقا عليهم أن يوقنوا أن دعوتك لهم اتباع منك لأمر ربك[٣١] . ونصيحة منك لهم فى سبيل ما فيه مصلحتهم وقوام حياتهم وانقاذهم مما هم فيه من شرك ومن ضلال .

واستمرارا مع مناقشة الهدف الأسمى من السورة وهو وحدة الدين ووحدة الألوهية ، يخبر المولى عز وجل أنه بالرغم من وجود آيات الله فى الكون فى سمائه وأرضه من شمس وقمر ونجوم وكواكب وجبال وأشجار ونبات ، وهى ترى بالعين ، ويعاينها هؤلاء الذين يدعوهم الرسول للايمان ، غير أنهم يعرضون عنها ، ولا يتعظون بها ولا يفكرون فيها ، « وفيما دلت عليه من توحيد ربها ، وأن الألوهية لا تنبغى الا للواحد القهار ، الذى خلقها وخلق كل شىء فدبرها »[٣٢] .

« وكأين من آية فى السموات والأرض يمرون عليها وهم عنها معرضون . وما يؤمن أكثرهم بالله الا وهم مشركون »[٣٣] .

وهنا يظهر أن هؤلاء الذين كانت صفتهم الاعراض عن آيات الله فى الكون والدالة على وحدانيته انما يشركون فى عبادتهم مع الله الأوثان والأصنام ويتخذونها أربابا ويزعمون أن لله ولدا ، تعالى الله عما يقولون علوا كبيرا[٣٤] .

« أفأمنوا أن تأتيهم غاشية من عذاب الله أو تأتيهم الساعة بغتة وهم لا يشعرون »[٣٥] .

يقول جل ثناؤه : أفأمن هؤلاء الذين لا يقرون بأن الله ربهم الا وهم مشركون فى عبادتهم اياه غيره ، **« أن تأتيهم غاشية من عذاب الله »** تغشاهم من عقوبة الله وعذابه ، على شركهم بالله أو تأتيهم القيامة

---

(٣١) المرجع السابق ص ٧٦ (٣٢) المرجع السابق ص ٧٦
(٣٣) يوسف : ١٠٥ ، ١٠٦
(٣٤) أبو جعفر بن جرير الطبرى . مرجع سابق ص ٧٧
(٣٥) يوسف : ١٠٧

فجأة ، وهم مقيمون على شركهم وكفرهم بربهم فيخادهم الله عز وجل فى ناره ، وهم لا يدرون بمجيئها وقيامها[١١] . **((قل هذه سبيلى أدعوا الى الله ، على بصـــيرة أنا ومن اتبعنى ، وســـبحان الله وما أنا من المشركين))** .

وبهذه الآية يحسم الأمر ، وأن طريق النبى صلى الله عليه وسلم هو الدعاء الى توحيد الله واخلاص العبادة له من دون الآلهة والأوثان . وهذه الدعوة هى طريق رسول الله صلى الله عليه وسلم كما أنها أيضا طريق لمن آمن بالله سبحانه ، يقول تعالى ذكره : وقل تنزيها لله وتعظيما له ، من أن يكون له شريك فى ملكه ، أو معبود ســـواه فى سلطانه ، **((وما أنا من المشركين))** يقول : وأنا برىء من أهل الشرك به ، لست منهم ولا هم منى[٣٧] .

((وما أرسلنا من قبلك الا رجالا نوحى اليهم من أهل القرى ، أفلم يسيروا فى الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم ، ولدار الآخرة خير للذين اتقوا ، أفلا تعقلون))[٣٨] .

أفلم يسر هؤلاء المشركون الذين يكذبونك يا محمـــد ويجحدون نبوتك وينكرون ما جئتهم به من توحيد الله ، واخلاص الطاعة والعبادة له فى الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم اذ كذبوا رسلنا ألم نحل بهم عقوبتنا فنهلكهم وننج منها رسلنا وأتباعنا ، فيتفكروا فى ذلك ويعتبروا[٣٩] .

ومجمل القول أن الآيات العشر الأخيرة من سورة يوسف يخاطب المولى عز وجل نبيه محمدا صلى الله عليه وسلم : **((قل هـــذه سبيلى أدعوا الى الله ...))** قل يا محمد هذه دعوتى وتلك طريقتى وهى اخلاص العبادة لله دون الآلهة والأوثان . وتأتى الآية الأخيرة من السورة لتكمل العقد الذى بدأته والهدف الذى رسمته من العبرة والعظة والتوحيد .

((لقد كان فى قصصهم عبرة لأولى الألباب ، ما كان حديثا يفترى ولكن تصـــديق الذى بين يديه وتفصيل كل شىء وهـــدى ورحمة لقـــوم يؤمنون))[٤٠] .

---

(٣٦) أبو جعفر بن جرير الطبرى . مرجع سابق ص ٧٩

(٣٧) المرجع السابق جـ ١٣ ص ٨٠ ـــ والآية من سورة يوسف : ١٠٨

(٣٨) يوسف : ١٠٩

(٣٩) المرجع السابق جـ ١٣ ص ٨١

(٤٠) يوسف : ١١١

بهذا العرض يتضح أن الهدف التربوى العام فى تلك القصة هو الدعوة الى الله الواحد وافراده سبحانه بالعبادة • والعبادة مفهوم يتسع لما هو أعم من اداء الشعائر ليشمل أعمال الانسان كلها . طالما يبتغى بها وجه الله تعالى •

وهذا فى حد ذاته يعد تنفيذا للوظيفة الرئيسية التى من آجلها خلق الانسان • قال تعالى : « **واذ قال ربك للملائكة انى جاعل فى الأرض خليفة ...** »[41] والخلافه عمل ونشاط وعمارة للأرض وتعرف على طاقاتها وقواها ومكنوناتها وتنميتها وترقية الحياة بها » •

وعلى أن هذا يتم وفقا لشريعة الله وتحقيقا للمنهج الالهى الذي يتناسق مع الناموس الكونى للعالم[42] •

ومن هذا المنطلق كانت تلك الأنشطة كلها عبادة ، العبادة بمفهومها الواسع وفقا لحدود النشاط المطلوب من الانسان والذى يتفق مع قوله تعالى : « **وما خلقت الجن والانس الا ليعبدون** »[43] •

وهذا بلا شك يتناسق مع أعلى درجات التربية الخلقية وهى احدى الأهداف التي تسعي التربية — أي تربية — لتحقيقها •

والتربية الخلقية حين تستند على الدين فلا شك أنها تحقق هدفها الأسمي فى صفاء الضمير وتحقيق العدل والخير والجمال للانسان •

* * *

ثانيا — الأهداف التربوية الخاصة :

معلوم أن الغاية من خلق الانسان الابتلاء ، وأن المطلوب من هذا الابتلاء هو عبادة الله رب العالمين وطاعته •

ومن هنا تدور أو يجب أن تدور الأهداف العامة للمجتمع — أي مجتمع مسلم — فيما يتعلق بالأنظمة والسياسات والفلسفات (الأيديولوجيات) سواء ما كان منها فى الشرق أم فى الغرب ، طالما أن هناك تسليما بأن الاسلام هو الدين الخالص « **الا لله الدين الخالص** »[44] •

---

(٤١) البقرة : ٣٠

(٤٢) سيد قطب . فى ظلال القرآن ، جـ ٢٧ مرجع سابق ص ٣٣٨٧

(٤٣) الذاريات : ٥٦

(٤٤) الزمر : ٣

كما أن الأهداف الخاصة حول سياسات التعليم ونظمه وادارته ومتعلقاتها وما يدور فى فلكها من برامج ولوائح وقوانين .. الخ ، كل هذه يجب أن يكون محورها الأساسى ، تحقيق العبودية لله ، وأن يكون هدفها النهائى اخلاص العبادة لله رب العالمين .

فى هذا الاطار ومن هذا المنطلق نلمح أن يوسف عليه السلام أمام صنوف المحن وأنواع الابتلاء المختلفة ، قد صبر ، وزاول دعوته الى الاسلام وهو فى أحلك صنوف الابتلاء أثنـــاء سجنه « وخرج منها كلها متجـــردا خالصا ، وآخر توجهاته ، وآخـــر اهتماماته ، فى لحظه الانتصار على المحن جميعا ، وفى لحظة لقاء أبويه ولم شمله ، وفى لحظة تأويل رؤياه وتحقيقها كما رآها .. « **اذ قال يوسف لأبيه يا أبت انى رأيت أحد عشر كوكبا والشمس والقمر رأيتهم لى ساجدين** » آخـــر توجهاته وآخر اهتماماته فى هذه اللحظة هى التوجه المخلص المتجرد المنيب الى ربه ، منخلعا من هذا كله بكليته كما يصوره القرآن الكريم : « **فلما دخلوا على يوسف آوى اليه أبويه** ... » ــ « ... **رب قد آتيتنى من الملك وعلمتنى من تأويل الأحاديث ، فاطر السموات والأرض أنت وليى فى الدنيا والآخرة ، توفنى مسلما وألحقنى بالصالحين** »(٤٥)

« وهكذا كانت طلبته الأخيرة .. بعد ذلك كله وهو فى غمرة السلطان والرخاء ولم الشمل .. أن يتوفاه ربه مسلما ، وأن يلحقه بالصالحين .. وذلك بعد الابتلاء والمحنة ، والصبر الطويل والانتصار الكبير »(٤٦) .

واذا كان منهج الاسلام يحتم استثمار مواقف الانسان المسلم ، أعنى جميع الخبرات والمواقف العملية فى حياته كلها ، بحيث تصبح خالصة لوجه الله رب العالمين فان يوسف عليه السلام كان النموذج الأعظم لتلك المنهجية الاسلامية الخالصة ، ذلك أن ما ابتلى به يوسف عليه السلام متنوع ومتعدد سواء فى طبيعته أو اتجاهاته ابتلاء بالشدة وابتلاء بالرخاء ، وابتلاء بفتنة الشهوة وفتنة السلطان ، ابتلاء بانفعالات المشاعر أمام مختلف المواقف ومختلف الشخصيات . والنتيجة الباهرة أمام تلك الاختبارات ، هى الاتجاه الى الله سبحانه وتعالى اتجاه العبد المنيب الذى يرجو رحمة الله ويخشى عذابه(٤٧) .

---

(٤٥) يوسف : ٩٩ ــ ١٠١

(٤٦) سيد قطب . فى ظلال القرآن جـ ١٢ ، مرجع سابق ص ١٩٥٠

(٤٧) المرجع السابق ص ١٩٥٢

بهذه الأساليب نستطيع أن نضع عناصر الأهداف التربوية الخاصة لقصه يوسف عليه السلام ، واضعين فى الاعتبار أننا فى هذا المبحث سنستشهد بآيات من القصة تدعم القيمة التربوية التى نحن بصددها .

ومن هنا — ولضيق المقام — فلن نتعرض بالتفصيل لكل آيات السورة سوى أننا نضع بين يدى القارىء الأهداف التربوية مقرونة بالآيات الدالة عليها ، شارحين للبعض منها لتأييد القيم التربوية موضع البحث .

وبهذا نتجنب الاطالة نظرا لما تتطلبه طبيعة هذا البحث وأيضا نتيح لمن يريد المزيد من التعرف على التفصيلات أن يرجع اليها فى كتب التفسير ، وفقا لما سنلمح اليه من الآيات الدالة على كل موقف تربوى .

وتقع قصة يوسف وحدها فى ثمان وتسعين آية ، بالاضافة الى الثلاث الآيات الأولى ، والعشر الآيات الأخيرة من السورة هذا ولقد تضمنت السورة مشاهد ومواقف كثيرة نذكرها فيما يلى توطئة لذكر أهم الأهداف التربوية الخاصة .

* * *

*** مشاهد القصة :**

١ — رؤيا يوسف وتقع فى الآيات (٤ — ٧) وتتضمن تلك الآيات نمطا فى الطبيعة الانسانية ممثلا فى حرص يعقوب عليه السلام على يوسف ونصحه بعدم حكاية رؤياه لاخوته كما تتضمن الآيات التفاؤل لمستقبل مشرق ينتظر يوسف عليه السلام .

٢ — مؤامرة وضع يوسف فى الجب ، وتنفيذها ، وبيعه ببيع العبيد . ويقع هذا المشهد فى الآيات (٨ — ٢٠) وتتضمن الآيات الايمان بالله والثقة به ممثلا فى اسناد الأمر لله رب العالمين فى كشف تلك المؤامرة « **قال بل سولت لكم أنفسكم أمرا ، فصبر جميل ، والله المستعان على ما تصفون** »(٤٨) .

٣ — يوسف فى مصر وفى بيت العزيز ، ومؤامرة تدبر لها زوجة العزيز ومشهد نسائى من نساء القصر ، ثم تمكين ليوسف ، وعلم وحكمة يؤيد الله سبحانه وتعالى بها يوسف لأنه هو الذى قد رباه وأحسن

---

(٤٨) يوسف : ١٨

مثواه وتقع تلك المشاهد فى الآيات (٢١ ــ ٣٤) وتتضمن الصدق مع الله والاخلاص فى درء نزغات الشيطان •

٤ ــ يوسف فى السجن يدعو الى الله على بصيرة ، فيكون محل ثقة ويصبح من المحسنين ، يلجأ اليه الملك ليفسر له ما رآه فى منامه • ويصبح الايمان بالله دعوة ابراهيم واسحاق ويعقوب منهجا ليوسف وتقع تلك المشاهد فى الآيات (٣٥ ــ ٥٣) وتتضمن يقظة الضمير حين اعترفت زوجة العــزيز ببراءة يوسف مما سبق أن نسب اليه : ((**قالت امرأة العزيز الآن حصحص الحق أنا راودته عن نفسه ، وانه لمن الصــادقين**))[٤٩] •

٥ ــ يوسف الذى مكن له فتولى خزائن الدولة فيصير برحمة الله من المحسنين الصادقين المخلصين ((**ولأجر الآخرة خير للذين آمنوا وكانوا يتقون**))[٥٠] • ونرى هذا فى الآيات (٥٤ ــ ٥٧) •

٦ ــ يوسف مع اخوته ، وذهابهم من أجل الحصول على الأطعمة ، بعد أن أحاط القحط بالعباد والبلاد ، ويوسف لا يكشف عن شخصيته ويحيط ذلك بسرية كاملة • وما كان من ابقاء يوسف لأخيه ثم ما كان من تفاؤل يعقوب عليه السلام وطلبه من بنيه ألا ييأسوا ولا يركنوا للتكاسل فى طلب يوسف وأخيه ونلمح تلك المشاهد فى الآيات (٥٨ ــ ٨٨) •

٧ ــ أما الآيات (٨٩ ــ ١٠١) فقد جاءت خاتمة المطاف واشتملت على التقاء يوسف وأخيه بأبويه واخوته ، والصفح عنهم وطلب المغفرة لهم • وجاء دعاء يوسف بعد أن أتم الله عليه نعمة التقائه بأبويه وأخوته خاتمة فى منتهى الصدق والاخلاص للدعوة الى الله : ((**رب قد آتيتنى من الملك وعلمتني من تأويل الأحاديث ، فاطر السموات والأرض أنت وليى فى الدنيا والآخرة ، توفنى مسلما وألحقنى بالصالحين**))[٥١] •

ومن خلال هذه المشاهد سوف نتخير بعض القيم التربوية من خلال مواقف فى قصة يوسف عليه السلام على الشكل الآتى :

أولا : الاسلام دين الفطرة •
ثانيا : الايمان بالله والثقة به •
ثالثا : يقظة الضمير •

---

(٤٩) يوسف : ٥١
(٥٠) يوسف : ٥٧
(٥١) يوسف : ١٠١

رابعا : الدعوة الى الخير •
خامسا : التفاؤل المقرون بالعمل •
سادسا : الصدق والاخلاص •
وسنتحدث عن كل من تلك القيم مدعمين ذلك ببعض التفاسير الصحيحة فى هذا المقام :

أولا ــ الاسلام دين الفطرة :

ليس غريبا على النهج القرآنى فى أسلوب القصة ذلك التدعيم الكامل والاعتراف الصريح بمنطق الفطرة السليمة ، متمثلا فى شخصيات هذه القصة مع تعــدد أفرادها ، واختلافهم بين كبير مسن يعقوب عليه السلام ، النبى المطمئن الموصول ، وبين ملك عزيز مهيب له من الجلال والسلطان ــ والسلطان لله رب العالمين ــ بالاضافة الى أخوة يوسف الذين احتشدت قلوبهم غيرة وحسدا وحقدا ومؤامرة ومناورة وقد ضعفت نفوسهم أمام مواجهة آثار الجريمة • بيد أن أحدهم قد اتسم بشخصية موحدة السمات فى كل مراحل القصة •

ففى البداية يقول لاخوته بعد أن اعتزموا قتل يوسف : ((**قال قائل منهم لا تقتلوا يوسف وألقوه فى غيابة الجب يلتقطه بعض السيارة ان كنتم فاعلين**))(٥٢) ، وقوله لهم حين انصرفوا من موقفهم أمام يوسف بعد رفضه الكيل لهم واحتجازه لأخيه يقول لهم : ((**فلن أبرح الأرض حتى يأذن لى أبى أو يحكم الله لى ، وهو خير الحاكمين**))(٥٣) •

وهذه امرأة العزيز ، بما اتسمت به من جنوح الغريزة الأنثوية المتــأثرة بالبيئة المصرية الجاهلية فى بلاط الملوك الى جانب طابعهــا الشخصى الخاص الواضح فى تصرفها ووضوح انطباعات البيئة ، وموقف النسوة المتجلى فى حديثهن عن امرأة العزيز وفتاها واغرائهن ليوسف وتهديد امرأة العزيز له فى مواجهتهن جميعا ونحو ذلك مما يجرى وراء أستار القصور ودسائسها ومناوراتها •

بين هذه الشخصيات المتفاوتة فى تفكيرها وأهدافها ، والمتباينة فى طبيعتها ونوعيتها ، يتجلى القصص القرآنى ومنه قصة يوسف فى أسلوب متنــاسق ومتناغم ، لا خلل فيه ولا اعوجاج ، فيــأتى معترفا بالصفة البشرية للكائن الحى فلا لبس ولا غمــوض فى أى من تلك المواقف ،

---

(٥٢) يوسف : ١٠ (٥٣) يوسف : ٨٠

ولا تحيز لأحد على حساب الآخر ، لأن هذا هو منهج الاسلام الكامل فى الأداء التربوى من خلال القصص القرآنى ، هذا الأداء الذى لا يهمل خلجة بشرية واقعية واحدة ، وفى الوقت ذاته لا ينشىء مستنقعا من الوحل يسميه « الواقعية » كالمستنقع الذى أنشأته « الواقعية » الغربية الجاهلية[٥٤] !

وهذا المنهج قد استكمل التصوير النفسي للبشر بواقعية كاملة ، دون أن يغفل اية لمحة حقيقية من لمحات النفس الانسانية . ولعلنا بهذا نلمح الترفع فى هذا الأداء التربوى عن مستوى الاسفاف المقزز للفطرة السليمة ، أو ما يطلق عليه فى هذا العصر « الواقعية » أو « الطبيعية »[٥٥] .

وبهذا العرض يمكن القول أن الأداء التربوى فى قصة يوسف عليه السلام قد استخدم النمط الكامل المتكامل فى البناء التربوى لأن الاعتراف بالطبيعة الانسانية واضح فيها ، وزيادة على ذلك فالاسلام مع اعترافه بالطبيعة الانسانية الا أنه يوجهها ويعدل من سلوكها ، بما يحقق للانسان الخير فى نفسه وفى مجتمعه وبما يحقق له الخير فى دينه ودنياه .

ثانيا ـ الايمان بالله والثقة به :

ان المواقف التى تبينتها قصة يوسف توحى الى موجبات الدعوة الى الله وما يستلزمه ذلك من صبر ورباطة جأش . ولقد صاحب هذا المغزى التربوى مواقف كثيرة فى القصة نذكر منها ما يلى :

(ا) يوسف ملقى فى الجب ، وفى أزمته هذه الشديدة ، وابتلائه بعد الكيد له والمكر به ، ومع ذلك فهو المؤمن بربه الواثق بنصره ، قال تعالى : ((**وأوحينا اليه لتنبئنهم بأمرهم هذا وهم لا يشعرون**))[٥٦] على خلاف بين المفسرين حول زمن الايحاء . يقول الامام الطبرى حول هذا : وأوحينا الى يوسف لتخبرن اخوته بأمرهم هذا ، يقول : بفعلهم هذا الذى فعلوه بك ((**وهم لا يشعرون**)) يقول : وهم لا يعلمون ولا يدرون . ثم اختلف أهل التأويل فى المعنى الذى عناه الله عز وجل بقوله : ((**وهم لا يشعرون**)) فقال بعضهم : عنى بذلك أن الله أوحى الى يوسف أن يوسف : سينبىء اخوته بفعلهم به ما فعلوه من القائه

---

(٥٤) فى ظلال القرآن . مرجع سابق ص ١٩٥٢

(٥٥) المرجع السابق .   (٥٦) يوسف : ١٥

فى الجب وسائر ما صنعوا به من ضنيعهم ، واخوته لا يشعرون بوحى الله اليه بذلك[٥٧] .

(ب) يوسف فى السجن ، بين ظلماته ومكابدة المتاعب والمصاعب بداخله ؛ وقد طال به السجن بعد أن نسى أحد الفتيين الناجى من السجن أن يذكر يوسف عند الملك ، وقد كان طريح السجن مثل يوسف ونجا منه ثم عاد الى القصر وكان ما كان من آمر رؤيا الملك وذهاب الفتى الناجى ليوسف فى السجن واستطاعة يوسف تفسير رؤيا الملك الذى أمر باحضار يوسف لديه فيما بعد . وسجين هذا حاله ، ينتظر منه ، أن يستجيب لفوره للخروج من السجن والذهاب الى الملك والتخلص من تلك القيود ، والعيش فى كنف القصور .

ومع ذلك فان ايمانا بالله وثقة به ، يحركان يوسف عليه السلام ، ويحثانه على التريث والتأنى ، وعدم الاستجابة الفورية فى سرعة تلبية أمر الملك ، حتى تنجلى الظلمة وتنقشع سحب التهمة الموجهة اليه من غير دليل والتى راح بسببها فى غيابات السجن لسنوات ، وينطق يوسف عليه السلام منطق الحق قائلا لرسول الملك : « **فلما جاءه الرســول قال ارجع الى ربك فاسأله ما بال النسوة اللاتى قطعن أيديهن ، ان ربى بكيدهن عليم** »[٥٨] . يقول الامام الطبرى فى تفسير هذه الآية : يقول تعالى ذكره فلما رجع الرسول الذى أرسلوه الى يوسف ، الذى قال : « **أنا أنبئكم بتأويله فأرسلون** »[٥٩] فأخبره بتــأويل رؤيا الملك عن يوسف ، علم الملك حقيقة ما أفتاه به من تأويل رؤياه وصحة ذلك ، وقال الملك : ائتونى بالذى عبر برؤياى هذه[٦٠] .

وقوله : « **أن ربى بكيدهن عليم** » يقول : ان الله تعالى ذكره ذو علم بصنعهن وأفعالهن التى فعلن بى ويفعلن بغيرى من الناس لا يخفى ذلك كله ، وهو من وراء جزائهن على ذلك[٦١] . راجع فى هذا الآيات (٣٥ ــ ٥٣) .

(ج) موقف يوسف من اخوته ، بعد أن تبوأ مكانته كوزير يسوس الأمور فيما يتعلق بأقوات الناس ، ويدبر ذلك فى قدرة تامة وفى حصافة

---

(٥٧) أبو جعفر محمد بن جرير الطبرى . جامع البيان عن تأويل آى القرآن ، مرجع سابق . ج ١٢ ص ١٦١

(٥٨) يوسف : ٥٠ .

(٥٩) يوسف : ٤٥

(٦٠) المرجع السابق ص ٢٣٤

(٦١) المرجع السابق ص ٢٣٦

وحنكة أقدرته أن ينقذ البلاد ، وبعض ما جاورها من فرط ما ألم بها من السبع السنين العجاف ، ومن تلك التهلكة التى كادت أن توقع الناس الحرج الشديد من ضيق العيش وخوف التهلكة • ويوسف فى تلك المكانة وقد ضم اليه أخاه ، يقول له اخوته بعد أن اكتشفوا أمره من كلامه : ((**أئنك لأنت يوسف**))[٦٢] قال : ((**أنا يوسف وهذا أخى ، قد من الله علينا ، انه من يتق ويصبر فان الله لا يضيع أجر المحسنين**))[٦٣] •

ويذكر الشهيد سيد قطب فى معنى هذه الآية : قالوا : ((**أئنك لأنت يوسف**)) ؟ ((أئنك لأنت ؟! فالآن تدرك قلوبهم وجوارحهم وآذانهم ظلال يوسف الصغير فى ذلك الرجل الكبير ((**قال أنا يوسف وهذا أخى ، قد من الله علينا ، انه من يتق ويصبر فان الله لا يضيع أجر المحسنين**))[٦٣] مفاجأة ! مفاجأة عجيبة •• يعلنها لهم يوسف ويذكرهم فى اجمال بما فعلوه بيوسف وأخيه فى دفعة الجهالة •• ولا يزيد •• سوى أن يذكر منة الله عليه وعلى أخيه ، معللا هذه المنة بالتقوى ، والصبر وعدل الله فى الجزاء • أما هم فتتمثل لعيونهم وقلوبهم صورة ما فعلوا بيوسف ويجللهم الخزى والخجل وهم يواجهونه محسنا ((**قالوا تالله لقد آثرك الله علينا وان كنا لخاطئين**))[٦٣] • ولكن التقوى والصبر والثقة فى الله حتمت على يوسف أن يقول لاخوته وهو فى مركز القوة ولكنها قوة الايمان وفى موقف المنتصر ولكنه العزيز بالله يقول لاخوته : ((**لا تثريب عليكم اليوم ، يغفر الله لكم ، وهو أرحم الراحمين**))[٦٤] • راجع فى هذا الآيات (٥٨ ــ ٩٢) •

وليس بعد ذلك من حديث لمتحدث عن السماحة والعفو وكرم الخلق وبذر السلوك الصحيح لدى الانسان فى نمط عملى نموذجى تجريبى ، ينطق الانسان ويجعله يشيد بالفضل ويفاخر بالفضيلة مما حدا باخوة يوسف أن يقولوا له بعد أن تكشف لهم هذا الدرس التربوى ((**قالوا تالله لقد آثرك الله علينا وان كنا لخاطئين**))[٦٥] • وفى هذا اعتراف سببه الثقة والايمان بالله الذى نفذه يوسف عليه السلام فى اخلاص وصدق ويقين •

---

(٦٢) يوسف : ٩٠

(٦٣) فى ظلال القرآن ، مرجع سابق جـ ١٣ ص ٢٠٢٧

(٦٤) يوسف : ٩٢ (٦٥) يوسف : ٩١

ثالثا — يقظة الضمير :

بعد أن ألقت المقادير بيوسف عليه السلام فى السجن ، وتعرف على اثنين من السجناء الفتيان ، وبعد أن قصا عليه ما رآياه فى منامهما ، ثم ما كان من يوسف عليه السلام من تفسير لما رآياه ، مما زاد من تعلقهما به وثقتهما فيه .

فلما استأنس يوسف فيهما اليقظة واستشعر منهما الهمة ، التى مهد هو لها استطاع يوسف عليه السلام أن ينفذ الى قلبيهما ، ليستقبلا ما يقوله يوسف عليه السلام من أمر التوحيد والدعوة الى الله ، واستنفر يوسف من نفسه الهمة والعزم وصيحة الضمير وقام يدعو الى الله وهو فى السجن .

قال تعالى : « **واتبعت ملة آبائى ابراهيم واسحاق ويعقوب ، ما كان لنا أن نشرك بالله من شىء ، ذلك من فضل الله علينا وعلى الناس ولكن أكثر الناس لا يشكرون . يا صاحبى السجن أأرباب متفرقون خير أم الله الواحد القهار . ما تعبدون من دونه الا أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم ما أنزل الله بها من سلطان ، ان الحكم الا لله ، أمر الا تعبدوا الا اياه ، ذلك الدين القيم ولكن أكثر الناس لا يعلمون** »(٦٦) .

وهذه الآيات تكشف أن التوحيد الخالص لله ، أمر مقرر فى جميع رسالات الرسل ولكن الناس هم الذين لا يعرفون هذا الفضل ولا يشكرونه ، وبهذا المدخل اللطيف يخطو يوسف عليه السلام خطوة خطوة فى حذر ولين ، ليستحوذ على قلبى الرجلين وليوقظ الضمير فيهما ، فيكشف لهما عن فساد اعتقادهما ، وفساد ذلك الواقع النكد الذى يعيشون فيه . بعد ذلك التمهيد التربوى الطويل .. « **أأرباب متفرقون خير أم الله الواحد القهار** » .. ثم يتخذ يوسف عليه السلام منهما صاحبين ويتحبب اليهما بهذه الصفة المؤنسة ، ليدخل من هذا المدخل الى صلب الدعوة وجسم العقيدة ، وهو لا يدعوهما اليها دعوة مباشرة ، انما يعرضها قضية موضوعية(٦٧) .

ثم يكشف يوسف عليه السلام النقاب عن الفطرة البشرية ، التى لا تعرف سوى اله واحد ففيم اذن تعدد الأرباب ؟ لا شك أن الذى ينبغى أن يطاع شرعه وينفذ سلطانه هو الله الواحد القهار ، وهو فى

---

(٦٦) يوسف : ٣٨ — ٤٠

(٦٧) سيد قطب . فى ظلال القرآن ، ج ١٢ ص ١٩٨٩

غنى عن العالمين « فهو سبحانه لا يريد منهم الا التقوى والصلاح والعمل وفق منهجه ث فيغدو لهم هذا كله عبادة ، وحتى الشعائر التى يفرضها عليهم انما يريد بها اصلاح قلوبهم ومشاعرهم ، لاصلاح حياتهم وواقعهم .. ففرق بين الدينونة لله الواحد القهار والدينونة للأرباب المتفرقة بعيد[68] .

« **ان الحكم الا لله ...** » فالحكم مقصور عليه وحده ، والحاكمية من خصائص الألوهية « من ادعى الحق فيها فقد نازع الله سبحانه أولى خصائص ألوهيته »[69] .

وهكذا يرسم التعبير الفنى فى تلك الآيات خفقات المشاعر وانتفاضات الوجدان رسما رشيقا رفيقا شفيفا[70] .

وبهذا العرض يظهر لنا طريقة القرآن الكريم فى نقد الفساد الذى يستشرى فى المجتمع ويسلك القرآن وجهات فنية تعتمد على القصص وضرب الأمثال ، كما يستخدم المناقشة والحوار وعرض نماذج بشرية فى معرض النقد وينتقى القرآن فى القصة أبرز حوادثها وأشدها صلة بالعبرة المقصودة مغفلا التفاصيل الزائدة ومركزا على تلقين الأفكار التى لا تفضل الواقع الانسانى بل ترتفع به الى المثل الأعلى[71] . وهذا ما نلحظه واضحا فيما تعرضنا له من موقف يوسف من الفتية فى السجن ودعوتهم الى الله وافراده سبحانه بالعبادة ، ودعوة قومهم الذين هم على دينهم من خلال دعوتهم ، مستخدما فى ذلك منطق التخلية بعد التخلية فهو يجاهد فى سبيل تخليهم عن الاشراك بالله ، ثم يفسح المجال لاقناعهم بعبادة الله وايقاظ ضميرهم .

رابعا ـــ الدعوة الى الخير :

ويتمثل ذلك فى شخصية يعقوب عليه السلام الأب الرحيم ، الشفيق الحذر ، الصابر المتفائل بالنصر ، والفرج ، ويوسف عليه السلام المظلوم الذى ابتلى فصبر على بلائه وانتظر رحمة ربه ، شاكرا نعمته ، يغلب ايمانه على هواه وعلى شهوته ، محسن لا يضمر الا الخير ، وأبناء يعقوب الحاسدون المتآمرون[72] .

---

(68) المرجع السابق ص ۱۹۸۹ ، ۱۹۹۰ .

(69) المرجع السابق . (70) المرجع السابق ص ۱۹۹٦

(71) محمد المبارك ، دراسة أدبية ص ۱۰۱

(72) محمد المبارك ، دراسة أدبية . مرجع سابق ص ۸۷

هذه الشخصيات تجمعها مواقف ، يتضح فيها الدعوة الى الخير ، والصفح والعفو والمسامحة عنوانا لتلك الشخصيات المثالية التى هى الأمثلة الحية النابضة بالحب والخير ، فيوسف يقول لاخوته وهو فى أوج الانتصار والرفعة : « ... **لا تثريب عليكم اليوم ، يغفر الله لكم ، وهو أرحم الراحمين** »(٧٣) . ويعقوب عليه السلام يقول لبنيه بعد أن استرحموه طالبين منه المغفرة والعفو ، انه سوف يستغفر لهم . « **قالوا يا أبانا استغفر لنا ذنوبنا انا كنا خاطئين . قال سوف أستغفر لكم ربى ، انه هو الغفور الرحيم** »(٧٤) .

وكأنى بيعقوب عليه السلام وقد عايش هذه المحن العصيبة ، يرى بنفسه ويدرك بحسه نتيجة ما سبق أن رآه ببصيرته واستشعره بقلبه ، أن وراء هذه الرؤيا شأنا عظيما لهذا الغلام . لم يفصح هو عنه ولم يفصح عنه سياق القصة كذلك . ولا تظهر بوادره بين حلقتين منها . أما تمامه فلا يظهر الا فى نهاية القصة بعد انكشاف الغيب المحجوب . ولهذا نصحه بألا يقص رؤياه على اخوته ، خشية أن يستشعروا ما وراءها لأخيهم الصغير — غير الشقيق — فيجد الشيطان من هذا ثغرة فى نفوسهم فتمتلىء نفوسهم بالحقد ، فيدبروا له أمرا يسوؤه(٧٥) . ومن هنا فان يعقوب عليه السلام كان يتنبأ بالخير ليوسف وكان يعالج نزعات الشيطان بين بنيه بأسلوب النبى الموصول الراغب فى وضع الثواب لمستحقيه فى الوقت المناسب والزمان حتى ينتزع الشر من القلوب ويبذر مكانه الخير والحب والوفاء .

خامسا — التفاؤل المقرون بالعمل :

لقد برز التفاؤل فى هذه القصة فى عدد من المواقف :

— حين أجاب يعقوب بنيه الذين كذبوا عليه فى شأن يوسف وأخفوا عليه أمر وضعه فى الجب ، قال لهم : « **بل سولت لكم أنفسكم أمرا ، فصبر جميل ، والله المستعان على ما تصفون** »(٧٦) .

— حين طلب اخوة يوسف من يعقوب عليه السلام أن يصطحبوا

---

(٧٣) يوسف : ٩٢ (٧٤) يوسف : ٩٧ ، ٩٨
(٧٥) سيد قطب ، فى ظلال القرآن ، مرجع سابق ص ١٩٧١
(٧٦) يوسف : ١٨

معهم أخا لهم من أبيهم (هو شقيق ليوسف واسمه بنيامين) كطلب يوسف منهم حتى يمكنهم من الكيل والحصول على الصفقة التى خرجوا من أجلها ليرفعوا عن قومهم غائلة الجوع والفاقة فى سنوات القحط • قال لهم أبوهم فى ايمان النبى الموصول المتفـــائل بنصر الله المعتصم المتين قال : « **لن أرسله معكم حتى تؤتون موثقا من الله لتأتننى به الا أن يحاط بكم ، فلما آتوه موثقهم قال الله على ما نقول وكيل** »[77] •

— أما فى الآيات (٨٣ — ٨٧) ففيها التفاؤل المصحوب بالعمل والاجتهاد فى سبيل الهدف وذلك بعد أن شق على بنيه أن يخلصوا أخاهم بنيامين من يوسف عليه السلام الذى ضمه اليه فى سبيل أن تتم فصول القصة ويلتئم ما حدث فيها من جراح • أخبر اخوة يوسف أباهم ما كان من شأن أخيهم واتهامه بالسرقة قال لهم : « **بل سولت لكم أنفسكم أمرا ، فصبر جميل ، عسى الله أن يأتينى بهم جميعا ، انه هو العليم الحكيم** ••• »[78] الى أن قال لهم : « **يا بنى اذهبوا فتحسسوا من يوسف وأخيه ولا تيأسوا من روح الله ، انه لا ييأس من روح الله الا القوم الكافرون** »[79] •

« أما فلسفة القصة العميقة فتتجلى فى الايمان العميق بالله الذى ينصر الحق على الباطل ولو طال أمده ، والثقة بهذا الانتصار ، ومواجهة أزمات الحياة بصبر وثبات وايمان • والتفاؤل حتى فى الشدة وترقب الفرج من الله فى الأزمات ، والايمان أن نية الخير والعزم عليه لا يولد فى النهاية الا خيرا فلا يأس ولا قنوط فى الحياة والايمان صبر وجهاد وثقة وتفاؤل »[80] •

سادسا — الاخلاص والصدق :

أما سمة الاخلاص والصدق فلقد احتلت مساحات فى القصة نذكر منها دعوة يوسف الى بلاط الملك ، بعد أن قام يوسف عليه الســلام بتأويل رؤيا رآها الملك ، وقد أحله الملك مقاما عليا ، ومكنه على خزائن الدولة ، وكان المخلص الصادق الذى استطاع أن ينقذ البلاد فى سنين القحط والمجاعة •

---

(٧٧) يوسف : ٦٦ (٧٨) يوسف : ٨٣
(٧٩) يوسف : ٨٧
(٨٠) محمد المبارك ، دراسة أدبية ، مرجع سابق ص ٨٥ ، ٨٦

وكانت عاقبة الاحسان رحمة وعاقبة الصدق مكانة فى الدنيا والآخرة . والآيات (٥٤ — ٥٧) يتضح فيها هذا الهدف فى جلاء كامل :

« وقال الملك ائتونى به أستخلصه لنفسى ، فلما كلمه قال انك اليوم لدينا مكين أمين . قال اجعلنى على خزائن الأرض ، انى حفيظ عليم . وكذلك مكنا ليوسف فى الارض ، يتبوأ منها حيث يشاء ، نصيب برحمتنا من نشاء ، ولا نضيع أجر المحسنين . ولأجر الآخرة خير للذين آمنوا وكانوا يتقون »[٨١] .

يقول الامام الطبرى فى تفسير قوله تعالى : « **ولأجر الآخرة خير للذين آمنوا وكانوا يتقون** » ، يقول تعالى ذكره : « ولثواب الله فى الآخرة خير للذين آمنوا يقول : للذين صدقوا الله ورسوله مما أعطى يوسف فى الدنيا من تمكينه له فى أرض مصر « **وكانوا يتقون** » يقول : وكانوا يتقون الله فيخافون عقابه فى خلاف أمره واستحلال محارمه فيطيعونه فى أمره ونهيه »[٨٢] .

ويقول سيد قطب فى تفسير تلك الآية : « **ولأجر الآخرة خير للذين آمنوا وكانوا يتقون** » . فلا ينقص منه المتاع فى الدنيا وان كان خيرا من متاع الدنيا ، متى آمن الانسان واتقى ، فاطمأن بايمانه الى ربه وراقبه بتقواه وسره وجهره . وهكذا عوض الله يوسف عن المحنة . تلك المكانة فى الأرض وهذه البشرى فى الآخرة جزاء وفاقا على الايمان والصبر والاحسان »[٨٣] .

* * *

* نتائج البحث :

أولا : ضرورة النظر فى القرآن الكريم ، واستخراج ما به من فكر تربوى ، يكون للمتعلمين ثروة دينية ، علمية ، وتربوية . مما يدعم تحقيق الهدف الأكبر من الخلق وهو العبادة — بمفهومها الواسع — لله رب العالمين . العبادة التى تشمل جميع أنشطة الحياة فى غير معصية

---

(٨١) يوسف : ٥٤ — ٥٧

(٨٢) أبو جعفر محمد بن جرير الطبرى ، جامع البيان عن تاويل آى القرآن ، مرجع سابق ج ١٣ ص ٧

(٨٣) فى ظلال القرآن ، مرجع سابق ج ١٣ ص ٢٠١٤

الله تعالى ، أداء للواجبات التى تأتى نتيجتها وفقا لاتقانها « **انا لا نضيع أجر من أحسن عملا** »[٨٤] .

ثانيا : لا ولن يتأتى للانسانية عقيدة ، سواء أكانت قديمة أم حديثة أجدر للانسان وأوفق من عقيدة القرآن « وأوفق ما فيها أنها غنية عن الاختراع والامتحان ، وأنها على شرط العقيدة الدينية من بنية حية ، تسملت ملايين الخلق وثبتت معهم وحدها فى كل معترك زبون يوم خذلته كل قوة يعتصم بها الناس ... وأن القرن العشرين ينتهى بما استحدث من مبادىء ومذاهب و « أيديولوجيات » ولا ينتهى بما تعلمه أهل القرآن من القرآن »[٨٥] .

ثالثا : غرس الدين بنمط ميسور للأطفال فى المدارس ، عن طريق القصة المبسطة ، مما يسهل تقبل الأطفال للقيم التربوية والمبادىء الانسانية « والدين يفقد صفة الحياة متى قصر أهله فى التبشير به والدعوة اليه ، ويفقد أيضا هذه القصة اذا لم يهتم بالتربية ، فليس أخصب من نفوس الصغار مجالا لنشر الدعوة الدينية واعتناقها »[٨٦] .

رابعا : الحاجة ماسة الى استثمار القصة القرآنية فى بناء الأخلاق ، خصوصا وقد استشرت فى الآونة الأخيرة قصص رخيصة (غرامية — بوليسية — اجتماعية أو ثقافية) ولكنها فى مجموعها يشيع فيها التضليل والتشويش على عقول الأطفال والشباب ، مما يهون عليهم أساليب الحقد والجريمة ويهون عليهم ارتكاب كل محرم فى سبيل تحقيق الهدف . وحين نريد بناء الأخلاق والفضائل السلوكية عند الأطفال بحيث تصبح عندهم عادة يمارسونها فى شبابهم وفى حياتهم المستقبلية فعلينا أن نركز على القصص الدينى خصوصا فى المراحل المبكرة من حياة الأطفال » ومما لا شك فيه ولا جدال معه أن الفضائل الخلقية والسلوكية

---

(٨٤) الكهف : ٣٠

(٨٥) عباس محمود العقاد : الانسان فى القرآن الكريم . دار الهلال ، بدون تاريخ ص ٨

(٨٦) جيمس س. دوس ، الأسس العامة لنظريات التربية . ترجمة صالح عبد العزيز وآخرين ، مكتبة النهضة المصرية . القاهرة ، بدون تاريخ ، ص ٧

والوجدانية هى ثمرة من ثمرات الايمـان الراسخ ، والتنشئة الدينية الصحيحة »[87] .

خامسا : تضمنت قصة يوسف مجموعة من المبادىء الانسانية ، والقيم الأخلاقية تمثلت فى « أنواع العواطف الخيرة والشريرة ، الواقعية والمثالية ، من الحسد والمكر ، والتآمر والاجرام ، والعطف الأبوى والحذر والحزن والحنين والشوق ، والغريزة الجنسية والترفع المثالى والاباء .. تنوع المشاهد والبيئات من البداوة الى الحضارة ومن السجن الى قصر الملك ، وأعظم من ذلك كله ما فيها من فلسفة القدرة والايمان العميق بنصر الله للحق ولو طال أمد الباطل »[88] .

سادسا : فى استثمارنا للقصة القرآنية ، تحقيق للشخصية الانسانية المثالية ، والتى حال دون تحقيقها قصور فى فهم القصة القـرآنية ، والاكتفاء بالمرور عليها مرور الكرام ، دون اتقان لفكرة تربوية من ذلك التراث المملوء والزاخر بالكثير . فنحن لم ننعم النظر بعد فى قرآننا وخصوصا الجانب القصصى الذى قد يؤتى ثمرة طيبة لدى الشباب والأطفال مما جعل الفجوة سحيقة بين ما يعيشه أطفالنا واقعا ملموسا من معايشة كاملة أو شبه كاملة لثقافة مختلطة عبر أجهزة الاعلام ومنها (التليفزيون ، والسينما ... الخ) وبين فكر تربوى قرآنى تركناه وراء ظهورنا دون صيحة من الآباء أو المعلمين أو أولى الفكر وذوى العلم وأهل الرأى اللهم فيما عدا النزر اليسير الذى لم يف بسد هذا الصدع وعلاج هذا الداء .

سابعا : فى إستثمارنا لقصة يوسف نلمح بناء للشخصية المعتدلة ، التى لا تتسم بالغطرسة أو الغرور بالنفس أو العجب أو الكبرياء . وما أحوجنا فى الآونة الأخيرة التى ترسم هذا المنهج والسير على خطاه .

والله أسأل أن يمنحنا توفيقه وهداه ، وأن يهبنا فضل التربية على مائدة القرآن الكريم .

* * *

---

(٨٧) عبد الله ناصح علوان ، تربية الأولاد فى الاسلام . دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع ، حلب . ط ٣ جـ ١ ص ١٦٧

(٨٨) محمد المبارك . دراسة ادبية . مرجع سابق ص ١٠٦

الفصل الثالث

الحرية والتربية فى الإسلام

« وجهة نظر »

* تقديم :

الحرية احدى القيم التى يؤمن بها كل فرد على وجه التقريب ، وهى كالعدل والحق ، كما أنها هدف تربوى يدعو الى التقدير . والموضوع الجوهرى ، هو كيف يتمكن من يؤمن بالحرية بالعمل على تقدمها ورقيها .

وهذا بدوره يتوقف على التحديد الدقيق لمفهوم الحرية ، ووفقا لهذا المفهوم يتحرك من يعتنقه بتبنى تقدم الحرية ورقيها . فطالما استطاع الفرد وتمكن أن يحقق أفضل الأهداف ، حينئذ يكون حرا بشكل تام وحقيقى[1] .

وأفضل الأهداف عند الفرد ، يعتمد أساسا على النظام القيمى الذى تعتنقه الجماعة ، حينئذ يتحرك الفرد بما لديه من قدرات ، ليسهم مع أفراد المجتمع الآخرين المتوافقين معه لتحقيق مصالح الجماعة ، واثراء جوانب حياتها المتعددة .

بيد أن هذه هى سمة الجماعة والأفراد المتكاملين ، الذين ينخرطون فى مجتمع متكامل متعاون ، لتحقيق المثل الأعلى من الحق والعدل .

« ... وقد يقال أحيانا ان أعلى مرحلة من الحرية « الحرية التامة » وهى التى تتحقق بالارتباط بالله الذى هو الحق النهائى ، الذى خلق الطبيعة وأدامها ، وخلق الأفراد وأحسن خلقهم ، ... والذى نحتاج الى مساعدته لتحقيق أى هدف .

---

(١) فيليب هـ. فينكس . فلسفة التربية . ترجمة محمد لبيب النجيحى . دار النهضة العربية . القاهرة ١٩٦٥ ، ص ٤١٣

يعتقد اذن أن أسمى مرتبة للحرية هى التى تعمل على أن تصبح الأهداف العلوية المقدسة أهدافا للفرد نفسه ، وأن تستمد القوة من المصادر المقدسه اللانهائية لتحقيق هذه الأهداف ، بطريقة مباشرة أو عن طريق الوكالات المادية أو الاجتماعية ، فالحرية التامة ليست استقلالا انسانيا ، ولكنها اعتماد واثق على الله وارادة الطاعة لارادته »[٢] .

وكأن الحرية بهذا ، تسير وفق محددات وأنظمة وقيم ، تضمن لها تحقيق الرقى داخل الجماعة الانسانية . ولما كانت التربية وسيلة لتعميق مفهوم الحرية لدى الفرد والجماعة ، كانت التبعة كبيرة وضخمة على النظام التربوى المتبع داخل الجماعة .

ونظرة فى النظام التربوى ، والمنهج الذى سلكه الرسول صلى الله عليه وسلم فى اعداد الرعيل الأول من المسلمين ، ترينا قمة التطبيق الأسمى لبناء مسلم حر ، فى نفسه ، فى ماله ، فى ارادته ، فى عمله ، فى تفكيره ، فى شعوره ، ووجدانه . وبالجملة حر فى شخصيته كلها ، فى اطار النظام والتشريع الاسلامى ، والذى يقوم على مبدأ « لا ضرر ولا ضرار » .

بهذا استطاع المسلمون أن يقيموا دولة ، وأن يشيدوا صرح أمة من أعظم الأمم « **كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله** »[٣] .

والاسلام الذى حرر العبيد وأطلق سراحهم ، وسوى بين الناس جميعا عزز قيمة الحرية ، وأكد على تدعيمها فى كل مسلم ، فلا عدالة بدون حرية ، قال تعالى : « **ان الله يأمر بالعدل والاحسان وايتاء ذى القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى ، يعظكم لعلكم تذكرون** »[٤] .

وبناء على هذا ، جاء دور التربية بمناهجها وطرق التدريس فيها ، لتؤدى دورها فى تحقيق هذا الهدف ، وهذا ما سيحاول البحث أن يجيب عليه ، مع التركيز بشكل خاص على التربية الاسلامية .

* * *

(٢) المرجع السابق ص ٤٣٦ ، ٤٣٧

(٣) آل عمران : ١١٠

(٤) النحل : ٩٠

* **تساؤلات البحث :**

سيحاول البحث أن يجيب على الأسئلة التالية :

(ا) ما هي مفاهيم الحرية وأبعادها ؟

(ب) ما هو الدور التربوى فى بنـــاء الحرية من وجهة النظر الفلسفية ؟

(جـ) ما هي نظرة الاسلام الى الحرية ؟ وكيف تبنى فى المنهج التربوى الاسلامى ؟

أولا ــ مسميات ومفاهيم حول الحرية :

حتى يمكن تحديد نوع الحرية الدقيق ، الذى يوافق الاسلام ، جوهرا ومضمونا ، لا بد من التعرض للمسميات والمفاهيم التى تتردد كثيرا فى هذا المجال وكل مسمى هو فى حقيقته تعبير عن اتجاه نابع من الفلسفة العامة التى يتبناها هذا الاتجاه •

وفى هذا الصدد سنتعرض لمفهوم الحرية على الاطلاق ، ومفهوم الحرية فى الاسلام •

(ا) مفهوم الحرية على الاطلاق :

يذكر الشيخ محمد رضا فى معجم متن اللغة ص ١٧٦ أن المصطلح اللغوى للحرية أنها : « الأرض الرملية • وحــرية القوم : أشرافهم وخالصتهم ، والحرة : الكريمة من النســاء ضد الأمة (وهى جمع) حرائر ، ومن صفحة العنق : موضع مجال القرط ، ومن ليالى الشهر : أولها ، ومن السحاب : الكثيرة المطر »[٥] •

وفى محيط المحيط للمعلم بطرس البستانى ص ٣٧١ يذكر أن « العبد يحر حرارا أعتق ، وتحرير الكتاب يعنى تقويمه وتحسينه ، وتحرير الوزن يعنى ضبطه بالتقويم ، وهي ••• الخروج عن رق الكائنات وقطع جميع العلائق والأغيار ولها مراتب ، وهى حرية العامة من رق الشهوات وحرية الخاصة من رق الرسوم والآثار ••• والمحرور من غلب على مزاجه حرارة غريبة فأطرحته عن طريق الاعتدال »[٦] •

أما المصطلح اللغوي للفظة الحــرية فى اللغة الفرنسية فيعنى : « حرية أخلاقية أولا ، وتعتبر الحرية بمثابة وجهة النظر الأخلاقية التى

---

(٥) جميل م• منيمنة • مشكلة الحرية فى الاسلام ، المشكلة الفلسفية ، دار الكتاب اللبنانى • بيروت ، ط ١ ، ١٩٧٤ م ، ص ١٨

(٦) المرجع السابق ، ص ١٨

تدعمها كشرط أساسى الحرية الطبيعية ، وهى حرية الفكر التى تتحدد على أنها غياب أى اهتمام (خارجى) يعوق الارادة أو الذكاء • وهى حرية سياسية وتتحدد على أنها وضع شعب لا يتلقى أية سيطرة أجنبية »[٧] •

والحرية بمفهومها العام نوعان : داخلية وخارجية :

فالحرية الداخلية : تعنى حرية الاختيار والارادة بين أمرين متضادين ، وهى تكون أعلى عند الانسان البالغ منها عند الطفل ، كما تكون عند العاقل والسليم أعلى منها عند المجنون والمريض ، والخارجية : تعنى حرية طبيعية وحرية مدنية وسياسية وحرية دينية وفكرية • وحرية صناعية وتجارية ، وحرية عمل ، وحرية نقابات •

وتجمع تلك الحريات تحت ما يسمى فى العصر الحاضر « بالحريات العامة » وهى : جميع الحقوق المعترف بها للأفراد والجماعات تجاه الدولة وسلطتها[٨] •

وأما مفهوم الحرية فى المصطلح الفلسفى ، فيختلف باختلاف المدارس الفلسفية ، وهى : « ارادة سبقتها روية مع تمييز • وأما فى علم النفس فالحرية قد تعنى القدرة على تحقيق فعل أو امتناع عن تحقيق فعل دون الخضوع لأى ضغط خارجى : وهذا ما يقابل مفهوم الضرورة والجبرية • أما حرية الاختيار أو القدرية فهى قدرة الانسان على اختيار أفعاله • وهناك حرية الاستواء أو عدم الاكتراث ، وكان المدرسيون والديكارتيون يطلقون هذا الاصطلاح على تساوى الامكان فى الفعل وعدم الفعل »[٩] • « والحرية هى حالة الكائن الانسانى الذى يحقق فى أفعاله طبيعته الحقيقية ، المعتبرة أساسا ، مجسدة فى العقل والخلق • وبهذا المعنى فان كلمة حرية هى مصطلح معيارى محض يميز حالة مثالية ، حيث تكون الطبيعة الانسانية محكومة بشكل نهائى بما ينطوى فيها من عنصر متسام كما يذهب الى ذلك « اسبينوزا » و « المدرسة الرواقية »[١٠] •

وكل فرد هو على الاطلاق يريد ويفكر ويرجو ويعمل ، ولكن يستحيل أن يستقل عما يحيط به ، فالارادة الأولية الوقتية ، تكون فى

---

(٧) المرجع السابق ، ص ١٨ ، ١٩

(٨) المرجع السابق ، ص ١٩

(٩) المرجع السابق ، ص ٢٠

(١٠) المرجع السابق ، ص ٢٣

بدايتها على شكل خاطر ، وهى تختلف عن الارادة الحقيقية التى يهذبها التفكير والنقد وظروف المجتمع . فكل رغبة يريد المرء تحقيقها ، لا يلبث أن ينقدها بفكره ، حين ينظر فى النتائج التى ستترتب على تلك الرغبة ، وحين يدرك ما سيعترض سبيله من رغبات الغير وآمالهم ومجهوداتهم وحينئذ يحدث تعديل فى الرغبات بالاتفاق الضمنى أو الارادة المشتركة .

« فاذا بحثنا فى الحرية ، فلا يصح أن نتصور فردا مجردا عن طبيعة الاجتماع كان له يوما ما وجود غير اجتماعى وأن هذا الاجتماع طرأ عليه فانتقص من حريته ، وانما يجب اعتبار الحياة الاجتماعية فى الانسان بوجوده الفردى ، وأن هذه الحياة كائن ينمو ويتطور ليبلغ ما فى طبيعة الانسان من رقى . اذن تعديل الرغبة التى تكون فى شكل خاطر لدى أول سنوحها ليس فى الحقيقة تقييدا ، وانما هو فى الواقع تطور ورقى بها وتحويلها من طريق ارادة الفرد الى ملتقى الارادات أو ارادة الجماعة باعتبارها كلا غير قابل للتجزئة »(١١) .

والحرية كما يراها أحد أساتذة الاجتماع ، أن يكون المرء نفسه ، ولكن كيف يكون المرء نفسه ؟ لن يكون كذلك الا اذا تمكن فعلا من الوصول الى ما يريد حقيقة لا ما يظن أنه رغبته .

والفرد وحده لا يمكنه أن يدرك حاجته الحقة أو رغبته الا بوسيلة الائتلاف بالجماعة فيكون من مجموع الارادات ، ارادة عامة تدرك مصلحة الجماعة ورغبتها الحقة . « والكل (مجموع الأجزاء) يكون أقوى وأقدر على تحقيق الرغبة العامة اذا كانت الارادات الجزئية قوية وهذه تكون أقوى ما يمكن اذا كانت القوى القائمة بعملية تعديل الارادات الجزئية أقل ما يمكن ، ولن يكون هذا الا بالنهوض بالتربية واتساع الصدر للنقد ورقيه »(١٢) .

(ب) مفهوم الحرية فى الاسلام :

كفل الاسلام للفرد المسلم الحرية فى كل الجوانب ، التى من شأنها ضمان الاتساق والتكامل فى شخصيته ، بحيث يتحقق للطبيعة الانسانية كل متطلباتها البدنية والروحية والعقلية والعاطفية والاجتماعية والجمالية

---

(١١) سعيد اسماعيل على ، ديمقراطية التربية الاسلامية ، دار الثقافة للطباعة والنشر ، القاهرة ، ١٩٧٤ م ، ص ٢٨

(١٢) المرجع السابق ، ص ٢٩

والثقافية • وسنتناول بالتفصيل فيما يأتى مفهوم الحرية فى العقيدة . فى التفكير ، فى الرأى ، فى العمل ، فى نظم الحكم ، وفى الوجدان •

١ ــ **حرية العقيدة** : الحرية فى العقيدة والحرية الدينية . هما جناحا الحرية الفردية ، ولقد تكفل الاسلام بحرية العقيدة . بل وجعلها فى الدرجة الأولى • قال تعالى : ((**فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر**))[١٣] كما جاءت الحرية الدينية فى الدرجة الثانية ، قال تعالى : ((**لا اكراه فى الدين**))[١٤] فاذا التزم الفرد بحريته فى الاعتقاد مطبقا حريته الدينية كانت التكاليف جميعها هى المعبر الحقيقى عن حريته الاجتماعية[١٥] •

بهذا أتاح الاسلام للفرد حرية العقيدة ، وهو فى دار الاسلام ، وتحت حكمه ، طالما أن هذا الفرد قد بينت له دعائم الاسلام ودعى اليه • فاذا فضل الأسلام واختاره ، فقد سعد ونجا ، وان اختار الاستمرار على دينه وعقيدته فقد فضل الشقاء والكفر والعذاب والضلال والنار ، وقامت عليه الحجة ، وسقط عذره أمام الله عز وجل •

وحيث قد مارس هذا الفرد حريته واختار العقيدة التى يرغبها ، عليه أن يلتزم بدفع الجزية ، على شرط أن لا يتعرض للاسلام والمسلمين بنوع ما من الضرر ، وفى نفس الوقت فهو يخضع لأحكام الدولة الاسلامية •

وأما من أسلم ثم ارتد ورجع فى اسلامه ، فقد استوجب القتل ، لأنه رجع عن الحق الذى تبينه وعرفه ، وأقر به ، الا أن يتوب ويعود الى الاسلام[١٦] • قال تعالى : ((**يا أيها الذين آمنوا من يرتد منكم عن دينه فسوف يأتى الله بقوم يحبهم ويحبونه أذلة على المؤمنين أعزة على الكافرين يجاهدون فى سبيل الله ولا يخافون لومة لائم ، ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء ، والله واسع عليم**))[١٧] •

وفى معنى محبة الله لعباده الواردة فى الآية يذكر الامام البيضاوى :

---

(١٣) الكهف : ٢٩ (١٤) البقرة : ٢٥٦

(١٥) جميل م. منيمنة . مشكلة الحرية فى الاسلام ، المشكلة الاجتماعية ، دار الكتاب اللبنانى ، ببروت ، ط ١ ، ١٩٧٤ م ، ص ٥

(١٦) عبد الرحمن بن حماد آل عمر ، دين الحق ، الرياض ، مطابع الرياض ، ١٣٩٥ هـ ، ص ٦٦ ، ٦٧ (١٧) المائدة : ٥٤

« فسوف يأتى الله بقوم مكانهم ، ومحبة الله تعالى للعباد ارادة الهدى والتوفيق لهم فى الدنيا وحسن الثواب فى الآخرة ، ومحبة العباد له ارادة طاعته والتحرز عن معاصيه »[18] .

واذا كان الاسلام قد تشدد فى شأن المرتد ، فقد أباح لغيره من غير المسلمين من أهل الكتاب ، حرية الزواج والطلاق والنفقة وفقا لعقيدته . يتصرف فيها كما يشاء دون قيد أو حد . كما ضمن الاسلام صون كرامته ، وحفظ حقوقه ، واقراره على المناقشة والجدال فى حدود العقل والمنطق . والتزام الآداب والبعد عن الخشونة والعنف . كما أن المرأة اليهودية أو النصرانية تحت زوج مسلم ، أقرها أن تمارس شعائرها الدينية دون أن يمنعها زوجها[19] .

والاسلام بهذا المنهج وفر لغير أهله حريات كثيرة بجوار حرية الاعتقاد ، كحرية التملك وحرية التعليم .

ولكن ثمة قاعدة أساسية ، ومدارا جوهريا ترتكز عليهما حرية العقيدة ، حتى لا تتفشى الفوضى ويفسد النظام ، وتعم الهمجية ، لا فى مجال الواقع فحسب ، بل فى مجال القانون كذلك ، هذه القاعدة هى الالزام ، الذى يعد بمثابة العنصر النووى الذى يدور حوله كل النظام الأخلاقى ، والذى قد يؤدى فقده الى سحق الحكمة العملية ، ذلك أنه اذا لم يكن هناك الزام ، فلن تكون هناك مسئولية ، واذا انعدمت المسئولية ، سادت الهمجية ، وعمت الفوضى[20] .

فى ضوء هذه القاعدة وهذا المبدأ (الالزام) نبه القرآن وحذر من اتباع الهوى دون تفكير : **« ولا تتبع الهوى فيضلك »**[21] **« فلا تتبعوا الهوى أن تعدلوا »**[22] كما حذر من الانقياد الأعمى ، والخضوع الذى

---

(18) الامام ناصر الدين أبو الخير عبد الله بن عمر الشيرازى البيضاوى « أنوار التنزيل وأسرار التأويل ، المسمى تفسير البيضاوى » دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع ، بدون تاريخ ، ص 153

(19) السيد سابق ، عناصر القوة فى الاسلام ، بيروت ، دار الكتاب العربى ، 1978 ط 2 ، ص 138 ، 139

(20) محمد عبد الله دراز ، دستور الأخلاق فى القرآن ، دراسة مقارنة للأخلاق النظرية فى القرآن . تعريب وتحقيق وتعليق عبد الصبور شاهين . مؤسسة الرسالة ، دار البحوث العلمية . الكويت ط 1 ، 1973 ، ص 21

(21) سورة ص : 26 (22) النساء : 135

لا مبرر له ، سوى اتباع الآباء ، دون تفكير أو روية • قال تعالى : **« وكذلك ما أرسلنا من قبلك فى قرية من نذير الا قال مترفوها انا وجدنا آباءنا على أمة وانا على آثارهم مقتدون »**[٢٣] • وهل يقدم الذين يريدون السير على سنة أســلافهم على الانقيــاد لهم دون تمييز حتى ولو **« كان آباؤهم لا يعقلون شيئا ولا يهتدون »**[٢٤] •

والفرد لديه العقل الذى هو عنصر خلقى تكمن فيه عناصر ومكونات الشخصية المستقلة ، القادرة على المقارنة والتقويم والاختيار والحرية والمشروعية[٢٥] •

والاسلام حين يؤسس المجتمع المؤمن فى وحدة واحدة ، لا تقبل الانقسام الى وحــدات جزئية ، يؤسس ذلك فى ظل وحــدة العقيدة والشريعة • فحين أباح حرية العقيدة ، منع قيــام غير المسلمين على الحكم ، بل وحد من نظام المحالفات ضمانا لوحدة المجتمع وسلامته ، فلا يمكن أن تبنى حرية العقيدة بدون مضامين وحدود تصون المجتمع المؤمن وتضمن له وحدته وتماسكه •

فلا يباح اتخاذ غير المؤمنين أولياء • قال تعالى : **« يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا الكافرين أولياء من دون المؤمنين ، أتريدون أن تجعلوا لله عليكم سلطانا مبينا »**[٢٦] • ويؤسس القرآن هذا المبدأ حتى لا تشيع البلبلة جرصيا على وحدة الجماعة المؤمنة • واذا تعددت الطوائف فان الاسلام وضع ما يسمى « بالتقية » قال تعالى : **« لا يتخذ المؤمنون الكافرين أولياء من دون المؤمنين ، ومن يفعل ذلك فليس من الله فى شىء الا أن تتقوا منهم تقاة »**[٢٧] • يعنى على رأى الزمخشرى فى الكشاف (ص ٣٥١) : « الا أن تخافوا من جهتهم أمرا يجب اتقاؤه » • وبهذا يمكن ترسيخ وحدة الجماعة المؤمنة من جهة ، كما يمكن ضمان حريتها من جهة ثانية ، طالمـا حرم الاسلام تولى غير المسلمين قيادة المؤمنين ، وهذا مما يؤكد ويقوى قوله تعالى : **« والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض »**[٢٨] •

---

(٢٣) الزخرف : ٢٣ (٢٤) البقرة : ١٧٠

(٢٥) المرجع السابق ، ص ٢٥ (٢٦) النساء : ١٤٤

(٢٧) آل عمران : ٢٨

(٢٨) مشكلة الحرية فى الاسلام ، المشكلة الاجتماعية . مرجع سابق ص ٨ ، ٩ — والآية من سورة التوبة : ٧١

والاسلام حين يؤسس وحدة المجتمع وتماسكه ، على أساس حرية العقيدة ، لم يرغم أحدا على اعتناق الاسلام ، بل ترك للفرد حرية الاختيار ، فلا قهر ولا ارغام بل عرض لحقائق الاسلام ، وترك الانسان نفسه ليميز بين ما هو عليه وبين دين الاسلام .

ولقد حاول بعض الصحابة فى زمن الرسول صلى الله عليه وسلم ، أن يرغموا أناسا بأعينهم على اعتناق الاسلام ، فرفض الرسول صلى الله عليه وسلم هذا الاتجاه وهو فى مركز القوة ، بل واشمأزت نفسه من هذا الوضع الوحشى المخيف ، الشديد الخطر على حقائق الدين . حتى فى ممارسة العبادة ، لغير المسلمين ، ممن يقدمون الى بلاد الاسلام لسبب ما ، وحتى فى أماكن عبادة المسلمين ، وفى الحالات الطارئة أجاز الرسول صلى الله عليه وسلم ، وفد نجران من النصارى أن يصلوا بمسجده ، حين حانت صلاتهم ، بالرغم من اعتزام الناس منعهم ، ولكن الرسول صلى الله عليه وسلم قال : « دعوهم » فاستقبلوا المشرق فصلوا صلاتهم .

وسار على المنهج ذاته ، خلفاء الرسول صلى الله عليه وسلم ، فعمر رضى الله عنه ، يقول للعجوز النصرانية : « أيتها العجوز أسلمى تسلمى ، ان الله تعالى بعث محمدا الينا بالحق » فتقول العجوز : « وأنا عجوز كبيرة ، أموت عن قريب » ؟ فلا يملك عمر وقد جرده رفق الاسلام من بطشه المعروف ، الا أن يقول : « اللهم فاشهد ، لا اكراه فى الدين » .

وحين لم يسترح أحد حكام المسلمين ، فى بعض أطوال التاريخ الاسلامى ، الى اعتناق الأقليات دين الاسلام ، لأنه يكسر الخراج ويحد من الجبايات ، اضطر عمر بن عبد العزيز ازاء هذا أن يكتب الى هذا الحاكم المسلم مستنكرا عليه ذلك : « ان محمدا بعث هاديا ، ولم يبعث جابيا » . وفى عهد الدولة العباسية لم يكن يقبل الاسلام من أحد الا بوثيقة أمام القاضى ينفى فيها جميع شوائب الاكراه[٢٩] .

٢ ــ **حرية التفكير** : طالما أن الانسان هو موضوع التربية ، فان قيمة المصدر التربوى تقاس بمدى احترام هذا المصدر لعقل هذا الانسان ، فبالعقل يتمكن الانسان من التأمل والفهم والتدبر والتعليم .

---

(٢٩) سعيد اسماعيل على ، ديمقراطية التربية الاسلامية . المرجع الأسبق ، ص ١٤٠ .

ومن هنا جاء القرآن الكريم مشيدا بالعقل ، معولا عليه فى أمر العقيدة والتكليف ، والاشارة الى العقل تأتى مباشرة دون اقتضاب أو تلميح مؤكدة جازمة فى كل معرض من معارض الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، التى يحث فيها المؤمن على أن يحكم عقله أو يلوم المنكر على اهمال عقله وقبول الحجة عليه .

« ولا يأتى تكرار الاشارة الى العقل بمعنى واحد من معانيه التى يترجها علماء النفس ، بل هى تشمل وظائف الانسان العقلية على اختلاف أعمالها وخصائصها وتتعمد التفرقة بين هذه الوظائف والخصائص »[30] . قال تعـالى : « **ولقد آتينا لقمان الحكمة** »[31] ، يعنى الفقه والعقل واصابة القول . وقال تعالى : « **فاتقوا الله يا أولى الألبـاب لعلكم تفلحون** »[32] .

وقال تعالى : « **وأشهدوا ذوى عدل منكم** »[33] أى ذو عقل . وقال تعالى : « **ان فى ذلك لذكرى لمن كان له قلب** »[34] أى عقل . وقال تعالى : « **كذلك نفصل الآيات لقوم يعقلون** »[35] . وقال جل شـأنه : « **لينـذر من كان حيا** »[36] أى عاقلا . وقال تعـالى : « **فاسـألوا أهل الذكر ان كنتم لا تعلمون** »[37] . وقال سبحانه فى سورة النحل : « **ان فى ذلك لآية لقوم يتفكرون** »[38] « **ان فى ذلك لآيات لقوم يعقلون** »[39] « **ان فى ذلك لآية لقوم يسمعون** »[40] .

ويستنكر القرآن الكريم على الكفار عدم اهتدائهم للايمان ، لأن آباءهم لم يأتوه ، فهم يسيرون على منوال آبائهم ويستهدون بهم فيقول لهـم : « **أو لو كان آباؤهم لا يعقلون شيئا ولا يهتدون** »[41] . وهو استنكار صريح وواضح للتقليد دون تحكيم العقل . « يقول الشيخ محمد عبده ، تعليقا على هذه الآية : عقل الشىء معرفته بدلائله وفهمه

---

(٣٠) سعيد اسماعيل على ، اصول التربية الاسلامية . دار الثقافة للطباعة والنشر ، القاهرة ، ١٩٧٨ م ، ص ٢٧

(٣١) لقمان : ١٢
(٣٢) المائدة : ١٠٠
(٣٣) الطلاق : ٢
(٣٤) سورة ق : ٣٧
(٣٥) الروم : ٢٨
(٣٦) يس : ٧٠
(٣٧) النحل : ٤٣
(٣٨) النحل : ١١
(٣٩) النحل : ١٢
(٤٠) النحل : ٦٥
(٤١) البقرة : ١٧٠

بأسبابه ونتائجه ، وأقرب الناس الى معرفة الحق ، الباحثون الذين ينظرون فى الدلائل بقصد صحيح .. لأن الباحث المستدل اذا أخطأ يوما فى طريق الاستدلال أو فى موضوع البحث فقد يصيب فى يوم آخر ، لأن عقله يتعود الفكر الصحيح واستفادة المطالب من الدلائل ، وأبعد الناس عن معرفة الحق ، المقلدون الذين يبحثون ولا يستدلون ، لأنهم قطعوا على أنفسهم طريق العلم ، وسجلوا على عقولهم الحرمان من الفهم ، فهم لا يوصفون باصابة ، لأن المصيب هو من يعرف أن هذا هو الحق ، والمقلد انما يعرف أن فلانا يقول ان هذا هو الحق ، فهو عارف بالقول فقط ، ولذلك ضرب الله لهم المثل فى الآية بعد ما سجل عليهم الضلالة بعدم استعمال عقولهم »[٤٢] .

وفى ضوء هذه المنهجية حول احترام العقل ، نهى الأئمة الأربعة عن الأخذ بأى من آرائهم وأقوالهم دون معرفة دليلهم معرفة يقينية . يقول الفقيه أبو الليث السمرقندى : حدثنا ابراهيم أبى يوسف عن أبى حنيفة أنه قال : لا يحل لأحد أن يأخذ قولنا ما لم يعلم من أين قلناه . كما أجاب عصام بن يوسف عن مسألة كثرة خلافه لأبى حنيفة قال : ان أبا حنيفة أوتى ما لم نؤت ، فأدرك فهمه ما لم ندركه ، ونحن لم نؤت من الفهم الا ما أوتينا ، ولا يسعنا أن نفتى بقول ما لم نفهم من أين قال[٤٣] .

والاسلام يدعم حرية التفكير وبناء العقل السليم فى سبيل بناء المسلم الصحيح القوى . واذا كانت العبادات تعمق الايمان فى القلوب فان التفكير السليم الحر يفتق الذهن ويصقل العقل ويجليه .

فوسيلة العلم العقل ، وبه يصل المرء الى الايمان بالله تعالى . ولا شك أن حرية التفكير بتلك الصورة تضع مبدأ هاما فى التطبيق التربوي بالنمط التالى :

١ ـ عدم التقولب فى قوالب الفكر التربوى ، كما شكلها المفكرون السابقون ، حتى لا تكون قيدا يحد من حركتنا فى رؤية الاختلافات بين مجتمع اليوم ومجتمع الأمس .

(٤٢) المرجع السابق ، ص ٢٨ ، ٢٩
(٤٣) المرجع السابق ، ص ٢٩

٢ ــ استخدام العقل بصفة دائمة ومستمرة ، لمواجهة متغيرات تحدث فى المجتمع ما دامت نبت المجتمع ومن غرسه ٠

٣ ــ ممارسة النقد البناء لصالح المجتمع بكل جرأة(٤٤) ٠

بتلك الصورة المشرقة للاسلام ، بنيت الدعوة الاسلامية بعد أن حررت العقول من الظلم والظلمات ، ووقتها سهل الصعب وتيسر العسير ، وانطلق العقل من عقاله ، وتخلص من جموده ليواجه منذ اللحظة الأولى عبدة الأوثان والأصنام ويرشدهم الى قدرة الخالق سبحانه وتعالى ٠

لذلك خلصهم الاسلام من التقاليد الموروثة عن الآباء ولفت الأنظار الى اله قادر **((ذلكم الله ربكم ، لا اله الا هو ، خالق كل شىء فاعبدوه))**(٤٥) **((ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير))**(٤٦) ٠

٣ ــ **حرية الارادة والرأى :** هذا الكون الذى يعيش فيه الانسان خاضع لقانون طبيعى ، فهو عالم المتتابعات من الأسباب والمسببات والعلل والمعلولات ٠ فكل ما فى الكون مرتبط بعضه ببعض ارتباط السبب بالمسبب ٠ فما يحدث الآن نتيجة لما سبق وسببا لما يلحق ٠ وهذا هو قانون الطبيعة الذى جعله الله فيها لتخضع له وتسير عليه باطراد ٠ ولعل الكثير من الآيات الدالة على الجبر لا تشير الا الى هذا القانون الطبيعى ، وحركات الأفلاك وحوادث الطبيعة وسائر أنواع الخليقة لها طريقها المرسوم الذى يخضع لهذا القانون ٠

أما الآيات التى تشير الى الانسان بنوع خاص على أنه مجبور فى أفعاله فتفهم على ضوء الآيات الأخرى التى تؤكد فاعلية الانسان ، وعلى ضوء ما عرف الاسلام من أن الانسان مسئول عن أفعاله الاختيارية ٠

وخير شاهد على هذا ، قوله تعالى : **((ان الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم))**(٤٧) فتدل الآية على أن الله لا يغير ما بقوم حتى يوجبوا هم حالات تؤدى الى هذا التغيير ، فالفعل المنسوب الى الله مسبوق بفعل الانسان بيد أن الآية فى عجزها تنص على أنه **((واذا أراد الله بقوم سوءا فلا مرد له ، وما لهم من دونه من وال))**(٤٧)

---

(٤٤) المرجع السابق ص ٢٩ ، ٣٠ (٤٥) الانعام : ١٠٢

(٤٦) محمد عبد الله السمان ، المعانى الحية فى الاسلام ، دار الاعتصام ص ٣٥ ــ والآية من سورة الملك : ١٤ (٤٧) الرعد : ١١

وعجز الآية لا يتناقض مع صدرها مما قد يظن ، لأنه ليس الا تصريح بأمر مطوى ، والآية فى جملتها تقول : « اذا غير القوم ما بأنفسهم نحو السوء مثلا ، فلا بد أن يحل بهم الهوان ، ولا يملك أحد أن يدفع عنهم هذا المصير لأن خالق الكون وخالق قوانينه ، جعل هذه القوانين مؤدية الى نتائجها • فالتتابع اذن هو تغييرات يحدثها الانسان بارادته ، فتؤدى الى تغييرات أخرى فى حياة الانسان ، بحكم هذا القانون العام »[٤٨] • ولعلنا نلمس فى الآية السابقة ، روح الجماعة ومسئولياتها تجاه مستقبلها ومقومات حياتها • ومهما تبذل الدولة — أى دولة — من جهد فى توزيع الدخل على الأفراد فانها بما ستبذله من جهد وتضحية سيكون مخلا بمقتضيات العدل والنفع الاجتماعى ، مع أنها تباشر مسئولياتها فى حرية وتعلن رأيها فى حرية وتقول كلمتها فى أمن ، فلا مندوحة حينئذ من أن يظفر المجتمع بنفس الفرصة فيفكر بحرية ويمارس مسئولياته ويقول رأيه من غير خوف •

ومن هنا فخير سياج للدولة لكى تحفظ الوطن وتصونه وتضمن له الانتصارات هو اشراك الشعب فى المسئولية فيكون واعيا بمشاكله ، قادرا على فرض كلمته وارادته • من هذا المنطلق كفل الاسلام الحرية لكل فرد ، الحرية أن يفكر ويرى وفقا لما يقتضيه فهمه ويمليه عقله • وهذا ما يطلق عليه « الاجتهاد »[٤٩] •

والاجتهاد هو : « بذل الجهد فى استخراج الأحكام من شواهدها الدالة عليها بالنظر المؤدى اليها » •

فاذا عرضت قضية ليس فيها نص من كتاب أو سنة أو اجماع ، فان الكتاب والسنة قد أقرا بالاجتهاد كأصل رابع من أصول الشريعة • قال تعالى : **« انا أنزلنا اليك الكتاب بالحق لتحكم بين الناس بما أراك الله »**[٥٠] وقوله أيضا : **« ان فى ذلك لآية لقوم يتفكرون »**[٥١] وقوله تعالى : **« كذلك نفصل الآيات لقوم يعقلون »**[٥٢] ، وجاء فى

---

(٤٨) سعيد اسماعيل على ، أصول التربية الاسلامية ، مرجع سابق ، ص ٣٥ ، ٣٦

(٤٩) سعيد اسماعيل على ، ديمقراطية التربية الاسلامية ، مرجع سابق ص ١٤١ ، ١٤٢

(٥٠) النساء : ١٠٥

(٥١) النحل : ١١

(٥٢) الروم : ٢٨

السنة أن النبى صلى الله عليه وسلم قال لمعاذ حين بعثه الى اليمن : « بم تقضى » ؟ قال : بما فى كتاب الله ، قال : « فان لم تجد فى كتاب الله » ؟ قال : أقضي بما قضى به رسول الله • قال : « فان لم تجد فيما قضى به رسول الله » ؟ قال : أجتهد برأيي • قال : « الحمد لله الذى وفق رسول رسول الله » •

ومن ذلك يتبين أن هذه الآيات والأحاديث دالة على أن الاجتهاد أصل رابع فى الشريعة وأنه يسمى : بالاجتهاد ، وبالرأى ، وبالعقل(٥٣) •

من هذا المنطلق امتلأ القرآن الكريم بالآيات الكثيرة التى تتضمن حرية الارادة والاختيار فيما يعرض للمسلم ، ما دام ذلك لا يتعارض مع شرع رب العالمين • قال تعالى : « **ومن يرد ثواب الدنيا نؤته منها ومن يرد ثواب الآخرة نؤته منها ، وسنجزى الشاكرين** »(٥٤) وقال جل شأنه : « **من كان يريد ثواب الدنيا فعند الله ثواب الدنيا والآخرة ، وكان الله سميعا بصيرا** »(٥٥) • وقال تعالى : « **يا أيها النبى قل لأزواجك ان كنتن تردن الحياة الدنيا وزينتها فتعالين أمتعكن وأسرحكن سراحا جميلا • وأن كنتن تردن الله ورسوله والدار الآخرة فان الله أعد للمحسنات منكن أجرا عظيما** »(٥٦) •

أما السنة المطهرة فقد امتلأت كلها بحرية التعبير عن الرأى والنقد البناء ، وكانت السنة قمة فى هذا الباب قولا وعملا • فحين نزل النبى صلى الله عليه وسلم فى غزوة بدر سأله الحباب بن المنذر الأنصارى : أمنزل أنزلك الله اياه ؟ أم هى الحرب والمكيدة والخديعة ؟ قال صلى الله عليه وسلم : « بل هى الحرب والخديعة » ويشير الصحابى الى منزل جديد فينزل رسول الله صلى الله عليه وسلم على رأيه • وفى غزوة أحد ارتأى رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يتحصن المسلمون بالمدينة وقد كانوا قرابة الألف ، بينما كان المشركون ثلاثة آلاف مقاتل • وقد كان هذا الرأى من النبى صلى الله عليه وسلم مؤسسا على أن جيش المشركين اذا نزل بجبل أحد (خمسة أميال من المدينة) فقد نزل المشركون بشر مقام ، وان دخلوا المدينة قوتلوا وحوصروا وكانت للمسلمين الغلبة ،

---

(٥٣) محمـــد معروف الدواليبى . المدخل الى علم اصول الفقه . دار الكتاب الجديد (ط٥) ١٩٦٥ ، ص ٥١ ، ٥٢ .

(٥٤) آل عمران : ١٤٥ (٥٥) النساء : ١٣٤

(٥٦) الأحزاب : ٢٨ ، ٢٩

حيث يصبح جيش المشركين فى موقف صعب ، لمحاصرتهم من أمامهم ومن فوقهم • فمن أمامهم مقاومة جيش المسلمين ، ومن فوقهم رمى النساء والأطفال بالحجارة • وحين ارتأى الكثرة من الصحابة الخروج للمشركين بأحد ، نزل رسول الله صلى الله عليه وسلم على رأيهم وكان ما كان من تضييق الخناق على المسلمين فى تلك الغزوة مما أدى الى الحاق الهزيمة بجيش المسلمين •

ومع هذا لم تترك تلك المشورة أثرا فى قلب النبى صلى الله عليه وسلم فيما يتعلق بمبدأ المشاورة والأخذ بالآراء بالرغم من تلك النتيجة التى خلفتها تلك المشورة(٥٧) • واذا كانت المشورة حقا للناس ، أن يتشاوروا فيما يعن لهم من أمور فان الاسلام كفل للانسان كذلك حريته فى أن يكتمل بنيانه العضوى بلقمة العيش التى تقيمه رجلا أو امرأة ويكتمل كذلك أمنه على حياته ورزقه وبيته وكرامته وملكه •

وليس من شىء ينقص الرجال ويذل الجباه الا الفقر والخوف • ومن عجب أننا نقرأ آيات من القرآن الكريم ، نقرؤها وكأننا ما مررنا بهما ، مع أنها تتضمن فى ثناياها هذين الأصلين ، التحرر من الخوف والفقر • فى مثل هذه الآيات نجد دستور الحرية الذى هو أساس الأمن • قال تعالى : ((**لايلاف قريش • ايلافهم رحلة الشتاء والصيف • فليعبدوا رب هــذا البيت • الذى أطعمهم من جوع وآمنهم من خوف**))(٥٨) • وعدم وصولنا الى فهم هذا الدين والوقوف تربويا ونفسيا منه نتج عن تغافلنا فى فهم منهجه وعدم اعمال فكرتنا فى مضامينه(٥٩) •

ولقد طبق الخلفاء الراشدون منهج الحرية فى الرأى والارادة ، سواء للفرد أو الجماعة ، وفور أن بويع أبو بكر رضى الله عنه بالخلافة لفت أنظار المسلمين بل وطالبهم جميعا بتتبع أفعاله وأقواله بهدف النقد والوصول الى الكلمة الفصل والرأى الصواب فى كل ما يجد من أمر يمس مصلحة المسلمين • وصعد أبو بكر الصديق المنبر وخطب الناس قائلا : ((لقد وليت عليكم ولست بخيركم ، فان أحسنت فأعينونى ،

---

(٥٧) محمد رأفت عثمان ، الحقوق والواجبات والعلاقات الدولية فى الاسلام ، مطبعة السعادة ، ط ٢ ، ١٣٩٥ هـ / ١٩٧٥ م ، ص ٨٥ ، ٨٦

(٥٨) قريش : ١ — ٤

(٥٩) سعيد اسماعيل على ، ديمقراطية التربية الاسلامية ، مرجع سابق ، ص ١٣٣ ، ١٣٤

وإن أسأت فقوموني ، أطيعوني ما أطعت الله فيكم ، فإن عصيت الله فلا طاعة لي عليكم »[٦٠] .

ولقد سار عمر بن الخطاب رضى الله عنه فى نفس المنهج واتبع نفس الخطوات وطالب الناس أن يعينوه على الحق وأن يقوموه اذا اعوج فى سلوكه ، حينئذ ينهض أعرابى فيقول : « والله لو رأينا فيك اعوجاجا لقومناه بحد سيوفنا » ، فينشرح لذلك صدر عمر ويقول : « الحمد لله الذى أوجد فى المسلمين من يقوم عمرا بسيفه » . وعمر نفسه يخطب الناس قائلا : « أيها الناس .. اسمعوا وأطيعوا » فيقف أعرابى ليقول : « لا سمعا ولا طاعة يا عمر » ويستقبل أمير المؤمنين الأمر بالبسمة ، فالأمر لا بد يستحق النظر ، والا لما تجرأ هذا الأعرابى ليسوق هذا القول ، ويسأل عمر : « يا أخا العرب .. لم هذا » ؟ ويرد الأعرابى متهما الخليفة بعدم التوزيع العادل للأقمشة التى تصنع منها الثياب ، حيث رأى هذا الأعرابى ، ثوب عمر رضى الله عنه فى كفاية ، بينما لم تكفه قطعته ليصنع منها ثوبا على قده . حينئذ استدعى الخليفة عمر بن الخطاب ابنه عبد الله طالبا اياه أن يوضح الأمر ، ويجلى القضية ، فقال عبد الله : « انه أعطى حبرته لوالده ليضمها الى حقه ، حتى يصنع منهما ثوبا يكفيه ويفصل على قده » . فهدأت نفس الأعرابى ، وقال : « الآن السمع والطاعة يا أمير المؤمنين » . وتلك مواقف تستحق أن نشيد بها ، لأنها جاءت كبرهان قاطع على ما اتسم به المجتمع الاسلامى من حرية فى الرأى بلا بلبلة أو تحريف .

ولقد مثلت الحرية الجماعية أفضل النماذج وأقواها فى أخطر أمر يمس مستقبل الأمة ، وهو اختيار الخليفة ، يترك الأمر للتشاور ، وابداء الرأى فى حرية كاملة يجتمع المسلمون فى سقيفة بنى ساعدة للتشاور ، والقوم كلهم ممثلون فى هذا الاجتماع مهاجرين وأنصارا ، يبدون آراءهم فيمن يخلف رسول الله صلى الله عليه وسلم ويقع اختيارهم على أبى بكر الصديق رضى الله عنه .

وبمثل ذلك أيضا تسلم عمر وعثمان وعلى الخلافة . جازاهم الله جميعا الخير عن الاسلام والمسلمين[٦١] .

---

(٦٠) مصطفى الرافعى ، الاسلام انطلاق لا جمود ، دار مكتبة الحياة ، ١٩٥٩ م ، ص ٤٤

(٦١) محمد رأفت عثمان ، الحقوق والواجبات والعلاقات الدولية فى الاسلام ، مرجع سابق ، ص ٨٦ ، ٨٧

والاسلام بهذا المنهج سبق كل النظم والفلسفات ، فى توفير مناخ حرية الرأى والارادة ، مما لا يبقى معه مقارنة تذكر بأى دين آخر ، أو مذهب فلسفى قديما كان أو حديثا • وما كان ذلك لولا الحصانة والسياج اللذين أحاط بهما الاسلام الحرية بما يضمن لها نجاحها ويحقق لها أهدافها فى بناء الفرد المسلم •

٤ **ـ حرية العمل** : أباح الاسلام اتخاذ العمل كحرفة ، وللمسلم أن يختار العمل الذى يناسبه فى حدود الأمور المباحة ، فيكره مثلا اتخاذ بعض الصناعات المؤدية الى اللهو ، كصناعة آلات اللهو وما شابهها ؛ لأنها تفتح ارتكاب المحرمات ، وهذا فيه حماية ووقاية • وغير المسلم ممن يقطن فى ديار الاسلام له حرية اختيار العمل فى المجال الذى يناسبه وفى أنواع التجارات التى تتفق مع دينه •

ولقد احترم الاسلام العمل ، بل وقرنه بالايمان ، « **ان الذين آمنوا وعملوا الصالحات انا لا نضيع أجر من أحسن عملا** »(٦٢) • والرسول صلى الله عليه وسلم يقول لابنته فاطمة : « يا فاطمة بنت محمد اعملى فانى لا أغنى عنك من الله شيئا » وكان صلى الله عليه وسلم يعمل بيده الشريفة ويتقدم الصحابة فى العمل ، ويختار من أنواع العمل ما فضل عنهم ، وكان صلوات الله وسلامه عليه ، يرقع ثوبه ونعله ويحلب شاته ••• وهكذا •

كما كفل الاسلام حرية الانتقال من بلد الى آخر من أجل العمل • اللهم الا فى حالات الحرب ، فتقتصر هذه الاباحة للمسلم فقط حفاظا على الأمن والنظام(٦٣) •

واختيار المسلم للعمل ، يكون وفق رغبته واقتناعه بأنه سيبرز فى هذا المجال وسيفيد غيره من المسلمين ، وأى عمل مهما قل فللانسان أن يتخذه حرفة ، طالما هو يعين ويساهم فى قضاء مصالح الناس ويؤدى الى تيسير أمورهم • والشرط الأساسى هو اتقان العمل والوفاء به على الوجه الأكمل ، والخلوص مما قد يوقع فى ارتكاب المحرمات ، كالتطفيف فى الكيل وخلافه • قال تعالى : « **ويل للمطففين • الذين اذا اكتالوا على الناس يستوفون • واذا كالوهم أو وزنوهم يخسرون •**

---

(٦٢) الكهف : ٣٠

(٦٣) مصطفى الرافعى ، الاسلام انطلاق لا جمود ، مرجع سابق ، ص ٤٩ ، ٥٠

ألا يظن أولئك أنهم مبعوثون • ليوم عظيم »[٦٤] • أما عن تحديد أوقات العمل فلقد نظمها الاسلام وفقا لهذه القاعدة : « لا ضرر ولا ضرار » فكل ما يفضى الى ارهاق العامل وحرمانه من الراحة الضرورية أو الاطمئنان على النفس فى الحاضر والآجل لم يقره الاسلام بل حرمه ورفضه •

وعلى النظام الحاكم أن يضع من القوانين ما يفضى الى تطبيق هذه القاعدة فى ضوء تلك الحدود ووفق هذه المقتضيات[٦٥] •

٥ ــ **حرية نظم الحكم** : جاء القرآن الكريم ونص على وجوب الشورى فى أساس الحكم • وفى فروعه • قال تعالى فى وصف المؤمنين الصادقين فى ايمانهم : « **والذين استجابوا لربهم وأقاموا الصلاة وأمرهم شورى بينهم ومما رزقناهم ينفقون • والذين اذا أصابهم البغى هم ينتصرون** »[٦٦] • وطبقا لهذه الآية على المؤمن أن يتصف بأمور خمسة هى الأساس فى بناء الجماعة الاسلامية :

(أ) الطاعة لله والاستجابة اليه ورفض الاستجابة لغيره ، بمعنى أنه لا يطيع الا فيما فيه طاعة لله تعالى •

(ب) تطهير القلب وتهذيب النفس بالعبادات التى تربى الوجدان ، وعلى رأسها الصلاة •

(جـ) الحكم بالشورى الجامعة لا بالاستبداد المفرق •

(د) التعاون المادى الذى يسد حاجة المسلمين •

(هـ) رفض الظلم ، وعدم الخضوع له ، ودفعه أنى كان وحيث يكون •

والمسلم حقا هو من يجأر بكلمة الحق ، مهما كلفه من عنت • قال صلى الله عليه وسلم : « أفضل الجهاد كلمة حق عند سلطان جائر »[٦٧] وهذا هو ما ألمح اليه القرآن الكريم فى قوله تعالى : « **والذين اذا أصابهم البغى هم ينتصرون** » • والرسول صلى الله عليه وسلم ، لم يستغن عن استشارة غيره من الناس ، اللهم الا فيما ينزل عليه فيه وحى ، وقد أمره الله سبحانه وتعالى أن يعلن على الملأ ذلك • قال تعالى : « **قل انما أنا بشر مثلكم يوحى الى** »[٦٨] وقال : « **ولا أقول لكم عندى**

---

(٦٤) المطففين : ٤ ــ ٥

(٦٥) سيد قطب ، معركة الاسلام والراسمالية ، دار الشروق ، بيروت القاهرة . ط ٦ ، ١٣٩٩ هـ / ١٩٧٩ م ، ص ٤٦

(٦٦) الشورى : ٣٨ ، ٣٩

(٦٧) سعيد اسماعيل على ، ديمقراطية التربية الاسلامية ، مرجع سابق ، ص ١٣٤ ، ١٣٥

(٦٨) فصلت : ٦

خزائن الله ولا أعلم الغيب ولا أقول انى ملك »(*) ولقد عبر الرسول صلى الله عليه وسلم عن ذلك فى كثير من أحاديثه : « أنتم أعلم بأمور دنياكم » و « انما أنا بشر اذا أمرتكم بشىء من أمر دينكم فخذوا به ، واذا أمرتكم بشىء من رأيى فانما أنا بشر »(٦٩) .

من هذا المنطلق كفل الاسلام الحقوق والواجبات بين المؤمنين فى مساواة تامة . وللمسلم أن يعلن رأيه فى شئون المسلمين التى لا يلتزم الحاكم فيها بشرع الله رب العالمين . بل ومن حقه أن يصبح حاكما ، أى خليفة ، طالما تمت له البيعة باجماع المسلمين . وبهذا وفر الاسلام للفرد المسلم أحقيته فى :

أولا : المشاركه فى قيادة الدولة عن طريق اختياره اختيارا حرا من الشعب ، أو مشاركته فى اختيار من يرشح نفسه من أبناء الأمة .

ثانيا : حق ابداء الرأى ولو تعلق الأمر بنقد الحاكم .

أما أولا : وهو المشاركة فى قيادة الدولة بالحكم أو باختيار الحاكم فان اختيار الحاكم يتم بمبايعة أهل الحل والعقد الممثلين للأمة ، أو بانتخابهم ، أو باستفتاء عام . والحاكم بهذا يستمد سلطاته من الأمة ، وهو وكيلها فى حراسة الدين وقضاء الشئون السياسية .

ولا غرو أن يكون الحاكم من أى فئة أو أسرة فى المجتمع ، طالما توفرت فيه الكفاءة والقدرة على احتمال تكاليف الحكم والقيام بأعبائه . وبهذا فمن حق أى فرد فى الأمة أن يتقدم لشغل هذا المنصب ومن حق أى فرد آخر أن يقبله أو يرفضه ، واذا تم الاختيار فلا مجال لأحد أن ينقض ما أجمع عليه الرأى العام . وعلى الحاكم ألا يقضى فى أمر دون أن يأخذ رأى الأمة ، لأن الأمة أوكلت اليه التصرف فى شئونها ، فلا يجوز التصرف دون رغبة الموكل ووفق ارادته ، التى هى أصلا تأتى موافقة للدين ، والخليفة (الحاكم) يقتدى فى ذلك بصاحب الشرع صلوات الله وسلامه عليه . قال تعالى : **« وأن احكم بينهم بما أنزل الله ولا تتبع أهواءهم واحذرهم أن يفتنوك عن بعض ما أنزل الله اليك »**(٧٠) والحاكم ملتزم فى الحكم بما أنزل الله ، والرجوع الى الأمة فيما يجد من أمور لا نص فيها من كتاب أو سنة ، اقتداء بما كان يفعل رسول الله صلى الله عليه وسلم .

(*) هود : ٣١

(٦٩) المرجع السابق ص ١٣٦ ، ١٣٧

(٧٠) المائدة : ٤٩

ولا يفوتنا أن نذكر أن الرسول صلى الله عليه وسلم يختص فى كونه يوحى اليه من عند الله ، أما الحاكم فان الأمة هى التى اختارته نائبا عنها فى القضاء وسياسة أمور الدولة(٧١) •

أما ثانيا : وهو حق ابداء الرأى ولو تعلق بنقــد الحاكم ، فان الشواهد على ممارسة المسلم لهذا الحق كثيرة ، فلقد وقفت امرأة أثناء خطبة عمر رضى الله عنه حين خطب المسلمين يناديهم بتخفيض المهور ، قالت امرأة : « أيعطينا الله وتحرمنا أنت يا عمر » ؟ وقرأت قوله تعـــالى : **« وان أردتم استبدال زوج مكان زوج وآتيتم احداهن قنطارا فلا تأخـــذوا منه شيئا ، أتأخذونه بهتانا واثما مبينـــا »**(٧٢) حينئذ أجابها أمير المؤمنين : « أصابت المرأة وأخطأ عمر » • وقال عثمان رضى الله عنه : « أمرى لأمركم تبع » •

بهذا اختط الاسلام منهج التكامل لنظام الحكم فى الدولة ، سواء الحاكم أو المحكوم • وهذا بلا شك يضمن تحقيق العدالة الاجتماعية ويوفر الخير والسعادة لأبناء المجتمع دون تمايز أو خصوصيات •

٦ ــ حــرية الوجــدان : لا شك أن تحقيق التكامل فى شخصية الانسان ، داخله وخارجه ، ظاهره وباطنه ، هدف أسمى من أهــداف الاسلام ، لأن المسلم لا يكون منقادا وراء شهواته ، أو تواقا الى ممارسة أعمال تغضب الله رب العالمين ، بل ينبغى أن يعبد الله سبحانه وتعالى كأنه يراه فان لم يكن العبد يرى ربه فان الله مطلع عليه ، ويرى جميع أفعاله وأقواله • والاسلام يطلق للانسان الممارسة للمباحات فى حدود ما شرعه الله تعالى لأن ذلك يتوافق مع متطلبات النفس البشرية ، ويتواكب مع احتياجاتها • وهذا بدوره يكفل السعادة والراحة النفسية والفوز فى الدار الآخرة • وفى الصحيح عن أبى هريرة رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه سئل : أى الناس أفضل ؟ قال : « أتقاهم » قيل له : ليس عن هذا نسألك ، فقال : « يوسف نبى الله ، ابن يعقوب نبى الله ، ابن اسحاق نبى الله ، ابن ابراهيم خليل الله » . فقيل له : ليس عن هذا نسألك • فقال : « عن معادن العرب تسألونى ؟ الناس معادن كمعادن الذهب والفضة خيارهم فى الجاهلية خيارهم فى الاسلام اذا

---

(٧١) السيد سابق ، عناصر القوة فى الاسلام ، مرجع سابق ، ص ١٤٢ ، ١٤٣

(٧٢) النساء : ٢٠

فقهوا »[٧٣] • وجاء فى القرآن الكريم : « **يا أيها الناس انا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا ، ان أكرمكم عند الله أتقاكم ، أن الله عليم خبير** »[٧٤] • وفى السنن عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : « لا فضل لعربى على عجمى ولا لعجمى على عربى ، ولا لاسود على أبيض ولا لأبيض على أسود ، الا بالتقوى ، كلكم لآدم ، وآدم من تراب »[٧٥] •

وعنه صلى الله عليه وسلم أنه قال : « ان الله تعالى أذهب عنكم عبية (العبية : الكبر) الجاهلية وفخرها بالآباء ، الناس رجلان : مؤمن تقى ، وفاجر شقى » •

فمن كان من هذه الأصناف اتقى الله فهو أكرم عند الله • وبهذا دل الكتاب والسنة على مبدأ المساواة وأن أكرم الناس عند الله أتقاهم[٧٦]

ولما كانت المفاضلة بين الناس تتم بالتقوى ، فان الاسلام وضع من الفرائض والعبادات ما يربى فى الفرد الجانب الروحى والوجدانى ، وكانت فرائض الصلاة والصيام والزكاة والحج والذكر والدعاء بمثابة الروابط التى تربط المؤمن بخالقه ، تشعره أن الله سبحانه وتعالى معه ، يعينه وينصره ، فلا خوف ولا هلع ، ولا يأس ولا قنوط ، بل اطمئنان وثقة فى الله رب العالمين لأن الله سبحانه وتعالى قريب من عبده • قال تعالى : « **واذا سألك عبادى عنى فانى قريب ، أجيب دعوة الداع اذا دعان ، فليستجيبوا لى وليؤمنوا بى لعلهم يرشدون** »[٧٧] •

وهذا جميعه يحيى داخل المؤمن حب الخير ، وصحوة الضمير ، حتى يستطيع مواجهة الحياة بكل ما فيها من واقع لا غنى للانسان عنه •

والاسلام فى كل هذا يعترف بمتطلبات الطبيعة الانسانية يستثيرها ويعلى من قدراتها وطاقاتها من أجل التحرر الوجدانى الكامل والصريح •

« وهكذا يأخذ الاسلام الأمر من وجوهه كلها ، من مناحيه جميعا ،

---

(٧٣) رواه البخارى ومسلم • (٧٤) الحجرات : ١٣

(٧٥) رواه احمد فى « المسند » عن ابى نضرة ، وقال الهيثمى : رجاله رجال الصحيح •

(٧٦) ابن تيمية ، الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان ، المكتب الاسلامى ، بيروت ، ط ٢ ، ١٣٩٠ هـ ، ص ٤٢ ، ٤٣

(٧٧) البقرة : ١٨٦

فيكفل التحرر الوجدانى تحررا مطلقا لا يقوم على المعنويات وحدها ولا على الاقتصاديات وحدها ولكن يقوم عليها جميعا . فيعرف للحياة واقعها ، وللنفس طاقاتها ، ويستثير فى الطبيعة البشرية غاية أشواقها وأعلى طاقاتها ويدفع بها الى التحرر الوجدانى كاملا صريحا . فبغير التحرر الكامل لن تقوى على عوامل الضعف والخضوع والعبودية ولن تطلب نصيبها من العدالة الاجتماعية ولن تصبر على تكاليف العدالة حين تعطاها »[٧٨] .

* * *

ثانياً ــ التطبيق التربوى للحرية من وجهة النظر الفلسفية :

(أ) كلمة حول مفهوم الديمقراطية :

ما دمنا سنتعرض بالمناقشة لفكرة الديمقراطية ، كاطار عام تتحرك فيه التربية ، فلا بد أن نلقى فكرة عن نشأة مفهوم الديمقراطية . والكلمة نفسها قديمة ، استخدمها الاغريق القدامى لأول مرة فى القرن الخامس قبل الميلاد . كما أنها اصطلاح يونانى ذو لفظين : « ديموس » أى الشعب و « كراتوس » أى السلطة .

وكلمة الديمقراطية وردت لاول مرة فى التاريخ فى كتاب « تاريخ حرب البيلوبونيز » للمؤرخ اليونانى توسيدس (٤٦٠ ــ ٤٠٠ قبل الميلاد) . وقد كشف هذا الكتاب ببراعة عن معنى الديمقراطية فى ذهن مفكرى أثينا والتى تتضمن العبارات التالية : « مواطنون أحرار فى بلد حر ، وحكومة اتجاهاتها كاتجاهات القانون المحايد لأنه صواب وحق . وحرية المواطن هى حقه فى التقدير والمناقشة والمساهمة وفقا لكفايته الذاتية ومواهبه ، لا لثروته أو طبقته الاجتماعية . وكان الهدف من ذلك كله تحقيق حياة مشتركة واتاحة فرصة المران لمواهب الأفراد وملكاتهم ، وأن تحيا الجماعة حياة متحضرة تقوم على أساس من الرفاهية المادية والفن والدين وحرية التقدم الفكرى . وأفضل ما فى هذه الحياة المشتركة بالنسبة الى الفرد هو قدراته على الانتاج المثمر وحريته فى ذلك الانتاج ، وأن يشغل مكانا ولو كان متواضعا فى هذه المهمة السياسية المشتركة وهى حكم المدينة الاغريقية »[٧٩] .

---

(٧٨) سيد قطب ، العدالة الاجتماعية فى الاسلام . مطبعة عيسى البابى الحلبى ، ط ٦ ، ١٩٦٤ م ، ص ٥٠ ، ٥١

(٧٩) سعيد اسماعيل على . ديمقراطية التربية الاسلامية . مرجع أسبق ، ص ٣ ــ ٥

(ب) التربية بين الالتزام والديمقراطية :

الحرية فى المجال التربوى معناها : « اتاحة أكبر مجموعة ممكنة من الخبرات أمام الفـــرد ، ليتسنى له بالتالى اختيـــار الخبرة المتناسبة واستعداداته الجسمية والنفسية • والحرية أيضا فى المجال التعليمى هى حق ممارسة الخبرات المكتسبة فى المختبر والعائلة والمجتمع ••• والحرية فى مجالات البحث هى توفير امكانيات البحث النظرى والتطبيقى •• الخ •

اذن فنحن ازاء مجموعة من المحددات للحرية على أنها : اتاحة الفرص ، الاختيار ، حق الممارسة ، توفر الامكانيات ••• وبذا تتوفر أمامنا منهجية متكاملة تضم الجانب النظرى الى العملى فى مقولة قيض لها أن تشغل ذهن المفكرين منذ انبلاج تاريخ الفكر الانسانى ، كما قيض لها أن يكون الدم هو ثمن ممارستها ، وطريق الحصول عليها »(٨٠) •

واذا كانت التربية تهدف الى تحقيق الحرية لفرد موجه لنفسه يتحرك تلقائيا ، واذا كان المثل الأعلى للتربية هو الاستمرار فى الالهام الذاتى ، الذى يتعلم الشخص الناضج كيف يوجهه ، اذا كان ذلك كذلك فان تحقيق هذا الهـــدف يقوم أصلا فى سنوات الطفولة المبكرة على أسلوب التلقين •

والتربية يجب أن تتضمن التلقين فى برامجها ، وهو الالتزام بكل ما تقـــرره المؤسسات التربوية فى الأسرة وفى المدرسة ، كما تتضمن الديمقراطية ، والقدر الصحيح لكل منهما هو دالة لمستوى النضج للمتعلم ومنح الفرد الاستقلال قبل أن تتشكل ذاته تشكيلا محددا يؤدى الى الشعور بعدم الملاءمة مما قد يؤدى الى كفاح طيلة الحياة من أجل تحقيق الأمن والطمأنينة •

كما أن اطالة مدة التلقين والاتكال يهدم روح المبادأة والابتكارية ويكون شعورا بالاحباط ، وغضبا يؤدى الى أشكال هدامة من السلوك •

وعلى أية حال فالطفل الصغير لا يسمح له بأى صورة أن يحكم نفسه ، بل يجب أن تفرض عليه تحديدات وتحكمات حتى يصبح ذاتا محددة لها طابع وظيفى تستطيع أن تصل الى قرارات مؤدية الى نمو متسق وانسجام مناسب مع البيئة الاجتماعية والمـــادية •

---

(٨٠) جميل م• منيمنة ، مشكلة الحرية فى الاسلام ، المشكلة الاجتماعية مرجع سابق ص ١٣٢

لذلك فمراحل النمــو الأولى يجب أن تتضمن قــدرا معقولا من التحديد وراء الذات ، يتوقف عليه نوع الذات التى ستواجه الحياة فيما بعــــد •

وقد يبدو أن الحرية والتربية متعارضتان ، خصوصا فى المراحل الأولى للنمو وفى حالات الأطفال غير الناضجين • فى هذه المرحلة يتحكم المدرس أو الأب فى السلوك تحكما كاملا ، وقد يؤخذ الطفل من الشارع ، أو يطلب منه ضد رغبته أن يذهب الى النــوم بدلا من أن يبقى مع الكبار • وحتى فى حالات الناضجين ومع امكانية منحهم استقلالا أكبر ، فالتعــارض وارد أيضا حيث ان الســلوك يتحدد ولو على الأقل من الخارج •

والصواب أنه لا تعارض بين الحرية والتربية لأن التربية تكون عديمة الفائدة اذا لم تحدث تغييرات فى السلوك وهى فى جوهرها تفترض ارتباطا وتأثيرا متبادلا بين الأفراد وعندما يوجه فرد نمو فرد آخر فانه يضع حدودا لنشاط الآخر ، ويمارس تأثيرا فى سلوكه[٨١] • وهناك طرفان يتجاذبان الحرية : أما الأول فهو الحتمية بمعنى أن سلوك الانسان يتحدد كلية بالظروف السابقة ، وما يحدث لا بد أن يحدث والحقائق هى الحقائق وهى ليست أفضل أو أسوأ •

والتربية من هذه الزاوية جزء من الحياة فى هذا التتابع الحتمى ، كما أنها ليست وسيلة لتطوير الحياة الانسانية ، سوى كونها طريقة للتحدث عن الاتجاهات العاطفية نحو مجرى الأحداث الحتمى •

وبهذا فالحتمية تهدم الباعث على المخاطرة الخلاقة وتؤدى الى روح من التسليم بقدر محتوم ، وهى بذلك تهدم الدوافع وتبعثر المجهود التربوى ، ويمكن أن نطلق على هذا الاتجاه الالتزام والجبر •

أما الطرف الثــانى الذى يتجاذب الحــرية : فهو الانطــلاق (الديمقراطية) وصاحب هذا الرأى ينظر الى المستقبل على أنه مفتوح ؛ والتربية طريقة لتقديم البديلات الحقيقية وتقديم أفضل الطرق مقارنة بضدها • والهدف من هذا الرأى هو المساعدة على تحديد القرار النهائى فى هذه الناحية أو تلك • والنتيجة فى يد من يختار فقد يختار الأسوأ لا الأفضل مهما كان اغراء الآخر •

---

(٨١) فيليب هـ. فينكس . فلسفة التربية ، ترجمة محمد لبيب النجيحى مرجع أسبق ، ص ٤٢٢ ، ٤٢٣

وهذا الرأى يسهم فى أن يجعل الفرد من حياته شيئا مذكورا ، ويمكن أن يواجه المستقبل ، ولن يكون كذلك اذا ما تحدد المستقبل من الآن • والتربية بذلك عليها تقديم البديلات الحاضرة التى يستطيع الفرد أن يختار من بينها • والمربى الذى يخدم الحرية الانسانية تكون عليه مسئولية محددة لعرض طرق معينة للحياة يعتقد بصفة خاصة أنها تستحق الاختيار • وهو يعرضها للنظر والاعتبار •

وبهذا فالمربى بما يبذله من جهد لا يستطيع أن يحدد تماما حياة أولئك الذين يعمل على توجيههم(٨٢) •

والتربية بطرفيها : الحتمية أو الانطلاق ، لا بد أن تتضمن المستقبل كما تتضمن الماضى ، فالفرد يكون حرا اذا استطاعت أهدافه الخاصة بالمستقبل أن تحدد سلوكه •

وفى هذا الاطار فقيام المعلم بتقديم برامج عمل أفضل قد يصبح جزءا من تصور المتعلم لامكانيات المستقبل والتربية تتجه بالضرورة نحو المستقبل ، وتعنى بما يصبح عليه الأفراد •

بيد أن التحديد اذا كان على أساس الماضى فقط ، لم تصبح التربية سوى تمثيلا لما كتب فعلا بمعنى أنها تكون تراثا • وأما اذا استطاعت الأهداف أن ترسم طريق الحياة فالتربية تحول ما كان مثالا ونظريا قبل ذلك الى حقيقة عملية •

وبهذا تحتاج التربية الصحيحة الى النظر فى التأثيرات الماضية ، وأيضا فى الأغراض المستقبلية لأن الاعتماد على الماضى فقط (الأسباب الفعالة) يؤدى الى نظرة مؤداها أن المربى يشكل الفرد مثلما النحات الذى ينتج التمثال بالشكل المطلوب • ان اشراك الأغراض المستقبلية (فكرة الأسباب النهائية) مع التأثيرات الماضية تترك مكانا للترغيب وتقديم بديلات ممكنة مع اتاحة الفرصة للمتعلم ليستجيب لهذه الأهداف التى تستحق ـــ بالنسبة له ـــ التحقيق فى المستقبل(٨٣) •

والفرد لكى يكون حرا فى تحقيق أهدافه ، لا بد وأن تتوفر له عوامل ثلاث : مادية ، اجتماعية ، ثقافية •

أما الجانب المادى ، فالفرد لا يستطيع أن يكون حرا مع عدم وجود المصادر المادية ، فالناس الذين يكونون على مستوى الكفاف

---

(٨٢) المرجع السابق ، ص ٤١٨

(٨٣) المرجع السابق ، ص ٤٢٤ ، ٤٢٥

المــادى ، يكونون أكثر استجابة فى العادة الى الوعد بالتحسن الاقتصادى منهم لأنواع الحرية غير المحسوسة ، مثل حق اختيار المهنة ، وحق التصويت ، فاذا توفرت السلع الضرورية للحياة أتيح للفرد الفرصة لتحقيق أهداف متنوعة •

ومن هنا فالتسهيلات المــادية مثل المنازل والمبانى المدرسية والكتب والمعدات المعملية تساعد الأشخاص الذين هم فى مرحلة نمو ، تساعدهم بما لديهم من حرية على تحقيق الامكانات العالية من الأهداف •

كما أن هذه التسهيلات المــادية لا تحقق التربية من أجل الحرية فحسب ولكن هى بدورها أساسية لتأكيد الصالح المــادى ، وتحقيق توزيع عادل واستخدام انسانى منــاسب للمصالح المــادية بواسطة السيطرة على البيئة المــادية وأساليب الحياة الاجتماعية والسياسية والاقتصــادية •

أما الدعم الاجتماعى ، فهو ضرورى ، لتحقيق الحرية للفرد ، وليس معنى هذا أن الأنبياء والشهداء الذين يقفون ضد خبرات المجتمع ليسوا بدون حرية ، اذ أنهم مع ذلك أقل حرية فى تحقيق أهدافهم مما لو أن المجتمع ساندهم بدلا من أن يعارضهم • وهذا شأن الداعين للاصلاح والتجديد يدينون للمجتمع باعطائه الأساس الذى يعارض منه •

وتحتل الأسرة الأهمية الأولى فى الدعم الاجتماعى كما تأتى الرعاية المستمرة للطفل من الآباء والمدرسين والأصدقاء ، عوامل أساسية فى منح الطفل القدرة على الانجاز • ولا يستطيع فرد أن ينجز عملا وحده ما لم تقدم له الموارد الأساسية والمعونة الانسانية الضرورية •

وأما الموارد الثقافية فيتوقف عليها تحقيق الأهــداف ، والدعم الثقافى ، يعنى المعونة التى يتلقاها العالم من النتائج المتراكمة للابتكار الانسانى مع الأخذ فى الاعتبار أهمية حماية القانون وتشجيع الزملاء •

ويرى بعض المربين أن فرض ثقافة المــاضى ، فيه استعباد للطفل مما يكسبه العجز وعدم القدرة • والصحيح هو أن نربى الطفل ليكتشف عالمه ويساهم فى تطوره وبعثه • والانسان مهما أوتى من ابتكار وذكاء يستحيل عليه أن يبدأ من جديد ويستعيد خبرات الجنس البشرى الشــاق •

ومن هنا فالتربية الحرة الحقيقية هى التى تستثمر المعرفة البشرية بخبراتها التراكمية • وهذا ليس معناه أن التربية يجب أن تخصص فقط للسيطرة على مجموعة من التقاليد الميتة بل الأوفق هو أن هذا التراث

يجب أن يكون مصدرا حيا يستثمره الأفراد لتحقيق أهدافهم • والتربية الحرية بذلك : هى التى تتضمن تدريبـا واسعا متنـوعا فى التراث الثقـافى[٨٤] •

ويضاف الى الجانب المـادى والاجتماعى والثقاف فى تكوين الفرد الحر ، يضاف اليه تمتع هذا الفرد بقدر مناسب من الصحة والقوة البدنية ، وكذلك لابد أن يكون على قدر من القوة العاطفية والعقلية ، والعادات الجيدة ، والتوازن ، والائتلاف بين الدوافع الجسميه وسائر المكونات الأخرى للكائن الحى مثل الذكاء والشعور والعاطفة والعقل وغـيرها •

وكلما توفرت للشخصية اتجاهات صحيحة فى تكوين العـادات واتسعت اتجاهات الآباء فى الأسرة وتكاملت مع اتجاهات المدرسين والأصدقاء فى نمط واحد ، يمكن حينئذ ضمان نمو الشخصية المتكاملة فى محتوى اجتماعى موحد •

(جـ) وظيفة المدرسة بين الالتزام والحرية :

عملية الالتزام والتوجيه ، تطرح قضية تربوية ، هى قضية التلقين ، وهى عملية ساءت سمعتها فى عالم التربية ، وهاجمها كثير من فلاسفة التربية ، خاصة فى البلاد الديمقراطية لأنها لا تتناسب مع المفهوم الديمقراطى •

ويقصد بالتلقين أن تفرض المدرسة على التلاميذ وجهات نظر آتية من جهة الجماعة أو السلطة التى تحكم الجماعة ، أو أية منظمة داخل اطار الجماعة • هؤلاء الفلاسفة هاجموا فكرة أن المدرسة تفرض على التلاميذ وجهة نظر معينة ، أو تقنعهم بها ، وانما الخير فى نظرهم ، هو أن توصف الأشياء وتوضح وتذكر عنها الجوانب السلبية والايجابية على حد سواء ، ثم بعد ذلك نترك للتلميذ حرية اختيار ما يقتنع به عقله • بمعنى آخر ، فوظيفة المدرسة أن تعلم التلميذ كيف يفكر ، وتمده بمادة التفكير ، ولكنهـا لا تعلمه ماذا يفكر • وبالرغم من ذلك وجد هؤلاء المربين أن الالتزام بوجهة نظرهم يتعارض مع فكرة الديمقراطية ذاتها ، لذلك اضطروا الى الاعتراف أن تلقين الاعتقاد فى مذهبهم الديمقراطى أمرا ممكنا ولازما • وبعبارة أخرى فانهم وان كانوا فلسفيا عارضوا

---

(٨٤) المرجع السابق ، ص ٤٢٨ — ٤٣١

فكرة وجود قيمة مطلقة يصح تلقينها الا أنهم اعتبروا الديمقراطية فى بلادهم قيمة مطلقة واستثنوها من الحكم •

والغرض والهدف النهائى من كراهية مبدأ التلقين فى التعليم ، هو عدم اغلاق باب الاجتهاد الفكرى أمام التلاميذ ، واعطائهم الفرصة لأن يفكروا بأنفسهم وفى نفس الوقت فأيديولوجية الجماعة وفلسفتها وشكلها أمور لا يمكن أن يختلف عليها أو يفتح باب الاجتهاد فيها ، والا أصيبت كل المجتمعات بعدم الاستقرار •

وهذا يجيب على التناقض الظاهر بين التزام التربية وبين كراهية مبدأ التلقين الذى أشرنا اليه آنفا •

ومن هنا يصح من هذه الوجهة أن تنقح فلسفة المجتمع وأن تهذب وتعمق وتخلص من تناقضاتها ، وأن ينتقل فيها من وجه الى وجه ، ولكن من غير الجائز أن تكون فلسفة الجماعة وشكلها موضع تغيير وثيق أو جذرى •

وعلى هذا فكراهية مبدأ التلقين فى التربية أمر نسبى ، فيباح فى كل ما هو أساسى لتقرير شكل الجماعة وأبعادها وفلسفتها ولا يباح فى غير ذلك • أو بمعنى آخر فالتلقين أمر مباح اذا كان يتعلق بكون الجماعة وأيديولوجيتها التى أصبحت أمرا مقررا عند المجتمع •

وعن فتح باب التفكير أمام التلاميذ هناك مجال كبير فى اطار الأيديولوجية بحيث يمكن عرض بعض المشكلات والتناقضات الاجتماعية تطرح أمام التلاميذ ويعطون حقائقها وسلبياتها وايجابياتها ثم يتركون لتشكيل آرائهم نحوها فيما يتعلق بالحلول معتمدين على عقولهم وتفكيرهم • وبذلك يصبح التلميذ جزءا من فلسفة جماعية ويفتح أمامه باب التفكير والاجتهاد ، وباب كسب المهارة المتعلقة بموازنة القضايا وتكوين الأحكام •

والمدرسة عليها أن تطرح المشكلة أمام التلاميذ ــ مشكلة البطالة ــ مشكلة المواصلات ، مشكلة الاسكان ••• الخ • وتزودهم بحقائقها وأخطارها ، ثم تترك لهم بعد ذلك الحرية فى التفكير ازاء حل هذه المشكلة • والتربية بذلك تقوم بما هو مطلوب منها من حيث أنها قوى موجهة ملتزمة ، وفى نفس الوقت يمكن للتلميذ أن يكتسب القدرة على التفكير فى القضايا الاجتماعية ويكتسب الاتجاه العقلى نحو الشعور بمسئوليته نحو المساهمة فى حل مشكلات الجماعة •

ويمكن القول : ان التلقين يباح فيما يتعلق بتطوير الجماعة ، وتهذيب المجتمع وتنقيته من التناقضات • ولكنه لا يبـاح فى فلسفة الجماعة وأيديولوجيتها وشكلها وأساسياتها •

فلا يباح تلقين بعض الآراء فى مواجهة بعض مشكلات اجتماعية بل تعرض المشكلات دون مساس باتجاهات معينة أو حلول مقصودة ، ويترك للتلميذ حرية الاختيار بين البديلات للحل •

والخلاصة أن التلميذ فى ظل هذا التوفيق بين التلقين وكراهيته تتاح له فرصة الاقتناع بأيديولوجية الجماعة وفلسفتها ، وأيضا التمكين من القدرة على التفكير واكتساب المهـارة فى مواجهة المشـكلات فى المجتمـع •

والسؤال الذى يطرح نفسه : هل النزاع بين التربية وحق المجتمع فى توجيهها يتعارض مع حق الحرية الواجب لكل صاحب فكر ؟

واذا كانت الحرية الفكرية من مستلزمات المعلم فهل قضية الالتزام وحتمية التلقين تتعارض مع حق المعلم فى الحرية الفكرية والأكاديمية للمدرسة والمعلم ؟

الواقع أن الاجابة بالنفى ، لأن الحرية المطلقة لا وجود لها ، وكل حرية يجب أن تكون محـدودة باطار معين تفرضه طبيعة الجمـاعة أو أهدافها أو قيمها • فالحرية المطلقة فوضى ، والمعلم والتلميذ يفكران بكامل حريتهما ، ولكن فى اطار ما تتفق عليه الجماعة وما تتواضع عليه من الفلسفات والقيم والأهداف •

وفى اطار مقومات الجماعة ومقدساتها ، هناك مجال واسع للحرية المنظمة ، وحرية امتزاج الحلول ، وحرية اصدار الاحكام ، دون أن يخرج المعلم من جلده أو يستعد على الجماعة وينقدها ، كما لو كان شخصا غير مشترك فيما تواضعت عليه من قيم وفلسفات •

بل ان هذا الاطار الفلسفى الاجتماعى القومى الذى يبدو وكأنه محدد لحرية الفكر كأن هذا الاطار الفلسفى نفسه أداة من أكثر أدواتها ضرورة ، وذلك لأن العالم لا يستطيع أن يفكر الا فى اطار حدود القوانين العلمية ، فاذا وضع حلولا لمشكلات المـادة تتعارض مع قوانين العلم ، كانت حلولا خاطئة لا قيمة لها •

والمعلم الذى ينتمى الى العلوم الاجتماعية ، لا يستطيع أن يفكر فى المشكلات والقضايا الاجتمـاعية والقومية الا محددا باطار ثابت

وواضح ، لا تهاون فيه كالقوانين العلمية تماما ، وهو اطار أيديولوجية الجماعة وفلسفتها •

وهذا الاطار المحدد للحرية هو اطار مرجعي ضروري لاستقامة عملية التفكير واستقامة حرية الفكر •

ومن هنا يستطيع الانسان أن يتقيد بفلسفة الجماعة فى تعليمه وتفكيره دون أن ينتقص ذلك من حريته أو من شعوره بهذه الحرية تماما كالعالم الطبيعى وهو يفكر فى مشكلات المادة مقيدا باطار قوانين العلم الطبيعى •

هذا فى ايجاز هو موقف التربية بين الالتزام والديمقراطية فى الفكر المعاصر • فماذا عن التربية والحرية من وجهة النظر الاسلامية ؟

لعل هذا ما سوف نحاول الاجابة عليه فى الصفحات الآتية •

* * *

ثالثا ـ التطبيق التربوى للحرية من وجهة النظر الاسلامية :

المسميات والمفاهيم فى الحرية تشمل : « حرية العقيدة : حرية التفكير ، حرية الرأى ، حرية العمل ، حرية نظم الحكم ، وحرية الوجدان » يجمعها كلها الحرية الشخصية ، فكون الشخص حرا ، معناه : حرية مطلقة تشمل الشخص كله فى داخله وخارجه ، فى علاقاته مع أسرته ومع الجماعة التى ينتمى اليها ومع المجتمع الكبير الذى ينتسب اليه ، فطالما الانسان حر فى كل هذا ، فقد تخلص من عبوديته لكائن ما من الكائنات ، بل وملك زمام أمره ، وأصبح حرا طليقا فى داخله وخارجه • والاسلام جعل حرية الفرد المتكاملة ، هدفا أساسيا ، ونعى على المتخاذلين المستسلمين المستضعفين الذين يقبلون الذل والهوان • قال تعالى : **« ان الذين توفاهم الملائكة ظالمى أنفسهم قالوا فيم كنتم قالوا كنا مستضعفين فى الأرض ، قالوا ألم تكن أرض الله واسعة فتهاجروا فيها ، فأولئك مأواهم جهنم ، وساءت مصيرا »**(٨٥) •

ولهذا كان الاسلام سباقا الى اتاحة الفرصة أمام المسلم ليخلص نفسه من الاستعباد ولو كان على حساب هجر الديار وترك الوطن ، والعيش فى آخر الدنيا طالما هو يبتغى عيشا كريما وحياة حرة سعيدة •

من هنا أوجب الاسلام على المسلم أن ينصر الحق ، ويجاهد فى

---

(٨٥) النساء : ٩٧ •

سبيل نصرة المستضعفين . قال تعالى : ((**وما لكم لا تقاتلون فى سبيل الله والمستضعفين من الرجال والنساء والولدان الذين يقولون ربنا أخرجنا من هذه القرية الظالم اهلها واجعل لنا من لدنك وليا واجعل لنا من لدنك نصيرا**))(٨٦) .

(ا) موقف الاسلام من الديمقراطية :

قد يجول بذهن البعض ، ممن جرفتهم المدنيه الحديثة ، من ضعاف النفوس من المسلمين ، قد يجول بأذهانهم ان الاسلام قد خلا من الديمقراطيه وانه مفتقد الى مثل تلك المذاهب السياسيه حتى تنصلح المجتمعات الاسلامية . وامام هذه الشرذمه يتعاظم صرح الاسلام ، شامخا . عاليا ، شاهدا على امتلاك الاسلام ناصيه العدالة ، ممثله فى تعبير المسلم عن رايه واعلانه عن حجته فى حرية تامة ، حتى ولو كان ذلك يتعلق بالحاكم نفسه وهذه بلا شك قمة الديمقراطية .

وكما سبق أن ألمحنا فالديمقراطية عبارة عن جعل الشعب هو مصـــدر السلطة فى اختيـــار الحاكم ، وفى مناقشة الأمور السياسية وما يتعلق بذلك . وتلك صورة قد تبدو جيدة ، غير أنها عند التحليل تبدو خيالية بعيدة عن الواقع الذى يشهد باصطدام هذا المذهب بمبادىء الاسلام القائم على أن الله سبحانه وتعالى هو المشرع الاول وأن الحكم لله رب العالمين .

أما الديمقراطية فتقوم على أن « الشعب هو مصدر السلطة بجميع أنواعها من تشريعات قضائية وتنفيذية » وأول ما يصدم هذا المبـــدأ ما تقرر فى الشرع الاسلامى من أنه لا حكم الا لله ، فالمشرع فى جميع الأحوال هو الله عز وجل على لسان رسوله المبلغ عنه كما جاء فى الايه الـكريمة : ((**ان الحكم الا لله**))(٨٧) واذلك كان مبدأ جعل الشعب هو مصدر السلطات لا يتفق مع مبادىء الشريعة الاسلامية فلا يباح لأى مسلم يدين بالاسلام فضلا عن جماعة ، أن يشرع أو يصوغ القوانين والتشريعات والأنظمة من وحى النفس والهوى ، لأن كل القـــوانين السياسية وغيرها موجودة ومتضمنة فى كتاب الله وسنة رسوله صلى الله

---

(٨٦) النساء : ٧٥

(٨٧) عبد الله كنون . اسلام رائد . دار الكتاب المصرى ، القاهرة ، ١٩٧٩ م ، ص ٦٩ ـــ والآية من سورة الانعام : ٥٧

عليه وسلم ، وعلى المسلمين أن يتفهموها وأن يطبقوها دون تحريف أو تعــديل ٠

ولعل حكم الشعب نفسه والمفروض فيه أنه يعنى اجماعا شعبيا ، لعل ذلك لا يحظى باعتراف كامل مائة فى المــائة من الافراد ، لأن هذا أمرا يكاد يكون مستحيلا بل أصبح لا يعدو حكم الاغلبيه وهى اغلبية نسبية يستحوذ عليها الحزب القوى فى الحكومة ٠

هذا فى الوقت الذى تمارس بقية الأحزاب والتنظيمات معارضة للتنظيم الحاصل على الأغلبية ، وتظل خارج الحكم ٠ « ثم ان هناك قطاعات كثيرة من الشعب لا تنتمى لأى من الاحزاب ٠ كلهم خارج الحكم ، فكيف يمكن القول ان هذا حكم الشعب ولو بالأغلبية »[٨٨] ؟

والواقع والمشاهد أن تلك الديمقراطية المزيفة قد أخفقت فى تلبية رغبات الأمم والشعوب سواء المــادية أو الاقتصادية أو السياسية ٠ ولقد أدى هذا بدوره الى النقــد الكبير الموجه الى تلك الديمقراطية الزائفــة ٠

ولقد ظهر كثير من التناقضات بين طبقات المجتمع ، حيث استحكمت الأنانية لطبقة استولت على المــال وتوسعت على حساب طبقات أخرى ، كما ظهر تشقق بين الطبقــات العمــالية مما أدى الى عجــز النظام الديمقراطى واخفاقه فى مواجهة التخلف وتحقيق انسانية الانسان[٨٩] ٠

فى ضوء ما سبق ، يمكن القول ان الديمقراطية ، وسيلة من وسائل تلهيةالشعوب وشغلها من أجل استبداد جماعة ما بالحكم ، دون تحقيق القدر الكافى من الحرية فى هذا النظام ٠ والديمقراطية فى عالمنا الحالى ، غدت مصطلحا خاليا من المضمون والجوهر ٠ أما الاسلام فان الكتاب والسنة المطهرة قد ضمنا تحقيق الحرية الحقيقية ذات الجوهر والمضمون والمحتوى ٠ واستطاع هذا النظام أن يحقق فضائل النفس البشرية من الحق والعدل والخير والسلام ٠ ولا شك أن حياة الرسول صلى الله عليه وسلم كانت خير مثال على تحقيق الديمقراطية الصحيحة الخالية من الخدع واللامبالاة ٠

ولقد سلك الخلفاء الراشدون نفس المنهج بعد رسول الله صلى الله

---

(٨٨) المرجع السابق ، ص ٧١ ، ٧٢

(٨٩) يوسف القرضاوى ٠ الحلول المستوردة وكيف جنت على امتنا ٠ مؤسسة الرسالة ، ١٩٨٠ م ، ص ٣٥٣

عليه وسلم ، فلقد أوصى أبو بكر الصديق رضى الله عنه أسامة بن زيد حين أنفذه على جيش المسلمين الى الشام قائلا : « لا تخونوا ولا تغلوا ولا تمثلوا ولا تقتلوا طفلا ولا شيخا كبيرا ولا امرأة ولا تغـدروا ولا تعقروا نخلا ولا تحرقوه ولا تقطعوا شجرة مثمرة ولا تذبحوا شاة ولا بقرة ولا بعيرا الا لمـأكلة ، وسوف تمرون بأقوام حبسوا أنفسهم فى الصوامع فدعوهم وما حبسوا أنفسهم له » .

وكذلك كان شأن عمر رضى الله عنه ، الذى لم يدخر وسعا فى هذا الباب والذى كان يقول فى وصاياه لمن يستعمله على ولاية : « انى لم أستعملكم على أمة محمد ولا على أعشارهم انما استعملتكم عليهم لتقيموا بهم الصلاة وتقضوا بينهم بالحق وتقسموا بينهم بالعدل » .

ولم يتهاون عمر رضى الله عنه أن يقتص من الوالى ان هو قصر فى أمر من أمور الرعية ، ولو قل هذا التقصير ، يدعو عمر الرعية لتقتص من هذا الأمير ، أو نقله الى منصب آخر أو عزله نهائيا[٩٠] .

ومن هنا فان الاسلام بنظامه أكد على أحقية الشعب فى أن يصون كرامته فى ظل التشريع الالهى البعيد عن الشبهات والأباطيل . هذا ولقد « حرص الاسلام حرصا شديدا على الحرية بمعانيها المختلفه حرصا يوفر للتعليم مناخا صحيا لا مناص منه اذا أردنا له نموا وازدهارا . والاسلام فى هذا قد سبق كثيرا من المذاهب والشرائع سبقا غير عادى ، ذلك أن الحرية فى الاسلام — خلافا للشرائع الوضعية — ليست حكما سياسيا فحسب — وليست جزءا من شريعة الاسلام ، وانما هى فى الحقيقة جزء من عقيدة الاسلام . ففى اللحظة التى يقرر الاسلام فيها وحدانية الله ، ويطالب الأفراد بألا تذل جباههم الا للخالق قيوم السموات والأرض .. هو يحررهم من العبودية لأى مخلوق ولأى فكرة ولأى جمـاعة »[٩١] .

---

(٩٠) مصطفى الرافعى ، الاسلام انطلاق لا جمود ، مرجع سابق ، ص ٧٩ — ٨١

(٩١) سعيد اسماعيل على . ديمقراطية التربية الاسلامية ، مرجع سابق ، ص ١٣٢ ، ١٣٣

(ب) أسلوب الاسلام فى تربية الفرد المسلم الحر :

واذا كانت التربية فى ظـل الديمقراطية ، تدعى أتاحة الفرصه للمتعلم ، كى ينمو فكره وتتحقق ذاته ، فان الاسلام سبق الى ذلك بل ان الأخبار تروى « آن ابن عباس خالف مشاهير الاسلام فى الرآى وهم عمر وعلى وزيد بن ثابت وكانوا آساتذته كما اختلاف الامام مالك مع آغلب أساتذته ثم خالفه فى الرآى كثير من تلاميذه .

ومن أظهر أساليب التعليم فى المراحل العالية ، تنيوع طريقة المناظرة ، ويمكننا أن نقول استنادا على كثرة ما ذكر عن المناظرة فى المراجع الاسلامية أنها من آخص مميزات التربية فى تلك العصور . ولقد وقف المسلمون على أهمية المناظرة فى شحذ الذهن وتقوية الحجة وانطلاق البيان والتفوق على الأقران وتعويد الثقة بالنفس فأولوها عناية كبرى فى طرق تعليمهم واشاروا اليهـا فى مواضع عـدة من مؤلفـاتهم »[٩٢] .

ولقد ناظر الغزالى مشاهير العلماء وقادتهم وهو فى بغداد فى معسكر الوزير نظام الملك ، وحاجهم وانتصر عليهم جميعا .

« ويصف السبكى اسماعيل بن يحيى المتوفى سنه ١٧٥ هـ بأنه جبل من العلم على جانب عظيم من المهـارة فى المنـاظرة قال عنه الامام الشافعى : انه لو ناظر الشيطان لغلبه . ويقول المقريزى عن احد العلماء المشهورين : انه كان يشجع المنافسة بين تلاميذه ، بل كان يصر عليها وهو لا يرى بأسا من مخالفة التلميذ لاستاذه ما دام يفعل ذلك فى تأدب واحترام . ويرى الزرنوجى انه لابد للطالب من المذاكرة والمطارحة والمناظرة ، فاذا كانت نيته الزام الخصم وقهره فلا يحل ذلك . وانما يجوز ذلك لاظهار الحق »[٩٣] .

هذا وقد نبه ابن خلدون الى أن الركود الفكرى الذى شاع فى بلاد المغرب فى القرن الرابع عشر الميلادى يرجع بالدرجة الأولى الى طريقة التدريس الرديئة التى آهملت المناقشة والمناظرة . يقول ابن خلدون : « وأيسر طرق هذه الملكة فتق اللسان بالمحاورة والمناظرة فى المسائل العلمية فهو الذى يقرب شأنها ويحصل مرامها ، فنجد طالب العلم منهم بعد ذهاب الكثير من أعمارهم فى ملازمة المجالس العلمية سكوتا لا ينطقون

---

(٩٢) المرجع السابق ص ١٣٧ (٩٣) المرجع السابق ، ص ١٣٨

ولا يفاوضون وعنايتهم أكثر من الحاجة فلا يحصلون على طائل من ملكة التصرف فى العلم والتعليم »[٩٤] . هذا فى الوقت الذى لمسنا فيه — من العرض السابق — أن التعليم والمدارس فى ظل النظام الديمقراطى قد اتخذت وسيلة لتزويد الطلاب بغذاء عقلى مسموم ، هدفه الدعايه لبعض الأنظمة الاستبدادية الجماعية ، كما حدث فى ألمانيا النازية وايطاليا الفاشية ، وحتى عند مكافحة الأمية ، لم يسلم الأمر من مقصد وهدف غير انسانى لا يمت الى الديمقراطية بصله ، لان تعميم التعليم ومحو الأمية كثيرا ما يتم فى حضانة النظم الاستبدادية .

من هنا فالمدارس التى تقدم التربية للصغار والكبار فى ظل الديمقراطية أغفلت فى معظمها المبادىء الأساسية للديمقراطية وخلت المناهج الدراسية من الصفات الحقيقية للديمقراطية[٩٥] .

وحين نفتش فى التربية فى ظل الاسلام نجد الصورة على النقيض تماما ، فحرية المتعلم مكفولة ، وأسئلته لأستاذه واردة ، بل ومخالفته فى الرأى جائزة ، والمناظرة مباحة .

وهذا هو الوجه الصحيح لبناء الشخصية الحرة التى يمكن أن تساهم فى تدعيم صرح المجتمع الحر البعيد عن عقد التحكم والاستعباد ، النزيه من العقد النفسية ، والمتخلص من الاتكالية ، والاحتكارية .

ولا نعدو الحقيقة والصواب اذا قلنا ان التربية الاسلامية حققت نماذج فى التعليم فاقت بكثير التربية الديمقراطية الحديثة .

ولقد استخدمت ثلاث قنوات فى التعليم ، تهدف جميعها الى بناء الفرد المسلم داخليا وخارجيا . هذه القنوات فى التعليم تضمن وتكفل تدعيم البناء الخلقى للفرد وهذه الطرق هى :

(ا) طريقة الارشاد والوعظ بأن نوضح للمتعلم الأمور النافعة والضارة ، ونعظه ونرشده للخير بطريق مباشر .

(ب) الأسلوب غير المباشر ، وفيه تطرح أمام التلاميذ الحكم والنصائح والقصص التى توحى ويشم منها قيم تربوية صحيحة .

(جـ) أسلوب المثال . بمعنى أن يكون المعلم قدوة للمتعلمين فى أخلاقه حتى يتأسوا به ويسيرون على منواله .

---

(٩٤) المرجع السابق ، ص ١٣٨

(٩٥) المرجع السابق ، ص ١٢ ، ١٣

هذا ، ولقد نبه الفلاسفة والمربون المسلمون على أهمية التربية بالمثال ، ونادوا بأن يكون مؤدب الأطفال متحليا بالفضيلة ، معروفا بالأخلاق النبيلة ، متجنبا للرذيلة •

وفى هذا المعنى قال عتبة بن أبى سفيان يوصى مؤدب ولده : « ليكن اصلاحك ابنى اصلاحك لنفسك فان عيونهم معقودة بعينك ، فالحسن عندهم ما استحسنت والقبيح ما استقبحت ••• » وبالمثل اوحى ابن سينا الفيلسوف الطبيب أن يكون مع الصبى فى مكتبه صبية حسنه آدابهم ، مرضية عاداتهم ، لأن الصبى عن الصبى ألقن وبه آنس »[96] •

ولقد عنيت التربية الاسلامية بتوفير اكبر قدر من مناخ الحرية للطلاب ، ويسرت لهم سبل العلم ووفرت لهم كل فرصة للتعليم من غير تفرقة بين غنى وفقير ، فالكل سواء فى طلب العلم •

كما نوه الاسلام بضرورة تطهير قلب المتعلم من الرذيلة ، فالتعليم والتعلم يعدان من العبادة ولا تصح العبادة الا مع طهارة القلب والتحلى بالأخلاق الكريمة كالصدق والأمانة والاخلاص والتواضع والتقوى والزهد والرضا والبعد عن الصفات الذميمة كالحقد والحسد والكبرياء والغش والفخر والخيلاء • وعلى المتعلم أن يتجمل بالفضيلة ولا يتباهى ويتفاخر أمام الناس وأن يثابر على تحصيل العلم ، وأن يتبادل الاحترام مع المدرسين وعليه أن يثابر فى طلب العلم فى جد ودأب وأن تسود علاقات المحبة بينه وبين زملائه واخوانه ، وأن يعود نفسه ويوطنها على طلب العلم[97] • واستمرارا مع مبدأ اتاحة الحرية للمتعلم ، حرص المربون من المسلمين على معرفة طبيعة الطفل ومزاجه قبل الاقدام على معاقبته ، وشجعوه على أن يشترك بنفسه فى اصلاح الخطأ الذى يأتيه ، بل ويتناسون أخطاءه بعد أن يصلحها •

وفى عقوبة الطفل قيدتها التربية الاسلامية بأمور هامة أساسها أنه ضرب تأديب لا ضرب ايذاء ، بل ويعطى الطفل فرصة أن يصلح خطأه دون اللجوء الى الضرب أو التشهير به[98] • ولقد صور الغزالى المعلم

---

(٩٦) محمد عطية الابراشى ، التربية الاسلامية وفلاسفتها ، مطبعة عيسى البابى الحلبى ، ط ٣ ، القاهرة ١٩٧٣ ، ص ١١٢ ، ١١٣

(٩٧) المرجع السابق ، ص ١٤٣ ، ١٤٤

(٩٨) المرجع السابق ، ص ١٥٠

كالطبيب ، والتلاميذ كالمرضى وعلى الطبيب أن يعرف نوع المرض وسن المريض ، وأن يعامل كل طفل المعاملة التى تصلح له وتناسبه ، وعليه أن يبحث فى الدافع على الخطأ ، وعن سن المخطىء ، كما يفرق بين الصغير والكبير فى التأديب ، بحيث يصف لكل فرد ما يلائمه .

هذا والغزالى ينبه دائما على البعــد عن الضرب والتوبيخ أمام الآخرين لأنه يؤدى الى فقد الثقة فى النفس ، بل المطلوب هو اعطاء فرصة للمتعلم أن يصلح نفسه حتى يشعر بالنتيجة . وليس هناك مانع أن يتشجع المتعلم الكفؤ بمكافأة ــ حتى ولو معنوية(٩٩) .

بهذا نتبين أن التركيز الأساسى فى مجال التربية الاسلامية هو اصلاح المتعلم خلقيا ، بحيث يستطيع أن يكون فردا فى المجتمع يشعر بشعوره ويتألم لآلامه ويساهم فى حل مشكلاته فى حرية كاملة وكفاءة تامــة .

***

رابعا ــ النتــائج :

١ ــ الحرية فى التربية والتى تنادى بها النظم الوضعية من شرقية وغربية دعوى مزيفة ظاهرها الرحمة وباطنها العذاب .

٢ ــ المظاهر السيئة والسلوك المنحرف دليلان قويان على فشل التربية الحديثة فى بناء الفرد السوى .

٣ ــ التناقض واضح بين أسلوب التلقين وكراهيته فى التعلم ، ففى الوقت الذى يوجه اللوم بشدة وعنف الى استخدام أسلوب التلقين فى التعليم يأتى حماة الديمقراطية ويخصصون قضايا معينة يستثنونها من الحكم تتعلق بأيديولوجية الجماعة وفلسفتها ويلقنونها للطلاب .

٤ ــ المثقفون من الشرقيين ممن انبهروا بالتربية الحديثة ، عليهم أن يراجعوا أنفسهم فسـيروا أن نظرهم لم يعد يمتــد الى ما وراء الحجب ، من سموم فتاكة تكمن وراء المذاهب الوضعية التى تريد الكيد للاسلام والمسلمين .

٥ ــ التربية الاسلامية مليئة بقيم تربوية صحيحة ، لأن مصدرها القرآن الكريم والسنة المطهرة .

---

(٩٩) المرجع السابق ، ص ١٥١ ، ١٥٢

٦ ــ التربية الاسلامية ، صانت الفرد ، وحققت له حرية ذات محورين ، داخلى وخارجى ، ولم تكن تلك التربية بحال من الاحــوال تتعارض مع طبيعة الكائن البشرى ، بل على العكس استمدت مقوماتها ومصادر قوتها من توافقها مع النفس الانسانية وايمانها بتحقيق متطلباتها القلبية والعقلية والبدنية والروحية والعاطفية والاجتماعية • قال تعالى : **((فأقم وجهك للدين حنيفا ، فطرة الله التى فطر الناس عليها ، لا تبديل لخلق الله ، ذلك الدين القيم ولكن أكثر الناس لا يعلمون))**(١٠٠) •

٧ ــ هناك ضــباب ران على عقــول وقلوب بعض من يكيدون للاسلام ، وصوروا نظامه التعليمى بأنه لا يرقى لمستوى مشكلات العصر الحاضر وأنه يحجر على الفــكر ويغلق باب الابتــكار والاختراع ، واستخدموا لذلك أقلامهم المسمومة ، بل وقد يصل الأمر الى احداث تغييرات فى برامج التعليم تتوافق مع هواهم ان استطاعوا الى ذلك ســبيلا •

٨ ــ الحاجة ماسة فى الآونة الأخيرة الى مراجعة قوية وصريحة لبرامج التعليم فى البلاد الاسلامية نتوخى فيها الصدق ونتحرى فيها الصواب ، بحيث تتجلى المسألة وتعود الأمور الى نصابها ، ويظهــر التعليم الاسلامى بثوبه الأبيض الناصع الذى ينادى بالحرية قولا وعملا وفكرا وتطبيقا •

٩ ــ جميع المؤسسات التربوية مسئولة مسئولية مبــاشرة عن محاربة هذه الوسائل الهدامة التى تزمجر علانية وتنادى بأعلى صوتها هلموا الى تربية حديثة فيها تحرير للفرد وبناء للمستقبل !!

١٠ ــ الآباء والأمهات عليهم أن يساهموا فى علاج أساليب التربية الخاطئة التى يمارسونها مع أبنائهم وبناتهم •

١١ ــ مطلوب عودة لاحياء التراث الاسلامى والفكر الاسلامى والنماذج الاسلامية التى تزخر ببطولات وملحمات نادرة بل وعزيزة فى عالم اليوم •



---

(١٠٠) الروم : ٣٠

الفصل الرابع

العلاقات الإنسانية والتربية

*** مشكلة البحث وأهميته :**

أى مجتمع فى أى زمان ، وفى أى مكان يتطلب نوعا من التربية . وهو فى هـــذا يسعى نحو الأفضل ، ويخطط لصـــورة مستقبلية للفرد وللمجتمع على السواء . ولا شك أن هذا يتطلب أهدافا معينة يقوم على تحديدها رجال التربية وفلاسفتها ، والمصلحون والمفكرون فى المجتمع .

واستمرارا فى السعى نحو تحقيق الأهـــداف التربوية ، تقـــوم الادارات التعليمية بتوجيه العملية التربوية ، فتصدر المناهج والنشرات التعليمية فى ظل النظم التربوية ، ثم تقوم المدرسة بتنفيذ تلك السياسات والبرامج التعليمية .

والمدرس هو العقل المنفذ ، لتحقيق تلك الأهداف ، فهو يقوم بأداء العملية التربوية مع تلاميذه ، ويقاس مدى تقدمها ونجاحها ، بمدى تقدمه ونجاحه فى الأداء .

وبهذا فالعملية التربوية (أى عملية تربوية) تمر بمراحل متعددة ، يكتنفها أفراد متعددون بدءا من رجل التربية المتخصص ، وانتهاء بالمعلم فى الفصل الذى ينفذ فيه مع تلاميذه العملية التربوية .

ومعنى ذلك أن التربية تحتاج الى اطار ينير لها الطريق ، ثم سياسة تعليمية تتضمن « مجمـــوعة من الأغراض المحـــددة تتميز بالترابط والتكامل »[1] وتأتى فى المرحلة الثـــالثة الاستراتيجية التربوية التى « تعنى الجهد المبذول من أجل الاختيار بين السبل والطرق المتعددة لبلوغ الأغراض التربوية التى تبلور بعض الأهداف النهائية »[2] .

---

(١) محمد الهادى عفيفى ، فى أصول التربية ، الأصول الفلسفية للتربية مكتبة الانجلو المصرية ، ١٩٧٨ ، ص ٥٨

(٢) المرجع السابق ، ص ٦٤

ويأتى بعد الاستراتيجية ، التخطيط التربوى ، الذى يعد بمثابة « جهد مبذول من أجل التحكم فى مستقبل نشاط أو مجموعة من الأنشطة ، ومحاولة توجيه حركة هذا النشاط أو مجموعة الأنشطة نحو مراميها أو الأهداف المحددة لها بقصد الوصول الى أقصى درجة من الانجاز والكفاءة »[٣] .

واذا كانت التربية (أى تربية) لابد وأن تشتق أهدافها من حياة الجماعة وحياة أفرادها ، فان العلاقات الانسانية بين أفراد الجماعة تلعب دورا أساسيا فى التطبيق التربوى لفلسفة الجماعة ومخططاتها التربوية .

ومهما اختلفت الآراء حول فلسفة الجماعة وأيديولوجيتها ، فان علاقة التربية لا بد وأن تدور فى فلكها عملا وتطبيقا أيا كان نوعها وشكلها .

واذا كانت الفلسفة تعنى فى رأى رجل الاقتصاد ، مفهوما يقوم على زيادة الانتاج وتحقيق التنمية الشاملة ، فان علاقة رجل التربية بهذا المفهوم وفى ظل تلك السياسة ، هو تزويد القطاعات المنتجة بالأفراد المؤهلين بشكل مهارى وكفؤ .

وحتى فى المجال السياسى ، فالعلاقة قائمة بين رجل السياسة الذى يريد تنظيم المجتمع على أساس من المشاركة الجماعية للجماهير فى اتخاذ القرارات وبين التربية ، حين تهدف الى اعداد الفرد الذى يتمكن من تنفيذ هدف رجل السياسة .

واذا صح أن فكرة الجماعة بجميع طوائفها ، تشكل الأنماط التربوية ، فلا غرابة أن تكون المشاركة والعلاقات الانسانية بين جميع العاملين فى تلك الطوائف أمرا حتميا ، مهما اختلفت أو تنوعت تلك الطوائف والمؤسسات ، سواء منها الاقتصادية أو السياسية أو غيرها ، ذلك أن المجتمع عبارة عن جماعة من البشر ، ينتمون الى مكان واحد وتجمعهم — فى الغالب — عادات وتقاليد ولغة مشتركة .

والعلاقات تضيق وتتسع وفقا لحجم الجماعة ضيقا واتساعا ، فالمجتمع الواسع ، يتسع فيه العمل ويكثر ، ويتنوع ويتشكل طبقا لظروف الأفراد وحاجة المجتمع ، وحين يضيق المجتمع يضيق العمل كما تتشابه أنواع العمالة فى غالب الأحيان .

---

(٣) المرجع السابق ، ص ٦٩

وعموما فأبسط صور الجماعة ، هى تلك التى توجد بينها ظروف متشابهة ، ولذلك فهى تشترك فى عادات وتقاليد ، وتتبادل المنافع بشكل مستمر يضمن للجماعة بقاءها ووجودها .

اذا صح كل ذلك ، فان دراسة العلاقات الانسانية تبرز كضرورة ملحة فى التطبيق التربوى ، خصوصا وقد قربت وسائط الاتصال المسموعة والمرئية والمكتوبة مضامين كثيرة تدور فى فلك العلاقات الانسانية . وقد بات علينا أن نفتش فى تراثنا ، نستمد منه الاطار الصحيح . فى رسم الأساليب القوية التى نحمى بها شبابنا ، ونبنى بها فلسفتنا التربوية فى ثوب يتناسب مع فكرنا الاسلامى ، ومناهجنا الاسلامية الصحيحة .

والواقع أن نظرة فاحصة فى مجتمعاتنا ، نلمح فيها قصورا واضحا من الاهتمام بالعلاقات العامة والانسانية ، وقد يأتى التبرير من قبل أقطاب الادارة والاقتصاد والاجتماع فى الدول النامية ومنها مجتمعاتنا ، أن الجمهور لا يستجيب للبرامج المخطط لها ، ليس لأنه لا يريد ولكن لأنه لا يدرى . ومن هنا نسمع هذا القول : « العلاقات العامة لمن » ؟

من هذا المنطلق اهتمت القيادات المسئولة عن الخطط والبرامج التنموية فى تلك الدول بالتخطيط والتنفيذ والتقييم بالنظام المركزى ، مع ادراكها بوجود الرأى العام تدريجيا وحصول التقدم فى مجال التربية والتعليم الذى يعتبر من أهم المقومات للتنمية الاقتصادية والاجتماعية .

ولا مندوحة من الاعتراف بأن الحكومات المركزية فى البلاد النامية تريد أن تحقق أفضل النتائج التنموية والانشائية فى أقصر مدة حتى تلحق بالدول المتقدمة . وربما يأتى تبرير تلك الحكومات لسلوكها فيما يتصل بمركزية التخطيط والتنفيذ والتقييم ، أنه لا توجد قطاعات هامة من الجمهور ، يمكن أن تتعاون معها ، بسبب وجود ألوان متعددة من الفقر والجهل والمرض . ومع ذلك فانه « ولحسن الحظ على أية حال أن نسبة الاعتراف بأهمية العلاقات العامة والاعلام الموجه تزيد تدريجيا وتسير جنبا الى جنب مع التقدم الذى تحققه الدول النامية فى المجالات التربوية والاقتصادية والاجتماعية »[٤] .

---

(٤) زكى راتب غوشة ، العلاقات العامة فى الادارة المعاصرة ، عمان الأردن ، ط ١ ، ١٩٨١ ، ص ١٨ ، ١٩

واذا كان الأمر كذلك ، فمما لا شك فيه أن العلاقات العامة عموما والعلاقات الانسانية على وجه الخصوص ، تشهد فى العصر الحاضر عنتا تسديدا ومعاناة فى كثير من المؤسسات فى المجتمع ومنها المؤسسات التربوية المقصودة وغير المقصودة ، والتى نلمح فيها قصورا ملحوظا فى هذا الجانب ، ناهيك عن الآثار التى تترتب على هذا القصور سواء على مستوى الفرد أو الجماعة .

من هنا جاءت أهمية هـذه الدراسة ، كمحاولة للكشف عن قيمة التطبيق التربوى للعلاقات الانسانية ومدى مساهمتها فى علاج الكثير من مشاكلنا التربوية .

* * *

* تساؤلات البحث :

أولا : ما مفهوم العلاقات الانسانية ؟ وما مظاهرها ؟ وما آثارها ؟

ثانيا : ما قيمة التطبيق التربوى للعلاقات الانسانية فى : (ا) مجال المدرسة ، (ب) مجال الأسرة ، (جـ) مجال المجتمع .

أولا ـــ العلاقات الانسانية :

١ ـــ مفهوم العلاقات على الاطلاق :

العلاقات العامة فى مفهومها المعاصر والشامل ، ان هى الا حصيلة التفاعلات الايجابية والسلبية ، بين الجمهور بمختلف طبقاته الاجتماعية والاقتصادية والادارة الحكومية .

والتفاعل ايجابا وسلبا يتوقف على مستوى التقدم العام فى الدولة ، فيمـا يتعلق بنسبة المتعلمين ، ومدى التقـدم القومى بكل جوانبه ، الاقتصادية والاجتماعية والسياسية والادارية والتكنولوجية . وهذا مؤداه أن الدولة كلما تقدمت ، تحقق المزيد من التفاعل الايجابى بين الجمهور واداراتها المختلفة(٥) .

والعلاقات العامة عموما ليست جديدة أو حديثة ، بل هى قديمة ومتأصلة فى القدم اذ يرجع تاريخها الى الامبراطوريات والدول القديمة التى عاصرت فترات من التاريخ الوسيط والحديث والمعاصر فى مختلف

---

(٥) زكى راتب غوشة . العلاقات العامة فى الادارة المعاصره . مرجع سابق ، ص ٣

قارات العالم . فمصر الفرعونية مثلا اهتمت بالعلاقات العامة ، كما اهتمت الامبراطورية الرومانية بقوة الرأى العام ، وأيضا اهتمت الادارة الاسلاميه باحترام حقوق الفرد . وكذلك اهتمت بقضايا العدل والخير وأمور القيادة وسياستها .

ونلمح كذلك أن الامبراطور نابليون ، طلب مساندة جمهوره الفرنسى لحملاته العسكرية المختلفة ، وغير ذلك كثير من الأمثلة التى تدعم وتؤكد العلاقة الوطيدة بين الدولة (أية دولة) وبين جمهورها فى ظل الاطار والنظام السياسى لتلك الدولة . نلمح ذلك عبر تاريخ الأمم منذ القدم حتى يومنا هذا[٦] .

وشأن العلاقات العامة ، أنها خادمة للجمهور ، هادفة الى تثقيفه وتبصيره ببرامج الدولة واتجاهاتها ، بما يتفق ومصلحة الفرد والصالح العام للجماعة .

والعلاقات العامة بذلك تدور فى فلك الاهتمامات والمجالات والمفاهيم والأفكار داخل كل مجتمع (أى مجتمع) بحيث تأتى العلاقات متوافقة مع المستويات الاقتصادية والاجتماعية . وأيضا مع العادات والتقاليد والقيم داخل المجتمع . لأن العلاقات تعكس المفاهيم والأفكار التى تدور داخل المجتمع[٧] .

ولعلنا بهذا ندرك أن العلاقات ينظر اليها من خلال المفهوم البيئى ، لأن طبيعة العلاقات لا تقتصر على الجانب الاقتصادى أو الاجتماعى ، بل ان لها علاقة بكل عناصر البيئة المحيطة بالمؤسسات داخل المجتمع . وهذا فى حد ذاته مبرر قوى ، ودعم أكيد لاختلاف وجهات النظر حول مفهوم العلاقات العامة التى لن تأتى فى النهاية الا صدى لما يعتمل داخل المجتمع ، وما يدور بين أفراده من اتجاهات وآراء .

وفى نظر الكاتب « مارشال ديموك » فان أساس العلاقات العامه يأتى فى القيم التى توجه العمل الحكومى وتجعله مستجيبا لمتطلبات واحتياجات الجمهور وأمانيه . ويقول « لورنس أبلى » : ان عمل المنظمة الادارية الذى يؤثر فى آراء جمهورها تجاهها هى العلاقات العامة . وأما وجهة نظر « جون مارستون » فان العلاقات العامة تعتبر وظيفة هامة من وظائف الادارة معنية بتحليل سلوك الجمهور لمعرفة اتجاهاته واحتياجاته . والعمل على وضع البرامج التى تتفق مع الصالح العام فى مقابلة هذه الاحتياجات .

---

(٦) المرجع السابق ، ص ٤   (٧) المرجع السابق ، ص ١ .

ولعل هذه التعريفات تشير جميعها الى آن الجمهور العام آو المباشر ثم جمهور الموظفين هى محل التركيز ، ومناط الاهتمام ، من حيث المضمون الجوهرى لمفهوم العلاقات[8] •

ومما لا شك فيه آن علاقات الأفراد تتغير « حسب تغير المجتمع وهذا شىء واضح يحدث فى كل المجتمعات • فالمجتمعات البدائية مثلا تقوم علاقة الأفراد فيها على مقدار ما تجمعهم رابطة دم أو نسب أو علاقات عائلية وقبلية أخرى • أما فى المجتمع الرأسمالى الصناعى مثلا فعلاقات الأفراد تتحدد حسب ما يجمع الأفراد من عمل صناعى مشترك • ولا دخل للعلاقات العائلية أو النسبية فى تحديد علاقة الأفراد بعضهم ببعض »[9] •

والمغزى الرئيسى للعلاقات ، هو محاولة استثمار العقل الجمعى والتفكير الانسانى فى صنع القرار ، بحيث يأتى القرار مدروسا من جميع النواحى الطبيعية المحيطة به دراسة عملية للوصول الى قرار سليم وواضح[10] •

ومن العوامل التى تؤثر فى علاقات الأفراد وفى صنع القرار ، حجم المجتمع وعدد سكانه ، فالمجتمع القليل السكان ، الصغير الحجم ، تتضاءل العلاقات فيه سواء فى داخل المجتمع آو خارجه مع مجتمع آخر ، بمعنى أن التفاعل يتسم بعدم الفعالية ، كما يتسم بالسطحية ، وبالتالى تكون نتيجة تلك العلاقات ضعيفة وقليلة بالمقارنة مع مجتمعات آخرى كبيرة فى مساحتها ، وفى عدد سكانها ، لأن زيادة السكان تحتم نوعا من العلاقات بتوافق مع المستوى الاقتصادى لذلك المجتمع ، فالمجتمع الذى يتسم بالانفجار السكانى ، وموارده الاقتصادية ضعيفة ، تنعكس تلك الصورة على علاقة الأفراد فتصبح أيضا ضعيفة • أما المجتمع الذى يتمتع باقتصاد قوى فعلاقة أفراده تكون أيضا قوية[11] •

وهذه النظرية فى العلاقات تعتمد على آن الغنى والانتاج والتجارة لها أهمية كبيرة فى تحديد علاقة الأفراد ، وقد آكد ذلك « تيوسيدس » فى كتابه عن حرب « البولبنيز » •

---

(٨) المرجع السابق ، ص ١ ، ٢

(٩) أحمد جمال طاهر ، نظريات فى العلاقات العامة . دار الشروق • جدة ، ط ١٩٧٨ ، ص ١٢٣

(١٠) المرجع السابق ، ص ١٢٤

(١١) المرجع السابق ، ص ١٢٨ ، ١٢٩

هذا ولا يمكن لكائن من كان أن ينكر ما للاقتصاد والحياة المعيشية من أهمية فى توجيه سلوك الأفراد ، فمن أجل أن يحيا الانسان لابد أن يأكل ، وحتى يأكل لابد له أن يعمل . وعلى ذلك « فعوامل الانتاج والتوزيع والعمـل عوامل رئيسية فى حياة الأفراد وعلاقتهم ببعضهم البعض ، لم ينص على ذلك الفـلاسفة فقط ، بل أكدتهـا الكتب السماوية »[١٢] قال تعالى : ((**فامشوا فى مناكبها وكلوا من رزقه ، واليه النشور**))[١٣] وقال سبحانه : ((**فاذا قضيت الصلاة فانتشروا فى الأرض وابتغوا من فضل الله واذكروا الله كثيرا لعلكم تفلحون**))[١٤] .

ولكن اذا سلمنا بأهمية الاقتصاد فى تحديد علاقات الأفراد بين بعضهم البعض ، فهل يعنى ذلك الاكتفاء بهذا العنصر فقط ؟ الواقع أنه على الرغم من أهمية العنصر الاقتصادى فى تحديد العلاقات بين الأفراد ، الا أن هناك عناصر أخرى ، لا تقل أهمية عن الاقتصاد ، بل انها تحتل الأهمية عنه . « فالدين مثلا عنصر هام جدا بل هو العنصر الأساسى فى تحديد علاقات الأفراد وليس الاقتصاد . حقا ان أحدا لا يغالى اذا قال ان الدين لا يحدد علاقات الأفراد فحسب ، ولكنه يحدد أيضا الاقتصاد والانتاج والتطور والاختراعات »[١٥] .

واذا كان الدين له تلك الأهمية فى تحديد العلاقات ، فان الدين الاسلامى لم يقتصر فى تشريعه على جانب العبادات ، من صلاة أو صيام أو زكاة أو حج ، بل نظم الاسلام كافة أنواع السلوك الانسانى فيما يتعلق بعلاقة الفرد بالفرد ، والفرد بالمجتمع ، وعلاقة الحاكم بأفراد الشعب وعلاقة الدولة الاسلامية بالدول الأخرى فى السلم أو الحرب . وأخيرا وأولا علاقة هؤلاء جميعا بالله رب العالمين .

نظم الاسلام كل هذه العلاقات تنظيما دقيقا لم ترق اليه النظم الوضعية ، أو المبادىء الانسانية التى وضعها البشر ، فبين كل أنواع الحقوق والواجبات ، سواء ما كان منها متصلا بعلاقة الأفراد أو علاقة الدول[١٦] .

---

(١٢) المرجع السابق ، ص ١٣٤ (١٣) الملك : ١٥

(١٤) الجمعة : ١٠

(١٥) أحمد جمال ظاهر ، نظريات فى العلاقات العامة . مرجع سابق ، ص ١٣٧

(١٦) محمد رأفت عثمان ، الحقوق والواجبات والعلاقات الدولية فى الاسلام . مطبعة السعاده ، ط ٢ ، القاهرة ١٣٩٥ هـ / ١٩٧٥ م ، ص ٣

واذا كان الاسلام قد نظم تلك العلاقة ، فى ظل العدل والمساواة ، فانه يكون بذلك قد غض الطرف عن الأحساب والأنساب ، فالكل متساو فى الحقوق والواجبات « **أن أكرمكم عنـــد الله أتقاكم ، أن الله عليم خبير** »[17] ، هذا بينما نجد أن المجتمعات المتقدمة كالولايات المتحدة الأمريكية مثلا تعلى من شأن النظرة الاقتصادية ، بل وتبنى عليهـا النظرة الاجتماعية ، والعلاقات الانسانية . وليس هناك معيار للفرد سواء فى المدرسة أو فى البيت أو فى غيرهما الا بمقدار ما يحصله من مال . فالأفراد هناك يتعلمون مثلا أن « الأمانة هى أفضل السياسات » « أن تدخر قرشا معناه أنك تملك قرشا » « الوقت من ذهب » « الفضيلة أن تعمل وهذا صحيح ونافع وجيد ويمكنك أن تدخر للمستقبل »[18] ... وهكذا .

بيد أننا لو عدنا الى الاسلام لوجدناه « يربى الانسان كانسان بصرف النظر عن البيئة التى ينتمى اليها ، وبصرف النظر عن الأسرة التى استمد منها مقومات حياته ، وبهذا يكون الاسلام قد غض الطرف عن الأحساب والأنساب والغنى والفقر ، ووضع مصلحة الانسان بالدرجة الأولى يربيه ، ويسعى فى ذلك فى مساواة كاملة وفى عدالة تامة .

ومما يدعم هذه الأدلة ، أننا نلمح فى هذا القرن العشرين ، والذى ارتقت فيه الحياة المـادية ، ووصلت الى ذروتها من جراء الفكر المعاصر أن الانسانية لم تنعم بعد بثمرة هذا الرقى وذلك التقدم ، حيث ان التركيز كان بالدرجة الأولى ينحو الى الجانب المـادى فقط ، مما ترتب عليه اختفاء القيم الأصيلة والروابط الأسرية والاجتمـاعية وانتشار الأمراض النفسية »[19] .

ومما يلوح أن النظرة الاقتصادية المـادية ، لم تحقق بعد اطارا سليما للعلاقات ، مما حدا ببعض المفكرين أن يجعل النظرية الايديولوجية

---

(١٧) الحجرات : ١٣

(١٨) أحمد جمال طاهر . نظريات فى العلاقات العامة . مرجع سابق ، ص ١٣٩

(١٩) محمد على المرصفى . « نظرة عامة حول التربية الاسلامية » ص ٣٩ ، ٤٠ . مجلة كلية التربية ، جامعة أم القرى بمكة المكرمة . العدد الثامن . محرم ١٤٠٢ هـ .

تلعب دورا لا يقل أهميه عن دور النظرية الاقتصاديه أو غيرها من النظريات فى علاقة الأفراد بعضهم ببعض[20] .

وفى ضوء تلك القاعده ، وفى اطار تسليمنا بها ، فان الدين الاسلامى يعتبر ارقى الفلسفات والنظريات والايديولوجيات على الاطلاق ، ذلك لأنه الدين الوحيد . الذى حفظ من التحريف والتبديل والتغيير والتعديل . وتضمن فى كل مراحله عوامل تحقيق السعادة لبنى البشر على الاطلاق — طالما تمسكوا بمنهج الاسلام قولا وعملا — فى جميع المجالات الاجتماعية والاقتصادية والثقافية والتربويه .

كما أولى الاسلام العلاقات بين الأفراد عنايه خاصة لتحقيق الألفه والمودة على أوسع نطاق اجتماعى يتصوره بشر . قال تعالى : **« يا أيها الناس انا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا ، أن أكرمكم عند الله أتقاكم ، ان الله عليم خبير »**[21] .

ومن هذا المنطلق فالاسلام « يبنى المجتمع المسلم القائم على احترام العلاقات بين الأفراد . والمجتمع الاسلامى هو مجتمع انسانى : يدعو الى الروابط الانسانية بين الأفراد فى الدرجة الأولى ... كما يدعو الى تبادل المصالح المادية ، ولكن فى محيط العلاقات الانسانية »[22] .

٢ — مفهوم العلاقات الانسانية :

على الرغم من الأهمية القصوى للعلاقات الانسانية فى شتى المجالات . سواء منها المرتبطة بالانتاج أو الخدمات ، أقول على الرغم من ذلك . فان التركيز منذ وقت مبكر كان — على الأقل فى قطاع الانتاج — يولى أهمية كبرى للعلاقات الانسانية فى محيط الجانب الحسى للعمل فقط . على أساس اختيار الآلات المناسبة للعمل ، وضرورة صيانتها ، وعلى أساس تنظيم العمل بالطريقة الصحيحة التى تكفل الزيادة فى الانتاج .

هذا بينما لم يحظ المحيط النفسى للعمل والعلاقات الانسانية بأهمية تذكر . الأمر الذى ترتب عليه زيادة معدل الغياب وكثرة الشكاوى ،

---

(٢٠) احمد جمال ظاهر . نظريات فى العلاقات العامة . مرجع سابق ، ص ١٤١

(٢١) الحجرات : ١٣

(٢٢) محمد على المرصفى « نظرة عامة حول التربية الاسلامية » مرجع سابق ، ص ٤١

وضعف الانتـاج ، وقد يصل الأمر الى حـد الامتنـاع عن العمـل أو تعطيله [٢٣] .

ولعل هذا هو السبب الذى من أجله قامت مجموعة من الدراسات ، التى أولت اهتماما ملحوظا ، وعناية خاصة للعلاقات الانسانية . وقد بدأت هذه الحركه بتجربة « هوثورن » The Taw Thorne Experiment فى أمريكا وقد أشرف على تنفيذ هذه الدراسة مجموعة من علماء النفس والاجتماع وعلى رأسهم « ألتون مايو » فى شركه هوثورن ويسترن اليكتريك بشيكاغو . وكان ذلك ما بين ١٩٢٧ — ١٩٣٢ . وكان هؤلاء العلماء قد تلقوا طلبا من تلك الشركة بدراسة ظاهرة التمرد وعـدم الرضا عن العمل بين ثلاثين ألفا من عمال الشركة . هذا بينما سبقتهم « مارى باركر فوليت » (Mary Parker Follet) (١٨٦٨ — ١٩٣٣) فتعد أول من اهتم بدراسة العلاقات الانسانية فى الادارة .

أول من اهتم بدراسة العلاقات الانسانية فى الادارة .

وأيا ما كان الأمر ، فان تجربة « هوثورن » أدت الى استخدام بعض الوسائل لتخفيف حدة التوتر بين العمال ورفع معدل الانتـاج وتنظيم ساعات العمل وأوقات الراحة وتركيز الاضاءة ، وغيرها من العوامل المكانية التى تسهم فى زيادة معدل الانتاج . وقد اعتمـدت تلك التجربة على فروض « تيلور » التى نادت بأن تقييم مدى كفاءة العامل لابد أن تتم بطريقة علمية ، وأن الكفاءة تعتمد على التخلص من الجهد الضائع . لذلك لم يعد ينظر الى العامل على أنه امتداد للآلة ، وانمـا على أسـاس أنه كائن حى معقـد له حاجاته النفسية والاجتماعية والشخصية .

وعموما فلقد نتج عن تجربة « هوثورن » نتائج متعددة منها :

(ا) أن المعايير الاجتماعية وليس الطاقة البدنية أو الجسمية ، تحدد مستوى الانتاج .

(ب) استجابة العاملين للادارة لا يتم بشكل فردى ، وانما بشكل أعضاء فى مجموعات .

(ج) القيادة لا تتركز فقط فى الرئيس الرسمى للمجموعة ، وانما قد تكون فى شخص آخر من بين المجموعة يمارس سلطة القيادة بصفة غير رسمية .

---

(٢٣) عبد الرحمن عبد الباقى عمر . العلاقات الانسانية . مكتبة عين شمس . القاهره ١٩٨٠ ، ص ١٣

(د) أن اشراك المرؤوسين مهم فى اتخاذ القرار لا سيما اذا تعلق القرار بهم بصورة مباشرة .

(هـ) أفضل أنماط القيادة تلك التى تشرك الجميع ، وتتسم بالعدل ودراسة المشكلات بين العاملين ، وتلك هى القيادة الديمقراطية(٢٤) .

ومع أنه يوجد عدة معان يستخدم فيها مفهوم العلاقات الانسانية ، الا أنه يمكن فى ضوء ما تقدم ، تحديد مفهوم العلاقات الانسانية فى مجال الادارة على أنها ادماج الأفراد فى موقف من العمـل بطريقة تحفزهم الى بذل الجهد معا لتحقيق أكبر انتاجية مع تحقيق التعاون بينهم واشباع حاجاتهم الاقتصادية والنفسية والاجتماعيه(٢٥) .

ولعل الهدف الأساسى من وراء ذلك هو التركيز على السلوك الذى يقصد به « عملية تنشيط واقع الأفراد فى موقف معين مع تحقيق توازن بين رضائهم النفسى وتحقيق الأهداف المرغوبة »(٢٦) .

ولعل ذلك المفهوم ينسحب على العلاقات الانسانية داخل أية جماعة فى موقع عمل واحد ، وفى مؤسسة واحدة ، سواء أكانت هذه المؤسسة تتصل بالانتاج أو بالخدمات ، ذلك أن الأفراد طالمـا تواجدوا فى مكان واحد ، فلا بد حتما أنهم يشكلون فيما بينهم مجموعة من العلاقات ، تتعدى محيطهم الى الرؤساء والمشرفين والمتعاملين معهم .

وليس هناك شك أن عدم التوافق أو التكيف لجماعة ما فى مؤسسة واحـدة ، يرجع أصلا الى اضطراب تلك العـلاقات وعدم اتزانها وتعاونهـا(٢٧) .

من هنا أصبح التعريف بمفهوم العلاقات الانسانية ضرورة فى هذا العصر الذى عز فيه « التمييز بين العلاقات الانسانية بألوانها المختلفة ، فقد عز التمييز بين التسلط والاقناع ، وبين التبعية والاقتناع ، وبين الاعـلام والدعاية ، وبين التعليم والتلقين ، وبين التربية وغسـل

---

(٢٤) محمد منير مرسى . الادارة التعليمية ، أصولها وتطبيقاتها . عالم الكتب ، ط ٢ ، ١٩٧٧ ، ص ٧٩ ، ٨٠

(٢٥) عبد الرحمن عبد الباقى عمر . العلاقات الانسانية . مرجع سابق ص ٧

(٢٦) محمد منير مرسى . الادارة التعليمية ، أصولها وتطبيقاتها . مرجع سابق ، ص ٨٠

(٢٧) المرجع السابق ، ص ٢٠٩

الأدمغة ، وبين رفع الشعارات والايمـــان العميق بها - وبين السلطة والقيادة ، وبين التحكم والادارة »[٢٨] .

والواقع أن هذه الملابسات كلها . لها مدلولات خطيرة . لأن كل مؤسسة تحاول أن تبحث لها عن مخرج ، تبرر به أهدافها : وربما يصل هذا التبرير الى حد اجهاض الحقيقة ، والشك فى مفهوم القيم . خصوصا اذا اختلطت المفاهيم أمام الانسان ، وشاهد آثارا ايجابية لعلاقات انسانية ملوثة ، كأن يرفع من هم أدنى فى المستوى بشكل مفاجىء ، مما يجعل الآخرين تهتز معاييرهم حول مفهوم العلاقات الانسانية مما يضطر البعض منهم الى تكوين رأى ما حول أسلوب أو مفهوم العلاقات الانســـانية .

بيد أننا لو نظرنا فى كل الدساتير الدولية ، ومن قبلها ومن بعدها فى كل الكتب والديانات السماوية ، لوجدنا أن التوصية دائما تدور حول البناء الأمثل للعلاقات الانسانية ، والقدوة الصالحة ، فى سبيل أن تزيد ثقة الانسان فى قيادته ، وبالتالى تزداد ثقته فى عمله ، مما يحقق انتاجا أكبر ، وثروة أوسع . ولم يكن محمد صلى الله عليه وسلم ، ليستطيع أن يقود أمة ، تناحرت وتقاتلت وشاعت فيها الفوضى الى حد كاد أن يهلكها . لولا عمق الثقة التى حظى بها فى قومه ، الى الحد الذى جعل الكثيرين من المسلمين يتفانون فى سبيل الدعوة ، ويبذلون من أجلها مهجهم ، نتيجة الثقة المتبادلة بينهم وبين قائدهم ، ونتيجة الحكمة ، والموعظة الحسنة ، والتواصى بالحق ، والتواصى بالصبر التى هى ركائز العلاقات الانسانية ومحور بنائها .

هذا ولقد كان الصدق فى القول ، والثقة بالنفس ، والوفاء بالموعد ، والأسس السليمة للعلاقات الانسانية ، كانت كلها من دعائم التوفيق والنجاح الذى حالف الرسول صلى الله عليه وسلم فى دعوته ، بل وحتى قبل أن ينزل عليه الوحى ، فلقد تاجر فى مال خديجة أم المؤمنين رضى الله عنها ، فزاد مالها وتضاعفت ثروتها : فى ظل الثقة المتبادلة بين القيادة والعامل ، أو بين صاحب العمل والعامل .

واذا لمحنا هذا فى الاسلام ، فاننا أيضا نلمح أن عيسى عليه السلام كان يقول : « ... كل شجرة تثمر ثمرا جيدا ، والشجرة الفاسدة تثمر

---

(٢٨) عبد العزيز القوصى . مقدمة لكتاب : الانسان وسلوكه الاجتماعى . تأليف سيد صبحى . دار مرجان للطباعة . ط ٢ ، القاهرة ١٩٧٩ : ص ٦

ثمرا رديا ، لا تستطيع شجرة صالحة أن تثمر ثمرا رديا ، ولا شجرة فاسدة أن تثمر ثمرا جيدا • كل شجرة لا تثمر ثمرا جيدا تقطع وتلقى فى النار • فمن ثمارهم تعرفونهم »(٢٩) •

هذا واذا كانت العلاقات الانسانية لها أهمية فى ميادين الانتاج ومواقع العمل فان هذه الأهمية تزداد بالنسبة لميدان التربية والتعليم ، بجميع جوانبه الادارية والأكاديمية ، لأن مجال التعليم يتكون ويتشكل فى معظمه من العناصر الانسانية ، لان الخامة التى يتعامل معها هى كذلك خامة بشريه انسانية • « ومن هنا تصبح مسألة تكوين علاقات انسانية نشطه عملية على جانب كبير من الأهمية لهذا الميدان • وينسحب ذلك بالطبع على كل الفئات البشرية المكونة لهذا الميدان سواء أكانوا تلاميذ أو معلمين أو مشرفين أو رؤساء أو مديرين • ولا تقتصر هذه العلاقات على العلاقات الداخلية للفئة الواحدة ، وانما تشمل أيضا علاقاتها الخارجية ، مع الفئات الأخرى • ومن هنا ندرك مدى تعقد العلاقات الانسانية وتعدد اتجاهاتها فى هذا الميدان »(٣٠) •

* * *

ثانيا — التطبيق التربوى للعلاقات الانسانية :

اذا كانت التربية فى أساسها مجهودا اجتماعيا يقوم به المجتمع ، وينفق عليه من الأموال العامة ، واذا كان الفرد والجماعة التى ينتمى اليها هذا الفرد ويتفاعل بها هما مادة التربية ، اذا كان ذلك كذلك فلا يسوغ لنا أن ننظر الى الفرد فى حد ذاته كفرد ، ولا أن ننظر الى المجتمع الذى يتفاعل معه هذا الفرد فقط ، ولكن ينبغى أن ننظر اليهما معا ، ونبحث فى مجموعة الحقائق والعلاقات الانسانية التى تربطهما جميعا ، لأن اكتساب أنماط السلوك والمعرفة ، وتكوين الاتجاهات والميول ، تتكون أصلا نتيجة الخبرات التى اكتشفتها الجماعة واكتسبتها أثناء معركتها مع البيئة الطبيعية والاجتماعية •

ولا مندوحة والأمر كذلك ، أن تحتل العلاقات الانسانية ، أهمية

---

(٢٩) سيد صبحى • الانسان وسلوكه الاجتماعى • مرجع سابق ، ص ١٠

(٣٠) محمد منير مرسى • الاداره التعليمية ، أصولها وتطبيقاتها • مرجع سابق • ص ٢١٠

رئيسية فى تهيئة الجو والمناخ الصحى لاكتساب الانسان هذه الخبرات التراكمية ، التى توفرت للانسانية عبر تاريخها الطويل ، ذلك أن التربية لا تقتصر فقط على المؤسسات التعليمية المقصودة كالمدرسة والجامعة ، وانما تتسع دائرتها لتشمل المجتمع كله • يقول « جون ستيوارت ميل » فى خطبة له ألقاها فى كلية سانت أندروز : « ان عملية التربية لا تشمل فقط كل ما نعمله لأنفسنا ، أو يعمله الآخرون لنا ، بقصد تنشئتنا وتقريبنا من درجة الكمال بقدر المستطاع ولكنها فوق ذلك تشمل الآثار غير المباشرة التى تؤثر فى أخلاقنا وطباعنا ومواهبنا الانسانية : مثل القانون ، ونظم الحكم ، والفنون الصناعية ، والنظم الاجتماعية ، بل انها تشمل أيضا آثار البيئة الطبيعية التى لا تتوقف على الارادة البشرية ، من عوامل الجو ، والتربة والموقع الجغرافى ؟ فكل ما يساعد على صقل الفرد ، واخراجه بالشكل الذى ينتهى اليه جزء من التربية »(٣١) •

ولما كان التعليم يهدف الى تلقين المعلومات ، واكساب المهارات ، بقصد تعديل النمو عند الفرد المتعلم ، وهو بهذا جزء من التربية ، ولما كانت التربية تستمد مقوماتها من جانبين رئيسيين : يمثل أحدهما المدرسة والآخر المجتمع بجميع مؤسساته الدينية والاجتماعية ، لما كان الأمر كذلك ، بات لزاما أن نناقش العلاقات الانسانية فى ظل النظام التعليمى المقصود « المدرسة » وفى ظل فلسفة الجماعة وأيديولوجيتها التربوية •

ولما كان الدين هو أعلى الفلسفات على الاطلاق ، لأنه ملىء بالحديث عن أثر العلاقات الانسانية فى تهذيب النفس ، وتنشئة الانسان على مبادىء الحق والخير والجمال لما كان الأمر كذلك ، فلا مناص من دراسة العلاقات الانسانية فى مجال المدرسة كمنظمة تربوية مقصودة أقامها المجتمع وأنفق عليها من أمواله ، وكذلك مناقشة العلاقات الانسانية فى كل من الأسرة والحياة الاجتماعية ، فى ظل المبادىء الدينية والنظام الاجتماعى الذى أقرته الجماعة ورضى به الأفراد •

***

---

(٣١) جيمس س. دوس • الأسس العامة لنظريات التربية • ترجمة صالح عبد العزيز وآخرون • مكتبة النهضة المصرية • بدون تاريخ • ص ٩

* المدرسة والعلاقات الانسانية :

ما من شك فى أن توفر قدر من العلاقات الانسانية السليمة فى جو المدرسه ، سوف يكون حافزا ايجابيا للعمل ، ولدرجة الاقبال عليه ، فناظر المدرسة الذى يتوفر لديه مناخ صحى ، تحكمه العلاقات الانسانية الطيبة . سيقبل على العمل بروح طيبة ، ينعكس آثره على أسرة المدرسة جميعا ، بما فيهم المعلمين ، الذين سيبذلون المزيد من الجهد ، فى سبيل نجاح العملية التعليمية .

وعلى العكس من ذلك حين يسود المدرسة جو من الركود فى العلاقات الانسانية ، فان هذا ينعكس على عزوف بعض المدرسين عن العمل ، وانعدام الرغبة أو الميل فيه .

وهكذا بمقدار ما يتوفر الجو المناسب والعلاقات الانسانية السليمة ، والمعاملة الطيبة ، والقدر الأنسب من الكرامة ، بقدر ما يزداد الحرص من كل العاملين بالمدرسة على العمل ، بل وتزداد رغبتهم وميلهم الى حب المدرسة وتقدير دورها فى المجتمع .

والحوافز الايجابية وخصوصا المعنوية منها ، تلعب دورها فى تحقيق الانسجام والاتزان فى العلاقات الانسانية ، « فالكلمات الطيبة المتبادلة والتشجيع والاستحسان والامتداح والتقدير وعبارات المجاملة ، كلها وسائل هامة فى ارساء قواعد العلاقات الانسانية السليمة »[٣٢] .

من هنا فان المناخ والجو العام لتنظيم المدرسة ، وشعور المدرس واحساسه نحوها . وتوفير التنظيم الاجتماعى ، والعلاقات الانسانية السليمة ، كل ذلك أهم بكثير من الجانب الادارى البحت ، كما أشارت الى ذلك الدراسة التى قام بها « كورنل » (Cornell)[٣٣] .

١ ــ العلاقات الانسانية بين المدير والمتعلمين بالمدرسة :

لا شك أن للعلاقات الانسانية دور هام فى أنماط الادارة الناجحة ، لا سيما فى ميدان التعليم والخدمات الاجتماعية ، لأن الادارة الناجحة هى التى تحظى بتقدير الآخرين ، كما تستطيع أن تلهمهم وتستفيد بأحسن ما لديهم ، كأفراد وجماعات فى تعاون مثمر وفعال . هذا فى الوقت الذى يتم فيه تقدير المجدين ، والاعتراف لهم بالفضل والثناء .

---

(٣٢) محمد منير مرسى . الادارة التعليمية ، أصولها وتطبيقاتها . مرجع سابق ، ص ٢١٠

(٣٣) المرجع السابق ، ص ٨١

ففي دراسة قام بها « جريفث (Griffiths) وجـد أن ناظر المدرسة الناجح هو الناظر الذى يتبع طريقة ديمقراطية فى ادارة المدرسة وهو الذى يحل مشاكل العاملين وهو الذى يعطى سلطات للآخرين »[٣٤] .

وفى ضوء ذلك فان اعطاء سلطات للآخرين . لا يقلل من نجاح القيادة التربوية السليمة ، لأن مفهوم الدور والمسئولية الصحيحة للقيادة يرتبط ارتباطا وثيقا بنمط الشخصية ، مضافا اليها المهارات الادارية اللازمة لرجل الادارة الناجح ، فالقيادة ليست عملية جامدة . وانما هى عملية ديناميكية حية يمكن من خلالها القيام بالأدوار المختلفة وفقـا لمقتضيات الموقف .

والقائد الناجح هو الذى يعرف ارتباط الوسائل بالغايات . ويلعب دوره على مستوى التخطيط والتنفيذ ، بحيث يدفع العمل الى الأمام مطورا فى أساليبه ومجددا فيها ، بما لا يتعارض مع سياسة العمل أو تحويل اتجاهه ، بما قد يترتب عليه انهيار العمل ذاته . ورجل الادارة الناجح أيضا ، هو الذى يتمتع بنفوذ شخصى مع العاملين معه . بحيث تكون له سلطة غير رسمية ، يستمد منها قوة تأثير تساعده على ممارسة القيادة الناجحة فى المؤسسة التى يعمل بها[٣٥] .

وهناك ثلاثة جوانب لمدير المدرسة أن يمارسها وهى :

(ا) الجانب الادارى .

(ب) الجانب الاجتماعى .

(جـ) الجانب العلمى والتربوى .

ولعلنا نلمح دائما أن كثيرا من المديرين ، ينفقون وقتا أكثر للجانب الادارى ، ويكون ذلك على حساب المستوى العلمى بالمدرسة . بيد أن مدير المدرسة لو وعى تماما الكيفية الممارسة الديمقراطية لسلطته ، لكفى نفسه كثيرا من المعاناة فى الأعمال الادارية ، وذلك بتوزيعها على الموظفين وبعض المعلمين ، بالمدرسة ، بحيث يتيح لنفسه فرصة أوسع . لمباشرة مهامه فيما يتصل بالجانب العلمى بالمدرسة .

وعموما فمدير المدرسة مسئول عن الأنشطة الآتية . سواء مارسها بنفسه أو فوض غيره فى تنفيذها وتلك هى :

١ ـــ الاشراف على النشاط المتصل بالمناهج وعلى عمل المدرسين بالفصـــول .

---

(٣٤) المرجع السابق .

(٣٥) المرجع السابق ص ٨٦

٢ — مناقشة المدرسين والطلاب فيما يتصل بأعمالهم وببرنامج المدرسة .

٣ — الالمام بالتطورات الحديثة التربوية فى التعليم(٣٦) .

هذا بالاضافة الى مهام ادارية كثيرة لا بد أن يباشر الاشراف عليها ، ويقدم اقتراحاته ومجهوداته بخصوصها .

ويتضح من ذلك أن المهام الموكلة لمدير المدرسة تتصل بجميع القوى البشرية الموجودة بالمدرسة ، وبالادارة التعليمية . من هنا برزت أهمية العلاقات الانسانية فى القيادة كمميز أساسى لانجاز العملية التعليمية بنجاح . ويعتقد « هالبين » (Halpin) أن القائد المؤثر هو ذلك الذى يرسم بوضوح العلاقة بينه وبين أعضاء الجماعة ، ويقيم أنماطا جيده للمؤسسة التى ينتمى اليها ، متضمنة قنوات للاتصال . وفى نفس الوقت يعكس سلوكه روح الصداقة والثقة المتبادلة ، والاحترام والدفء فى علاقته بالجماعة(٣٧) .

وأيا ما كان الأمر ، فالمهارة فى أداء العمل بسرعة ودقة ، وتنمية تلك المهارة من خلال الخبرات والممارسات والتجارب ، كلها عوامل رئيسية لنجاح مدير المدرسة .

وتوجد تصنيفات للقيادة ، وأنماط متعددة لها ، يهمنا منها فى هذا المجال ثلاثة أنواع من القيادة : هى القيادة الديمقراطية ، والتسلطية ، ثم الترسلية .

(أ) القيادة الديمقراطية : وتقوم على أساس احترام الفرد ، وتوفير مناخ الحرية والاقناع والاقتناع ، بحيث يأتى القرار النهائى للأغلبية دون تسلط أو خوف أو ارهاب . والقائد الديمقراطى هو من يشجع الآخرين ويقترح ، لكنه لا يملى رأيا ولا يرفضه ، بل يترك لغيره حرية اتخاذ القرار ، واقتراح البدائل والحلول ، وهو الذى يراعى رغبات الآخرين ومطالبهم . لذلك يرتبط هذا النوع من القيادة ، بالقيادة المؤسسة على العلاقات الانسانية ، والتى تجعل الفرد غاية فى ذاته له احترامه وكرامته ، هذا مع اعتبار أن هوية الآخرين متوفرة ، فى ظل الحقوق

---

(٣٦) لمزيد من معرفة المهام الموكلة الى مدير المدرسة يرجع الى : حسن مصطفى وآخرون . اتجاهات جديدة فى الادارة المدرسية . مكتبة الأنجلو المصرية . ط ٤ ، القاهرة ١٩٨٢ ، ص ٧٢ ، ٧٨ .

(٣٧) Olive Banks, The Sociology of Education. B. T. Batsford LTD. Third edition. London, 1976, p. 197.

والامتيازات المكفولة لكل فرد ، فالجميع متســاوون أمام القــانون ، ومتساوون فى جميع المزايا الاجتماعيه[٣٧] •

(ب) **القيادة التسلطية** : وقوامها الاستبداد بالرأى ، واستخدام أساليب الفرض والارغام والارهاب والتخويف وعدم السماح بالمناقشة والتفاهم ، من أجل الانتصار لذلك الرأى • والقائد التسلطى ، هو من يأمر مرءوسيه بما ينبغى عليهم أن يفعلوه ، وكيف يعملونه ومتى ؟ وأين ؟ وعادة ما يكون القائد منعزلا عن الجماعة التى يعمل فيها ، لا تربطه بهم علاقات انسانية كريمة من التعاطف والمودة •

(جـ) **القيادة الترسلية** : وتعنى ترك أمر القيادة للأفراد دون تدخل فى شئونهم • والقائد الترسلى يقوم بتوصيل المعلومات الى أفراد المجموعة ، تاركا لهم الحرية فى التصرف ازاءها دون تدخل منه •

وهذا النوع هو أقل الأنواع من حيث ناتج العمل ، كما أنه يفقد القائد الاحترام من المجموعة ، كما يفقد الأفراد فى ظل هذا النظام القدرة على التصرف والاعتماد على النفس • وهذه بلا شك تؤدى الى آثار سلبية تنعكس على شخصية الأفراد وعلى علاقتهم بالقائد وبالتالى على العمل نفسه[٣٩] •

وحتى ينجح مدير المدرسة فى تحقيق أهدافها ، عليه أن يهيىء جو الاستقرار لتسيير العمل فى اطاره الطبيعى ، كما يحاول بذكائه أن يدخل التجديدات التى يراها مناسبة بالتدريج بما تتيحه قدرات الأفراد • وهو بذلك يحقق أداء العمل فى انتظام دون اضطراب ، كما يمكن له أن يجدد فى أساليب العمل وفى طرق الأداء فيما يتصل بالاشراف والتنظيم والتنسيق واتخاذ القرار ... الخ[٤٠] •

ومدير المدرسة الناجح هو الذى يعمل على التحسين فى العملية التعليمية والتربوية فى ضوء العلاقات الانسانية ، كما يبث روح التعاون والمشاورة بحيث يحقق الأهداف الآتية :

١ — توفير روح الود والمحبة بين جميع العاملين بالمدرسة ، بحيث تتاح للجميع الفرصة فى تساو تام لتحقيق ذواتهم •

---

(٣٨) محمد منير مرسى • الادارة التعليمية ، اصولها وتطبيقاتها • مرجع سابق ، ص ٨٨ ، ٨٩

(٣٩) المرجع السابق ، ص ٩٠ (٤٠) المرجع السابق ، ص ٩١

٢ ــ توفير الأمن والطمأنينة ، والثقة المتبادلة بين أسرة المدرسة جميعهـا •

٣ ــ توفير المناخ الصالح لاقامة العلاقات الانسانية السليمة ، فى ظل التسامح وتبادل الرأى والخبرات بين الجميع •

٤ ــ تشجيع الأفراد المبدعين والموهوبين من المعلمين ، بحيث يكافأ الموهوب ، وتتاح له فرصة الاستمرارية فى ابراز مواهبه وتنميتها •

٥ ــ ترسيخ الايمان بالمدرسة كمؤسسة تربوية لها تقاليدها التى يجب تدعيمها وتشجيعها •

٦ ــ اتاحة الفرصــة أمام المعلمين لمــارسة أساليب القيــادة الصحيحة •

٧ ــ توفير مناخ الحرية فى ابداء مرئيات المعلمين أثناء مناقشة المشاكل الخاصة بالتعليم[٤١] •

٢ ــ العلاقات الانسانية بين المعلم والتلاميذ :

لعله من المعروف فى عالم التربية ، أن المعلم هو العقل المدبر ، واليد المحركة لنجاح العملية التربوية ، وبمقدار الاعداد الجيد للمعلم ، بمقدار الفائدة التى تعود على التلميذ فى جميع النواحى العقلية والابداعية والمعرفية ••• الخ •

والمعلم فى مهنته يحتاج الى تربية انسانية طويلة ، لأن مهنة التدريس تخالف غيرها من المهن اليدوية مثل الكتابة على آلة ، أو قيادة مركبة أو غير ذلك • فلكى يصبح الفرد معلما مجيدا لمهنته ، لابد من توفر قدر معين من الثقافة العقلية والأخلاقية والروحية ، لأن لكل هذه النواحى اتصال مباشر بعمل التدريس ، فهو محتاج الى ثقافات واسعة وفوق ذلك هو محتاج الى تربية مستمرة يداوم عليها ما استطاع الى ذلك سبيلا[٤٢] •

والقوى البشرية الذين يتعامل معهم المعلم ، تتركز أصلا فى الطلاب الذين يقوم بالتدريس لهم ، بالاضافة الى المدير والزملاء وسائر العاملين بالمدرسة من موظفين إداريين وعمال •

---

(٤١) حسن مصطفى وآخرون • اتجاهات جديدة فى الادارة المدرسية • مرجع سابق ، ص ٧١ ، ٧٢

(٤٢) جيمس س• دوس • الأسس لنظريات التربية • مرجع سابق ، ص ٢٠٩

واذا كنا دائما وأبدا نسعى الى النهوض بالعملية التعليمية ، فان أول ما يلفت نظرنا هو المعلم ، فكفاءته ، وقدرته العلمية ، واجادته على استثمار جميع الطاقات البشرية فى محيطه المدرسى ، واستحداثه للتطبيقات العملية ، واتاحة الفرصة أمامه لمارسة أكبر قدر ممكن من النفوذ فى داخل الفصل وخارجه ، والارتفاع والسمو بالعلاقات الانسانية الى أفضل مستوى لها ، كل ذلك كفيل بتحقيق أفضل النتائج وأقواها فى النهوض بالعملية التعليمية .

والمعلم كأى كائن بشرى ، له حاجاته ومطالبه ، سواء منها المادية ، أو النفسية ، أو الاجتماعية . وحين تشيع العلاقات الانسانية الطيبة والسليمة فى جو المدرسة ، وحين يتحقق للمعلم مقدار مناسب من الشعور بالذات فى علاقاته مع مدير المدرسة ومع زملائه ، وحين يتوفر له المكان المناسب والكتاب المناسب ، والوسائل اللازمة للعملية التعليمية ، حين يتوفر كل ذلك ، يمكننا أن نتوقع من المعلم الارتفاع بالمستوى التعليمى وبنوعيته ، نظرا لارتفاع روحه المعنوية ، والتغلب على المشكلات والصعوبات التى تواجهه فى العمل سواء منها ما يتصل بالتلميذ أو الادارة .

والمعلم ما زال « حجر الزاوية دائما فى العملية التربوية ، وان نجاح هذه العملية يعتمد بالدرجة الأولى على المعلم ، وتقدم التلاميذ فى الفصل يعتمد على مدى كفاءة المعلم ، واعداده الجيد ، واخلاصه فى عمله ، وحبه له ، وتحمسه للمهنة ، وهو فى كل ذلك يخضع فى أدائه لعمله ؛ ودوره فى العملية التعليمية لعديد من العوامل التى تؤثر تأثيرا مباشرا على أدائه لهذا الدور ، وفى مقدمتها الوضع المادى والاجتماعى للمعلم وظروف العمل وحوافزه »(٤٣) .

وقد يقال أو يثار كثيرا ما نيط بالمعلم من ثقل المسئولية ومن عبء المهمة الملقاة على عاتقه ، وهضم حقوقه ، وضعف مكانته الاجتماعية ، ووجود الحواجز فى علاقاته بمرءوسيه . قد يثار ذلك وغيره كثير ، ولكننا ننسى فى زحمة المطالبة بالحقوق ، القيام بالواجبات ، فكثير من المدرسين يضعون أنفسهم فى أبراج عاجية بالنسبة للتلاميذ ، يتعالون عليهم ، ويقيمون حواجز خرسانية فى امكانية الاتصال بهم ، أو تبادل الأفكار

---

(٤٣) محمد منير مرسى ، الادارة التعليمية ، أصولها وتطبيقاتها ، مرجع سابق ، ص ٢١١

معهم . ناهيك عن كبت كوامنهم حتى أثناء قيامهم بالعملية التعليمية داخل الفصل . وربما نلمح بعض المعلمين لجأوا الى هذه المهنة لأنهم « لم يجدوا عملا يعولهم ويعول أطفالهم الا التدريس ، والتدريس منهم براء والتربية لا تجد فيهم ، ولا فيما يدرسونه ، ولا فيما تحويه المدرسة وادارتها شيئا كثيرا يمكن أن يفيد الأطفال »[٤٤] .

وحتى الفئة من المعلمين والتي لا تعـاني من مشـكلات مادية أو اجتماعية ، قد يتعللون بنوع النظام المتبع داخل المدرسة ، وقد يعنون نوعا من البيروقراطية التى تحد من نشاطهم ، وبالتالى تؤثر على ترابطهم مع تلاميذهم فى علاقات جيدة . أقول بالرغم من ذلك ، فربما ينجح معلمون فى ظل نظام بيروقراطى داخل المدرسة ، قد ينجحون فى قيادتهم وفى علاقاتهم بتلاميذهم ، وفى تدريسهم أكثر من غيرهم فى المدارس الأقل بيروقراطية . « وفى دراسة انجليزية قام بها « ريفانس » (Revans) حاول أن يربط بين أسلوب القيادة وفاعلية المدرس وأداء التلاميذ . وفى محاولته لتفسير اختـلاف التلاميذ فى الادراك ، قام بدراسة اتجاه الأطفال نحو المدرسين ، واتجاه المدرسين نحو ادارة المدرسة ، فانهم يحاولون أن يكونوا مرغوبين من تلاميذهم ، وبالتالى يصبحون مؤثرين ، بيد أنهم اذا رأوا أن رؤساءهم ديكتاتوريين ، فانهم بدورهم يعدون من وجهة نظر تلاميذهم غير متعاطفين وغير مؤثرين .

ومع ذلك فليس من الضرورى أن يرتبط أسلوب القيادة ، بمستوى البيروقراطية فى المنظمة ، فلقد وجدت دراسة مولر وكارترز (Moeller & Charters) أن أسلوب القيادة ومستوى البيروقراطية غير مرتبطين ، وأن المدرسين فى المدارس البيروقراطية لديهم احساس كبير بالقوة أكثر من غيرهم فى المدارس الأقل بيروقراطية .

وعلى ذلك فيحتمل أن يكون أسلوب القيادة متعلقا بالشخصية أكثر من تعلقه أو ارتباطه بنمط تركيب المنظمة »[٤٥] .

واذا صح أن أسلوب القيادة يرتبط بالشخصية أكثر من ارتباطه بنمط تركيب المنظمة ، فان العبء يزداد على المعلم فى مدى نجاحه داخل الفصل ، وفى اكتسابه لحب الأطفال الذين يتعـامل معهم ، فى غير

---

(٤٤) سعد مرسى أحمد . التربية والتقدم . عالم الكتب ، ط ٣ ، القاهرة ١٩٧٩ ، ص ١٢٢

(٤٥) Olive Banks, The Sociology of Education; Op. Cit. pp. 199 — 200.

ما افراط أو تفريط ، أو تقصير فى العملية التعليمية . أو تبنى مجموعة من الأطفال دون أخرى ، أو تدخل عوامل ذاتية أخرى .

كل ذلك يتوقف بالدرجة الأولى على نوعية الممارسة للمعلم مع الطلاب ، فاذا اعتمد أسلوب السلطة فى علاقاته . وأن على الصغير أو المتعلم أن يطيع ويمتثل ، ولا يخالف آمرا يتعلق بالقواعد أو النظام . فان هذا الأسلوب يكون قد حدد ما يجب أن يفعل وما لا يجب . وعدم قدرة الطفل على تنفيذ قاعدة أو أمر يعد خطأ لا نسيانا حتى مع وجود حسن النية .

وبناء العلاقات الانسانية ، وترسيخ القواعد الأخلاقية بهذا الأسلوب المفروض ، يتحول الى طاعة عمياء ، بل قد يصل الأمر الى حد أن تتميز جماعة دون غيرها وقد يحمى الكسالى أحيانا .

والأطفال بلا شك هم نتاج القواعد والأنظمة التى يعاملون فى ظلها ، وحيث ان الأوامر والنواهى تفرض على الفرد دون توضيح لأسبابها أو مبرراتها ، فالسلامة اذن تكون فى طاعتها والامتثال لها .

يروى « كيلمر برنجل » (Kel'mer Pringle) أن طفلا فى مدرسة طلب منه أن يكتب — بالترتيب التنازلى — أكثر الأشياء التى يرى أنها شريرة — وقد ترأست قائمة الطفل كلمتان « القتل » و « الصياح فى الممرات » لم يستطع الطفل هنا تمييز المقصود بالشر بالضبط الى الدرجة التى رأى فيها التكلم بصوت عال — مثلا — أثناء سير الأطفال فى ممرات المدرسة من أكثر الأشياء شررا لا يسبقها الا القتل . كان هذا نتيجة تعليم الأخلاق بطريقة استبدادية »[٤٦] .

من هنا جاءت طاعة الأطفال نتيجة لمؤثرات عديدة ، مثل التهديد والإنذار ، والعقوبة ، حتى اذا ما تبدد خطر السلطة ، أو غابت اختفت ظاهرة الطاعة هذه لأن الدافع اليها قد غاب أو زال .

ولا شك أن التربية بهذا النمط الاستبدادى لا تحقق أهدافها ، حتى حين تنجح ، فليس نجاحها سوى انصياع للغير ودمج لمطالب الفرد مع مطالب غيره ، وتجاهل تام لشخصه ، لأن ذاتا عليا غير ذاته تسيطر عليه ، وهى لا تقبل النقد ، بل تصبح مصدرا لقلق يصيب الطفل ولا يستطيع السيطرة عليه .

---

(٤٦) ر. ف. ديردن . فلسفة التعليم الابتدائى . ترجمة سعد مرسى أحمد . عالم الكتب . القاهرة ١٩٧٩ ، ص ٢٠٥ ، ٢٠٦

« ان حمــاية القواعد والقوانين من النقــد يرفعها الى مصاف التقديس ، وتصبح مصونه لا تمس ، ومن لا يخضع لها يوصم بالشرور بل يعتبر خطرا على الغير ومصدرا للمتاعب ، وتستمر هــذه القواعد والقوانين فى صلاحيتها وتأثيرها آمرة الخضوع من الغير لهــا دون مناقشتها ، وتتعاقب أجيال كثيرة ، وتتغير الظروف ، ولكن القوانين سارية المفعول شديدة الأثر تصبح جزءا من طبيعة الأشياء ، بل تصبح أسمى من أن تستطيع عقولنا فهمها وفهم مبرراتها »[٤٧] •

وأيا ما كان الأمر ، فالمعلم المرن هو من يبنى علاقاته مع طلابه بالمنطق والعقلانية ، وان اضطر الى استخدام التقريع واللوم ، فلا مناص من أن يكشف عن الأبعاد التى اضطرته الى ذلك ، بحيث تنكشف عدالته أمام الجميع ، لأن الأطفال يحتاجون الى أسباب وجيهة ، بها يقتنعون من فعل شىء ما أو الكف عنه ، وربما يبدو ما يريده الكبار فرضا لطلب أو ارغاما عليه ، ولكن حين يتبدد أمام الطفل منطق القسر والتسلطية فى الطلب ، وتتجلى أمامه الأسباب والمبررات فانه يأتى هذا الفعل ، بل قد يتشوق صناعيا اليه ، وان كان هذا سوف يجد معارضة عندما يكبر هؤلاء الأطفال •

وعلى كل حال فكلما اتضحت الاسباب بالشرح والتفسير ، فى اطار من الاستقلالية ، كلما زاد شغف الفرد لاتيان العمل ، « اذ المفروض أن تتقدم الأسباب وتشرح فى اطار من التفاهم المتبادل لا على أساس أن واحدا يفرض عليه أن يستمع للشرح والتوقعات • ولعله من السطحية افتراض أن كل ما يقوله ويفعله الطفل صواب ، أو أن الاهتمام بمصالح الغير وأخذها فى الاعتبار وحب العدالة ••• وغيرها يمكن تعلمها دون أن يتخلى الطفل كارها عن رغباته »[٤٨] •

واذا كان ولا بد من الاعتراف للطفل بالمشاركة الايجابية والرغبة الصادقة فيما يأتيه من عمل ، فلا مندوحة والحال كذلك ، من ضرورة تخلص المعلمين من العلاقات التقليدية التى تربطهم بطلابهم ، علاقات قوامها منهج مقرر ، منزه — من وجهة نظر واضعيه — عن الخطأ والباطل • والمدرس هو المنفذ بالكلمة ، والآمر بالسؤال ، وليس للطلاب سوى الطاعة والامتثال والقبول والاقتناع •

---

(٤٧) المرجع السابق ، ص ٢٠٦ ، ٢٠٧

(٤٨) المرجع السابق ، ص ٢٠٨

وتربية بهذا المستوى لا تحقق هدفها فى بناء الفرد الحر ، لأننا لا ننشد قدرا معرفيا فقط فى العملية التربوية ، بل يضاف اليها التربية والتوجيه والمساعدة والتنظيم وبذل الجهد فى تطوير العلاقات بالطلاب الى سلوك هادف ، ونمط سليم فى الحياة .

واذا كانت تلك هى الصورة المنشودة ، فلا يسوغ لمعلم فى هذا العصر المتزاحم بالتقدم والمتغيرات ، أن يكتفى فى العملية التعليمية ، باعطاء دروس محفوظة ، أو املاء كلمات مكتوبة ، ينسحب بعدها من أمام الطلاب ، وكأنه ترس فى آلة يتحرك دخولا الى الفصل وخروجا منه بآلة تنبيه تصدر له الأوامر ، ضاربا بالعلاقات الانسانية عرض الحائط . وكأن التربية من وجهة نظره غدت كتابا مدرسيا . ومنهجا جامدا يقوم بتحفيظه وتسميعه للطلاب والمتعلمين (٤٩) .

وتربية هذه مقوماتها ، لا يتوقع لها أن تنتج عقلا حرا مثقفا . بتكنولوجيا العصر ، ومحصنا بقوانين العلم . « قال هـ.ج. ويلز : ان المدنية سباق بين التربية والدمار ... والتربية علم لا يجب أن يخضع للعفويات ، ولا يجب أن يكون ملجأ من لا عمل له . ان الدولة التى تتهاون فى تنمية ورعاية عقول أجيالها الصاعدة هى دولة تنتحر عقليا وثقافيا وخلقيا ووجدانيا ، وفوق كل هذا تتخلف علميا فى عالم أصبح للعلم والتكنولوجيا فيه مكان الصدارة » (٥٠) .

وعلى أية حال فمهما أعددنا من منهج ، وطورنا فى الكتاب ، وأصلنا من طريقة التدريس ، فشخصية المعلم ما زالت نقطة البداية والنهاية فى العملية التعليمية داخل الفصل ، والمعلم الذى يترك أبواب فصله مفتوحة — اللهم فيما عدا الظروف الخاصة — لا شك هو المعلم القادر على الاحتفاظ بالنظام دون فقد كرامته أو التعرض للتهكم ، أو الاعتداء على أواصر العلاقة الطيبة مع التلاميذ .

من هنا فاجبار المدرس للتلاميذ على التعلم ، وقهرهم على تعلم ما لا يريدون وعدم استغلاله للمواقف المتعددة خلال اليوم المدرسى فى تحقيق أهدافه التعليمية ، والسلوكية ، سيجر بالضرورة الى تحويل العلاقة بينه وبين التلاميذ الى صراع حتمى .

---

(٤٩) المرجع السابق ، ص ١١

(٥٠) المرجع السابق ، ص ٨

وقد أوضح « والر » (Waller) سبب الصراع الحتمي الذي يبدو فى علاقة المعلم بالتلميذ ، بأن المعلمين يجبرون التلاميذ على التعلم •

فاذا سمح للتـــلاميذ أن يتعلموا ما يهتمون به فقط ، وبطريقتهم الخاصة . ولا يتعلمون أكثر مما يريدون ولا أفضل منه ، واذا كانت هناك مرونة فى أسلوب مفهوم النظام داخل الفصــــل كشرط ضرورى للتعليم . واذا اعتبر المعلمون أنفسهم مجرد مساعدين وأصدقاء • عندئذ ستصبح الحياة جميلة داخل الفصل الدراسى(٥١) •

ولكن هذا يتم شريطة أن يغتنم المعلم الفرصة التى ينشط فيها التلاميذ ليكسبهم الخبرات المختلفة بواسطة اثارة المشكلات أمامهم ، ثم ارشادهم الى التفكير الصحيح لمواجهتها بغية الوصول الى حلها ، وهذا النمط يساعد على النمو الجسمي والعقلى والخلقى والاجتماعى ، وكسب عادات النقد الحر ، والسلوك الصحيح •

والمدرس فى أدائه التربوى ، ونجاحه فى ذلك ، عليه أن يبدو طبيعيا فى أدائه لعمله ، حتى يثق فيه الطلاب ، ويقيمون معه جسرا سليما من العلاقات الطيبة • وبمقدار الخلق العظيم ، والعقل الراجح ، والخبرة المدربة ، بمقدار تأثير المعلم فى تلاميذه ، وافادتهم منه •

من هنا فلا مجال للتخويف ، واستجداء حب التلاميذ تحت وطأة السيطرة ، اللهم الا بما يسمح بسلامة النظام وتبادل الاحترام والمحبة والتقـــدير(٥٢) •

وتوفير جو من التلاحم والترابط بين المدرس والتلاميذ ، يساعد على مواجهة الكثير من المشكلات التى تواجه التلاميذ ، بحيث يتولد لدى التلميذ الذى يواجه مشكلة اجتماعية ، جو مدرسى قوامه الحب والتعاطف والاخاء •

وهذا بدوره يتوقف على مدى استعداد المعلم ، بتقصى كثير من المشكلات الاجتماعية التى تواجه التلاميذ ، ليعمل على حلها ، فلا يكتفى مثلا بلوم التلميذ على تقاعسه فى أداء الواجب المنزلى ، دون أن يتعرف على المشكلات المنزلية التى يتعرض لها التلميذ ، حينئذ يكون حكمه على

---

(٥١) Olive Banks, The Sociology of Education. Op. Cit p. 243 .

(٥٢) جليل شكرى عجبان . مشكلات الطفولة فى المجتمع المدرسى . تطبيقات تربوية . مطبعة النجاح ، دمنهور ، مصر ، بدون تاريخ ، ص ٧٨ ، ٧٩

أساس سليم وتوجيه صحيح ، وربما نجح فى تقويم هذا التلميذ بنمط مناسب دون أن يتمادى فى تقويمه بأسلوب غير مناسب ٠

وحسن المعاملة للتلميذ تشعره بالأمن وتزيل لديه كراهية المدرسة ، والمدرسين ، وتشعره بالاطمئنان ٠ وترفير هذه الجوانب يتوقف على السياسة السليمة للمدرسة وللمدرس على السواء[٥٣] ٠

والتوسط فى المعاملة هو حجر الزاوية فى اقامة العلاقات السليمة ، فلا ينافق المدرس الطلاب ، حتى لا يفقدون ثقتهم به ، كما أنه لا يبالغ فى المثالية التى تجعل التلاميذ ييأسون من محاكاته ، بل وقد يشعرون بفشلهم فى السير على منواله ، والتأسى به ٠

كما أن مبالغة المعلم فى اضفاء مزيد من التكلف مع التلاميذ بغية اكتساب وقار أكثر أو احترام أوسع ، فيتأفف النزول الى مستوى التلاميذ وينظر اليهم نظرة فوقية ، كل ذلك يتعارض مع روح الديمقراطية فى التعليم ، بل وربما يخفى وراءه مداراة القصور فى قدرة المعلم المعرفية ، أو الشخصية ، الأمر الذى قد يفسد على التلاميذ جو المدرسة ، وربما يسبب بعض المشاكل المتصلة بالسلوك العام للتلاميذ[٥٤] ٠

والتلاميذ دائما فى حاجة الى سياسة فى المعاملة قوامها الصبر والنظام ، وسعة الصدر ، مع عدم التفريط فى أسلوب الضبط العام للفصل فى كياسة وفطنة تتناسب مع الموقف التعليمى ٠ والمدرس غالبا يتحمل توجيه التلاميذ الى الأفضل فى جميع الجوانب الثقافية والاجتماعية والدينية لأن شأنه أنه أرقى أفراد البيئة ثقافة وعلما ٠

« وقد تكون شخصية المدرس الضعيف سببا فى الفوضى والاضطراب بين روح الجماعة ، فلا يمكن أن نسميها روحا اجتماعية بالمعنى السليم ، وقد تكون شخصية المدرس حازمة فيتصرف فى شدة وحزم ، ويتشدد فى لين وعطف ، بحيث يكاد يشعر التلاميذ نحوه بالشعور الوالدى الذى يستتبع الكثير من الصفات الاجتماعية ، كالتضحية والتقدير والايثار والمودة ، وهذا الاتجاه أكثرها قدرة على انتاج الروح الاجتماعى السليم ، وهذا المدرس أكثر قدرة من غيره من المدرسين ، على التوجيه الاجتماعى ، وفى هذا الجو يكاد يشعر التلاميذ ومدرسوهم بارتباطهم ارتباطا وثيقا

---

(٥٣) المرجع السابق ، ص ٨٧ ، ٨٨

(٥٤) المرجع السابق ، ص ٩٠ ، ٩١

داخل المجتمع الذى يعيشون فيه ، رباط تشيع فيه المودة الحقيقية والألفة والتعاون الصادقان . ويسير المجتمع المدرسى بهذا نحو هدف واضح لخدمة الجماعة المدرسية »[٥٥] .

والواقع أن ممارسة التلميذ للمشروعات المختلفة والجمعيات المتعددة بالمدرسة سواء منها التمثيل أو الموسيقى أو الرسم ، أو الرياضة أو الكشافة أو الجوالة ... الخ ، تشكل عنده أنماط التعاون ، وروح الجماعة . بل وتربى فيه العلاقات الطيبة مع الآخرين بروح مشبعة بالحب والوفاء .

« ولضمان قدرة المدرسة على توجيه الاحساس الاجتماعى السليم ، لا بد وأن تكون العلاقات المدرسية بين المدرسين وبعضهم ، وبينهم وبين ناظر المدرسة ، وبينهم وبين التلاميذ ، وبين التلاميذ وبعضهم ، وبين الفصول المدرسية فيما بينها ، تسير سيرا طبيعيا مرضيا ، يؤكد العلاقة السامية برباط عام بين جميع أفراد هذه الأسرة الكبيرة »[٥٦] .

وعموما فدرجة النضج الوجدانى للتلميذ وللمعلم ، والانضباطات المفروضة على التلميذ ، وردود الأفعال المتبادلة ، كل ذلك له أهمية فى نوعية العلاقات وتكوينها .

والمعلم الذى يتمتع بشخصية ناضجة ، يستطيع أن يواجه المشكلات التى يعيشها الطفل ، بل ويساعده على حلها ، وعلى التخلص من الأوهام اللاشعورية ، التى تكونت عنده من سوء العلاقات الأسرية الأولى ، والتى اتسمت بتشوهات ذاتية ، أساء التلميذ تصفيتها ومواجهتها . « أما فى المدرسة فالعلاقات الشخصية الأوسع نطاقا مصحوبة بتقوية للاحساس بالواقع ، وبانحسار الذاتية والأوهام .. وهكذا يقوى « أنا » الطفل قدرته التأليفية ، بمزيد من التمييز بين الجانب الخيالى ، الذى كثيرا ما يكون مسببا للاضطراب ، وبين الواقع الملموس أو العينى الذى يستند اليه « الأنا » القوى »[٥٧] .

وتكوين الطفل لذاته ، ينضج اذا تمكن أن يؤكد ذاته ، حين تزيد

---

(٥٥) المرجع السابق ، ص ٢١٦ ، ٢١٧

(٥٦) **المرجع السابق ، ص ٢١٧**

(٥٧) جورج موكو . التربية الوجدانية والمزاجية للطفل . ترجمة مبير العصرة ، نظمى لوقا . الجمعية المصرية لنشر الثقافة والمعرفة العالمية . القاهرة ١٩٧٨ ، ص ٢٦٢

نفقته بنفسه ، والفرد لا يمكن أن يؤكد ذاته ، دون أن يثق بنفسه ، ويشعر بأنه مقبول من الغير ومحبوب له ، وحائز علي الاعجاب الكامن في كل نشاط مدرسى ، بالاضافة الى الرغبة فى الاكتساب والتعلم[٥٨] .

وهكذا يصبح سلوك المعلم مثيرا لاستجابات وردود أفعال لدى التلاميذ ، لأن التلميذ لا يمكن أن يكون بمعزل عن البيئة . فهو من نتاجها على نحو ما ، وبالتالى فمسلك المعلم وكينونته ، وموقفه من التلميذ ، بالشدة أو اللين ، بالحياء أو عدمه ، كلها عوامل تعين فى تحديد مسلك كل منهما[٥٩] .

والتربية فى جميع تلك المظاهر واقعة شخصية ؛ شئنا أم لم نشأ ، لأن قوامها الأفراد ، فهى ضرب من الحوار . « وسواء أكان المعلم محبذا للشعور المدرسى أو لم يكن ، فالواقع أن للحساسية أهميتها العظيمة فى العمل والانضباط المدرسى . ومن هنا عظم أهمية كل ما من شأنه ادخال الاضطراب على علاقات المعلم والتلميذ »[٦٠] .

وتاريخ المعلم وماضيه له دور كبير فى تحديد سلوكه مع الطلاب ؛ وعلاقاته معهم ، لأن تلك العلاقة أشد ما تكون تأثرا بالماضى ، والمعلم بماضيه الطفلى ، قد يفترض عليه اختيار الطرق التسلطية ، التى يجتهد فى تبريرها فيما بعد ، عن طريق عقليته ، واتخاذ ذرائع وحجج ذهنية محضة . وندرة من المعلمين هم القادرون بقوة شخصيتهم على التخلص من هذا الماضى وتجاوزه وعدم تكراره[٦١] .

وأيا ما كان الأمر ، فاختيار المعلم لأسلوبه ، وطريقته فى التربية ، وفى تكوين العلاقات وابراز القيم ، والتصورات الخاصة عن المواطن ، ومعالجة الظروف الموضوعية والقوى المختلفة المؤثرة فى اتجاهات التلاميذ ، كل أولئك رهن بنظرة المعلم فى تنمية القيم الخلقية كأسس لتنمية الاتجاهات العقلية والاجتماعية عند التلاميذ[٦٢] .

صحيح أن المعلم تحدده عوامل أساسية ، منها السياسات التربوية العامة ، والاتجاهات التى تتضمنها أو تقوم عليها ، غير أن شخصية

---

(٥٨) المرجع السابق ، ص ٢٦٣ ، ٢٦٤

(٥٩) المرجع السابق ، ص ٢٦٨ (٦٠) المرجع السابق ، ص ٢٧٢

(٦١) المرجع السابق ، ص ٢٧٥ ، ٢٧٦

(٦٢) محمد الهادى عفيفى . فى اصول التربية ، الاصول الفلسفية للتربية . مرجع سابق ، ص ٣٢٩

المعلم ووعيه بمدى تلك السياسات وهذه الاتجاهات وقدرته على هضمها وتمثلها . هو حجر الزاوية فى نجاحه فى التأثير على التلاميذ ، بالنمط الذى يختاره . والعلاقات الانسـانية التى يفضلها ، ووسيلة الثواب والعقاب التى يحبذها ، فقد يستخدم وسائل مادية ، أو معنوية ، وقد يكون تأثيره مباشرا عن طريق المواجهة ، وقد يستخدم ضغط الجماعة والجو الاجتماعى .

وكما سبق أن ألمحنا ، فالتلميذ ينفعل مع المدرسين فى قاعات الدرس ، أو فى مجالات النشاط المختلفة ، والتلميذ فى هذا يحتاج الى نموذج طيب فى الخلق وفى السلوك . والمدرس هو هذا النموذج ، الذى يمثل النظام كقيمة ، والفضيلة والمعرفة والموضوعية والعدالة والحق والالتزام .

وهو فى هذا يتأثر بالظروف الاجتماعية والاقتصادية التى يعيشها ، ولا شك فى هذا أن نظرة المعلم الى موقعه ، والى ما يعبر عنه من قيم متأثر بأوضاعه تلك وينفعل بها(٦٣) .

ولا مندوحة للمعلم الذى ينشد التوجيه الذاتى للتلاميذ ، ويشجع لديهم النشاط القائم على التفكير والولاء للعمل الجماعى باعتباره المجال السليم لحفز التفكير وبناء شخصية التلميذ ، لا مندوحة للمعلم الذى يبغى تحقيق ذلك . من الالتزام بالقيم الديمقراطية فى علاقاته بالتلاميذ ، واحترام شخصيتهم . وتوفير الفرص التعليمية المتميزة بالعمق والتوجيه لهم . وتنمية روح المسئولية بينهم ، والمساواة الكاملة فى المعاملة(٦٤) .

عندئذ نستطيع أن نجزم بأن العلاقات الانسانية فى الحقل التعليمى ، قد حققت أهدافها ، وأكدت أهميتها فى العملية التربوية والتعليمية .

٣ ــ العلاقة بين المعلم والتلميذ فى الفكر الاسلامى :

واذا عدنا الى الوراء قليلا ، فسوف نلمح أن مفكرى المسلمين كانوا يؤكدون دائما على اقامة علاقات انسانية متبادلة بين المعلم والتلميذ ، قوامها الاحترام المتبادل ، والتقدير المتكامل للمعلم فى غير ما خنوع ولا خضوع . لأن العلم رحيم بين أهله ، ولأن التلميذ عهدة عند المعلم ، عليه أن يرعاه ويتعهده بما يصلح فيه دينه وخلقه .

---

(٦٣) المرجع السابق ، ص ٣٢٩ ، ٣٣٠

(٦٤) المرجع السابق ، ص ٢٣٢ ، ٢٣٣

ويذكر الامام الغزالى فى « احياء علوم الدين » ثمان وظائف ، يراها ضرورية للمعلم فى صلته بالمتعلمين :

(ا) أن يكون شفوقا بالمتعلمين • قال صلى الله عليه وسلم : « انما أنا لكم مثل الوالد لولده » وبهذا فحق المعـلم أعظم من حق الوالدين ، لأن الوالد اذا كان سببا للوجود الحاضر والحياة الفانية ، فالمعلم هو الذى يفيد المتعلم ويعده للحياة الأخروية الدائمة •

ولما كان التلميذ للمعلم كولده ، فعلى المعلم أن يرسخ فى تلاميذه المحبة والتعاون والتوادد ، والبعد عن التحاسد أو التباغض •

(ب) أن يقتدى بصاحب الشرع صلى الله عليه وسلم • فلا يطلب على افادة أجرا ولا يقصد جزاءا ولا شكورا ، بل يعلم لوجه الله تعالى ، دون منة أو تفضل على أحد •

(جـ) أن ينصح المتعلم ، ويمنعه من التصدى لعلم قبل الاستعداد له أو يتشاغل بالخفى قبل الجلى • على أن يكون غرضه من العلم وجه الله تعـالى •

(د) أن يستخدم مع المتعـلم أسـلوب التعريض ما أمكنه ، وألا يوبخه ، ففى التوبيخ هتك لحجاب الهيئة ، كما أنه يكسب الجرأة على المحاجة بالخلاف فى الرأى والحرص على التمسك به •

(هـ) على المعلم أن يكون قدوة لتلميذه فى العلاقات الانسانية ، فلا يقبح أمامه من شأن علم آخر ، لأن ذلك ينسحب على معلم ذلك العلم ، ناهيك عن أن التلميذ قد يألف هذه الخصلة فيقتدى بأستاذه فيها ، ويألف تجريح غيره والطعن فيهم •

(و) أن يقتصر بالمتعلم على ما يستوعبه عقله ، فقد قال صلى الله عليه وسلم : « نحن معاشر الأنبياء أمرنا أن ننزل الناس منازلهم ونكلمهم على قدر عقولهم » •

(ز) التلميذ المحدود الذكاء ، يتعلم بالقدر اللائق به ، فيقدم له من المسائل أوضحها ، ولا يذكر له أن هناك أمورا دقيقة وراء تلك المسائل ، فان ذلك يفـتر رغبته فى المسائل الواضحة ، بل ويشوش عليه قلبه •

(ح) على المعلم أن يعمل بعلمه ، فلا يكذب قوله فعله ، لأن العلم يدرك بالبصائر ، والعمل يدرك بالأبصار • ولذلك فكل من خالف قوله فعله ، فانه يمنع الرشد ، وكل من تناول شيئا وقال للناس لا تتناولوه فانه سم مهلك سخر الناس منه واتهموه ، وزاد حرصهم على ما نهوا عنه ، فيقولون : لولا أنه طيب الأشياء وألذها لما كان يستأثر به[٦٥] •

والغزالى حين يؤكد على اقامة علاقات انسانية بين المعلم والتلميذ لم يفته أن ينبه على المتعلم ضرورة تقديره لأستاذه وطاعته اياه ، وعدم اللجوء الى اللغط والجدل فى مسائل هو غير مستعد لها •

ولا ننكر أن تربية هذه دعائمها ، نجحت أيما نجاح فى تخريج اجيال وعلماء أفذاذ أفادوا العلم وأقاموا الدين ، فى ترابط متكامل ، وتلاحم تام فى ظل من العلاقات الانسانية الرشيدة •

* * *

ثالثا ــ التطبيق التربوى للعلاقات الإنسانية فى ظل المبادىء الدينية :

(ا) دور العبادات فى بناء العلاقات الانسانية :

أما وقد تناولنا بالحديث العلاقات الانسانية فى المدرسة ، ودور المعلم والمدير فى بناء صرح العلاقات الانسانية الهادفة التى تنشد النجاح فى العملية التربوية وبناء الفرد المتناسق داخليا وخارجيا ، الخالى من عقد التسلطية والديكتاتورية ، والأنوية ، فى عصر تزاحمت فيه قنوات الثقافة المختلطة بشكل مخيف ومروع ، أما وقد تناولنا ذلك ، فقد بات على التربية أن تفتش لها عن دور ، فى خضم هذا التزاحم وهذا الهيجان الفكرى •

ولقد بدا أمامنا صعوبة التطبيق التربوى للعلاقات الانسانية فى المدرسة ، نظرا لمشكلات تكتنف قيادة المدرسة والمعلمين بها • ولا شك أن تزاحم الأهداف التربوية والتعليمية ، وكثرة القنوات المصدرة لتلك الأهداف ، تلعب دورا كبيرا فى قصور استثمار العلاقات الانسانية ، والحد من وضعها فى المكان اللائق بها فى أداء العملية التعليمية •

---

(٦٥) الامام الغزالى . احياء علوم الدين ، ج ١ ، مكتبة ومطبعة المشهد الحسينى . القاهرة . بدون تاريخ ، ص ٥٥ ، ٥٨

ولا مراء فى أن التربية فى عالمنا العربى والاسلامى . تشهد فى الآونة الأخيرة اضطرابا منقطع النظير ، وباتت عملية التعليم لا تولى اهتمامها فى بناء صرح العلاقات الانسانية الصادقة سوى صب كل مقوماتها فى الجانب المعرفى المهلهل التقليدى .

ولا مندوحة أن تربية اعتمدت فى بنائها على كثير من فكر وافد ، وأهداف لا تتوافق — فى غالبيتها — مع المنهج الاسلامى . لا مندوحة والحال كذلك من تذبذب التلاميذ والمتعلمين ، بين الواقع الذى يعايشونه فى المدرسة وبين ما يجب أن يكونوا عليه فى ظل القيم الانسانية الصادقة التى تعتمد على الفكر الاسلامى والمنهج الدينى .

ولا جدال فى أنه لو صلح المنطلق الذى تشتق منه أهداف التربية ، نصلح التطبيق التربوى ، ولاستقام بالتالى النظام التعليمى . ولما كان المنطلق الحالى فى التعليم ، يشتق فى كثير منه . من فكر سياسى أو اقتصادى أو ثقافى أو بالأحرى فكر وضعى لا يستقيم — فى غالبيته — مع الفكر الاسلامى ، لذلك تحطمت كثير من النتائج التربوية المنشودة ، فوق صخرة التقليد ، وتحت مظلة الأنظمة الجامدة فى التعليم .

والتلميذ فى عصرنا ، بات لا هم له ، سوى منهج يحفظ ، وكلمة تكتب ، ضاربا عرض الحائط بالقيم الأخلاقية الصحيحة ، والعلاقات الانسانية الصادقة .

بيد أننا لو عدنا الى الاسلام ، فسوف نجد أن العلاقات الانسانية نبنى فيه من منطلق أساسى سليم ، ومن ركيزة وحيدة هى : عدم الشرك بالله رب العالمين .

ولكن كيف كان ذلك ؟ ... اذا نقى الضمير عند الفرد معلما أو متعلما ، اذا نقى من أوشاب الشرك فى جميع صوره ، واذا تطهر القلب من أوشاب الخرافة ، واذا تخلص المجتمع من تقاليد الجاهلية ، واذا تطهرت الحياة من عبودية العباد للعباد ، اذا توفر ذلك ، حينئذ سكون ارتباط الفرد المسلم بربه وعلاقته به على بصيرة .

ثم تأتى علاقة الجماعات والأفراد ، مقاسة بهذا المعيار الثابت (عدم الاشراك بالله) الذى نرجع اليه فى كافة الروابط ، ومقاسة كذلك بالقيم الاسلامية التى شأنها أنها تحكم الحياة البشرية ، فلا تظل نهبا

لريح الشهوات والنزوات ، واصطلاحات البشر التى تتراوح مع النزوات والشـــهوات(٦٦) •

ولا نجانب الصواب حينئذ حين نقرر أن اطار العلاقات الانسانية فى ظل هذه القاعدة الاسلامية ، خير ضمان لحسم الكثير من الجدل حول التطبيقات التربوية الصحيحة للعلاقات الانسانية ، ذلكم أن اطارا فى ظل تشريع ثابت ، يربط الخلق بالله أولا ، ويحقق متطلبات البشر الانسانية ثانيا ، ويصحح المفـاهيم الخاطئة نحو المغزى الصحيح للعـلاقات الانسانية ثالثا ، أقول : ان اطارا هـذه مقوماته ، لأجدر بمجتمعاتنا الاسلامية أن تسير فى هديه ، وأن تترسم خطاه ، بدلا من أن تعيش فى ظل أطر وافدة من هنا وهناك ، هى بعيدة عن ديننا أولا ، وهى مفككة فيما بينها ثانيا ، وهى لا تتوافق ومقومات الفرد المسلم ثالثا •

وبهذا فان منهج الاسلام فى بناء العلاقات الانسانية فيه تحقيق لسعادة الفرد والمجتمع على السواء ، طالمـا استقامت علاقة الفرد المسلم بربه ، وتحققت فى اتزان كامل ، وأسلوب صحيح • •

وقبل أن نوضح الدور التربوى للعبادات فى بناء العلاقات الانسانية سوف نشير الى أهمية علاقة المسلم بالله تعالى ، على أنها الركيزة الأولى فى بناء صرح العلاقات الانسانية السليم •

١ ــ **العلاقة بالله تعالى** : اذا تمت علاقة الفرد بخالقه فى اتزان وادراك بأن الله سبحانه وتعالى ، هو وحده المتوكل أمر العباد عليه المعتمد ، تحقق للفرد الاطمئنان والاستقرار فى الحياة • قال تعـالى : **« الذين آمنوا وتطمئن قلوبهم بذكر الله ، ألا بذكر الله تطمئن القلوب »**(٦٧) يقول الامام البيضاوى فى تفسير تلك الآية : « وتطمئن قلوبهم بذكر الله أنسا به واعتمادا عليه ورجاء منه ، أو بذكر رحمته بعد القلق من خشيته أو بذكر دلائله الدالة على وجوده ووحدانيته أو بكلامه يعنى القرآن الذى هو أقوى المعجزات • **« الا بذكر الله تطمئن القلوب »** تسـكن اليـه »(٦٨) •

---

(٦٦) سيد قطب • فى ظلال القرآن • جـ ٣ ، دار الشروق ، ط ١٠ ١٩٨١ ، ص ١٢٢٩ ، ١٢٣٠ • (٦٧) الرعد : ٢٨

(٦٨) الامام ناصر الدين أبو الخـير عبد الله بن عمـر الشيرازى البيضاوى • أنوار التنزيل وأسرار التأويل ، المسمى تفسير البيضاوى • دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع • بدون تاريخ • ص ٣٣٢

ان احسان الفرد المسلم للاتصال بالله ، يعتمد على درجة اتقانه العمل بكتابه ، والالتزام بتعاليم رسالته ، فيتوازن فى ذاته ، ولا يسقط فى مزالق المـــادة أو الجاه والمنصب • ويتحقق باحسان العلاقة بالله كذلك ، توازن حياة الجماعة ، فلا تشتد أزمة بانسان ، ولا تغرى ميسرة انسانا بآخر ، ذلك أن الاتصال بالله يحول دون اذلاله الناس وامتهان كرامة البشرية ، كما أنه يضفى الوقار والاتزان على تصرفات من حباه الله بفضله وأفاض عليه من نعمه •

ولا مناص اذا أرادت البشرية أن تقيم علاقاتها الانسانية بالمنهج الصحيح ، لا مناص لها من اللجوء الى الدين فى تقويم وتهذيب أخلاقها • والناس أفرادا وجماعات يتوقف اطمئنانهم وخيرهم على اتباع الهدى والرشاد وحسن الصلة بالله رب العالمين ، ففى ذلك دفع للبلاء فى حالة الأزمات ، كما أنه فيه دفع لبلاء طغيان الجاه والقوة فى حال اليسر •

والفرد المسلم جيد الاسلام ، هو من تبقى علاقته بربه وقت الفرج والميسرة ووقت النعمة والقوة ، ووقت الجاه والسلطان ، وفى حال العلم والمعرفة ، بنفس مستوى علاقته بربه وقت العسر والشدة ، والضعف والمحنة ، والذلة والحاجة •

وعجيب شأن الفرد ، فى حال الشدة يود أن لو يتمكن من تطبيق رسالة الله ، ويقيم علاقات انسانية على أعلى مستوى ، فيواسى الجار ، ويرعى القريب ، ويطعم المسكين ، ويرشد الجاهل ، ويشد أزر الضعيف • حتى اذا كان فى ميسرة وسعة ، تراه ينكر ذلك ، ويرفض رسالة الله فى خلقه ، فالفقير فى نظره مبتذل ، والضعيف عنده مهان ، والجاهل فى تقديره محتقر ، والمجتمع بما فيه لا يعنيه فى شىء الا بقدر ما ينخر فى عظام الفقراء منه ، ويزيدهم ضعفا على ضعف ، كما لا يعنيه من أمر المجتمع ، سوى ترك الجاهل يتخبط فى جهله ، حتى يظل وحده متميزا بقوته ، منعما فى جاهه وسلطانه •

وهذا هو شأن الانسان (أى انسان) لو ترك وشأنه ـــ دون توجيه من خالقه ودون أن يروض نفسه على العمل بتوجيهات القرآن الكريم ـــ فسوف يتحول أمر الناس الى فريقين :

(ا) فريق له القوة فى صورة من صورها ، فهو لا يقيم وزنا لحرمة ، ولا يضع أهمية لبشر •

(ب) وفريق ضعيف مستضعف ، ذليل مستذل ، لا يؤمل كثيرا فى صاحب قوة أو جاه ، ولا يتوقع عطفا من صاحب مال يستدره منه بضعفه وحاجته .

والنتيجة أن مجتمعا بهذه الفرقة ، لا يشكل مقومات الجماعة المتماسكة . كما لا يتوفر فيه الشعور بالانسانية بين فرد وآخر ، بل العكس هو الصحيح ، خصومة ونفرة متبادلة بين الطرفين ، وحقد وحسد من الضعيف ، وانفراد بالقيمة البشرية داخل أصحاب الجاه والثراء ، دون ما قيمة تذكر لهؤلاء الضعفاء .

والقرآن الكريم يصور حال النفس الانسانية والطبيعة البشرية ، بما يثبت هذا ويبرهن على صدقه وصحته . قال تعالى : « **واذا مس الانسان ضر دعا ربه منيبا اليه ثم اذا خوله نعمة منه نسى ما كان يدعوا اليه من قبل وجعل لله أندادا ليضل عن سبيله ، قل تمتع بكفرك قليلا ، انك من أصحاب النار** »(٦٩) .

ويقول سبحانه وتعالى : « **واذا مس الانسان الضر دعانا لجنبه أو قاعدا أو قائما فلما كشفنا عنه ضره مر كأن لم يدعنا الى ضر مسه ، كذلك زين للمسرفين ما كانوا يعملون** »(٧٠) .

ويقول سبحانه وتعالى : « **واذا مس الناس ضر دعوا ربهم منيبين اليه ثم اذا أذاقهم منه رحمة اذا فريق منهم بربهم يشركون . ليكفروا بما آتيناهم ، فتمتعوا فسوف تعلمون . أم أنزلنا عليهم سلطانا فهو يتكلم بما كانوا به يشركون . واذا أذقنا الناس رحمة فرحوا بها ، وان تصبهم سيئة بما قدمت أيديهم اذا هم يقنطون** »(٧١) .

ويقول سبحانه : « **واذا أنعمنا على الانسان أعرض ونأى بجانبه واذا مسه الشر فذو دعاء عريض** »(٧٢) .

ومع أن هذه الآيات جميعها مكية ، ونزلت فى أولى مراحل الدعوة الى التوحيد والتوجيه الى الخالق الواحد بالعبادة ، ومع أنها كذلك تشير الى طبيعة الانسان قبل أن تتأثر بالتوجيه الالهى ، وبرسالة محمد صلى الله عليه وسلم ، ومع أنها تضع الطبيعة الانسانية بين عسر ويسر ، صحة ومرض ، ضعف وشيخوخة ، علم وجهل ، شر وخير ، ومع أنها

---

(٦٩) الزمر : ٨
(٧٠) يونس : ١٢
(٧١) الروم : ٣٣ — ٣٦
(٧٢) فصلت : ٥١

تصف الانســان باللجوء الى الله حين العسرة ، ونسيانه وقت اليسر والرخاء[٧٣] .

أقول : ومع كل ذلك ، فأظننا لا نجانب الصواب اذا قلنا ، ان حال المسلمين اليوم ، وفى كثرة كثيرة منهم ، هو هو بتلك الطبيعه الانسانيه التى هى جبلة فيه ــ الا من عصم ربى ــ نكران لنعمة الله . ونسيان لفضله ، وهجر للفضائل ، وطمس لحقوق الله ، وبالتالى حقوق العباد ، وتفطع لأوصال العلاقات الانسانية ، وهذه هى جاهلية القرن العشرين .

وأظن أن هذه الآيات تنسحب على كثير مما نراه من حال المسلمين فى عالم اليوم ، والسؤال هو : اذا كان الحال والشأن كذلك فكيف الخلاص ؟ الخلاص يكمن فى حسن الصلة بالله ، والتطبيق لرسالة محمد صلى الله عليه وسلم ، لأن فيها هداية لعقل الانسان ، كما أن فيها اعزاز للحق أينما وجد الحق ، وازهاق للباطل حيثما وجد الباطل .

ودعوة الحق هى دعوة الصفاء للنفوس ، وازالة ما بها من أحقاد وضغائن ، لتحل محلها روابط تجمع الكلمة وتشفى الصدور . قال تعالى : « **ونتنزل من القرآن ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين ولا يزيد الظالمين الا خسارا** »[٧٤] .

يقول الامام البيضاوى فى تفسير الآية : « وننزل من القرآن ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين ، ما هو فى تقويم دينهم ، واستصلاح نفوسهم كالدواء الشافى للمرضى »[٧٥] أما دعوة الباطل فمملوءة بالحقد والفرقة ، وتمزيق الروابط ، لأن أساس الباطل ، الالحاد ، والكفر بالله ، والملحد لا يتهيب سبل الاجرام ، بل يرتكب المنكر ويشيع الفاحشة »[٧٦] .

قال تعــالى : « **يا أيها الناس كلوا مما فى الأرض حــلالا طيبا ولا تتبعوا خطوات الشيطان ، انه لكم عدو مبين . انما يأمركم بالسوء والفحشاء وأن تقولوا على الله مالا تعلمون** »[٧٧] والآية فيها أمر بالاباحة

---

(٧٣) محمد البهى . الاسلام فى حياة المسلم . مكتبة وهبة . ط ٥ ، ١٩٧٧ ، ص ١٥١ ــ ١٥٦

(٧٤) الاسراء : ٨٢

(٧٥) الامام البيضاوى . أنوار التنزيل وأسرار التأويل المسمى تفسير البيضاوى . مرجع سابق ، ص ٣٨٢

(٧٦) محمد البهى . الاسلام فى حياة المسلم . مرجع سابق ، ص ١٥٩

(٧٧) البقرة : ١٦٨ ، ١٦٩

والحل لما فى الأرض ، فيما عدا محظورات نص عليها القرآن نصا •
وهذه الاباحة تثبت تجاوب هذه العقيدة مع نظرة الانسان وفطرة الكون جميعا • من هنا خلق الله ما فى الأرض للانسان ، جعله له حلالا ، لا يقيده الا أمر خاص بالحظر ، والا تجاوز دائرة الاعتدال والقصد ، كل ذلك شريطة أن يتلقى الناس ذلك من الجهة التى ترزقهم هذا الرزق . وهو الله رب العالمين ، ولا يستمعوا لدعاء الشيطان ، لأنه لا يوحى بخير فهو عدو للناس ، لا يأمرهم الا بالسوء والفحشاء[٧٨] • كما لا يأمرهم الا بما ينكد عليهم حياتهم ، ويكدر عليهم عيشهم ، والا بما يقطع أوصالهم ، ويزيل صلة القرابة ، والرحمة والعلاقات الانسانية من بينهم •

قال سبحانه وتعالى : ((**ان الذين يكفرون بآيات الله ويقتلون النبيين بغير حق ويقتلون الذين يأمرون بالقسط من الناس فبشرهم بعذاب أليم • أولئك الذين حبطت أعمالهم فى الدنيا والآخرة وما لهم من ناصرين**))[٧٩] • وليس المقصود فى الآية من يعلن كلمة الكفر • ((انما يدخل فى مدلول هذا الوصف من لا يقر بوحدة الألوهية ، وقصر العبودية عليها • وهذا يتضمن بصراحة وحدة الجهة التى تصرف حياة العباد بالتشريع والتوجيه والقيم والموازين ••• فمن جعل لغير الله شيئا من هذا ابتداء فهو مشرك به أو كافر بألوهيته ولو قالها ألف مرة باللسان))[٨٠] •

ولا مندوحة من القول أن علاقة الفرد بالله رب العالمين ، كانت وما زالت وستظل محور الارتكاز فى تكوين شخصية الفرد ، وتقبل الجماعة له ، فكلما صلحت علاقته بربه ، كلما زاد اتزانه ، وصلحت علاقته بالأفراد الذين يعيش بينهم •

وحتى يحسن الفرد المسلم علاقته بربه ، فلا مناص من أدائه العبادات التى خلق من أجلها ، فأداؤها فرض عليه ، لأن فيها الخير لنفسه ولمن حوله • قال سبحانه وتعالى : ((**وما خلقت الجن والانس الا ليعبدون • ما أريد منهم من رزق وما أريد أن يطعمون • ان الله هو الرزاق ذو القوة المتين**))[٨١] يقول الإمام البيضاوى فى تفسير

---

(٧٨) سيد قطب . فى ظلال القرآن . مرجع سابق ، ص ١٥٥
(٧٩) آل عمران : ٢١
(٨٠) سيد قطب . فى ظلال القرآن . مرجع سابق ، ص ٣٨٢
(٨١) الذاريات : ٥٦ — ٥٨

الآية : « (وما خلقت الجن والانس الا ليعبدون) : لما خلقهم على صوره متوجهة الى العبادة مغلبة لها جعل خلقهم مغيا بها مبالغة فى ذلك ولو حمل على ظاهره • مع أن الدليل يمنعه لنا فى ظاهر قوله : « **ولقد ذرأنا لجهنم كثيرا من الجن والانس** »(٨٢) وقيل معناه الا لنأمرهم بالعبادة أو ليكونوا عبادا لى (ما أريد منهم من رزق وما أريد أن يطعمون) أى ما أريد أن أصرفهم فى تحصيل رزقى فاشتغلوا بما أنتم كالمخلوقين له والمأمورين به • والمراد أن يبين أن شأنه مع عباده ليس شأن السادة مع عبيدهم فانهم انما يملكونهم ليستعينوا بهم فى تحصيل معايشهم ويحتمل أن يقدر بـ « قل » فيكون معنى قوله قل لا أسألكم عليه أجرا ان الله هو الرزاق الذى يرزق كل ما يفتقر الى الرزق ، وفيه ايماء باستغنائه عنه »(٨٣) •

* * *

٢ — دور الصلاة فى بناء العلاقات الانسانية : لما كانت تربية المسلم على الفضيلة ، والأخلاق الحميدة ، هدفا من أهداف التربية الاسلامية ، ولما كانت الماديات ومظاهر الترف ، كثيرا ما تنسى الانسان الفضيلة والقيم الأخلاقية ، فيتأرجح بين سلوك الخير والشر ، ويميل الى أقرب الطرفين توافقا مع شعوره ، ينغمس فيه حتى أذنيه ، لما كان ذلك كذلك ، جاءت العبادات كضوابط ووسائط ، تعيد صلة المرء بالله رب العالمين ، وتحميه من الزيغ والتوهان ، وترده الى حظيرة الايمان ، فى ظل الرجاء لرحمة الله والخوف من عقابه •

والعبادة فى الاسلام تخرج من نطاق الرهبنة تماما ؛ فلا رهبانية فى الاسلام ، بل توسط واتزان وتناسق للطبيعة الانسانية • والعمل صنو العبادة قال تعالى : « **ان الذين آمنوا وعملوا الصالحات انا لا نضيع أجر من أحسن عملا** »(٨٤) •

« **ان الذين آمنوا وعملوا الصالحات كانت لهم جنات الفردوس نزلا** »(٨٥) •

« **يا أيها الذين آمنوا اذا نودى للصلاة من يوم الجمعة فاسعوا الى ذكر الله وذروا البيع ، ذلكم خير لكم ان كنتم تعلمون • فاذا قضيت**

---

(٨٢) الأعراف : ١٧٩

(٨٣) الامام البيضاوى . انوار التنزيل واسرار التاويل . مرجع سابق ، ص ٦٩٣

(٨٤) الكهف : ٣٠

(٨٥) الكهف : ١٠٧

الصلاة فانتشروا فى الأرض وابتغوا من فضل الله واذكروا الله كثيرا لعلكم تفلحون »[(٨٦)] فالترابط بين العبادة والعمل من أجل الرزق ، ترابط ايجابى ، على أن العبادة يجب أن تعين على العمل ، لا أن تحول دونه . كما أن العمل يجب أن يساعد على أداء العبادة ، لا أن يحول دونها . والانسان بلا عمل هو فى نظر الاسلام : انسان عار عن أداء العبادة . لأن الله سبحانه لا يرضى عن الانسان السلبى الذى لا يعمل من أجل رزقه . كما لا يرضى عن الانسان الذى يؤدى العبادة لله تعالى فقط .

والفرد المسلم هو الذى يعمل ويؤدى العبادة لله ، ويتجنب ما يعكر صفو علاقاته مع الآخرين ، فلا يقتات من حقوقهم ، ولا يقصر فيما يجب عليه نحوهم .

كما أن الفرد المسلم هو من لا يتواكل ويقعد عن العمل ، ولا يترهب فينسلخ من طبيعته الانسانية ومتطلباتها من زواج وتناسل ومخاطره فى سبيلهما ومسئولية ومشاركة من أجلهما .

ومن هنا كانت حياة الانسان على هذه الأرض حياة تجربة بين الايجابية والسلبية ، ومباشرة العمل هى التى تكشف الايجابية والسلبية ، فلا تعرف هاتين الصفتين الا بمباشرة العمل والارتباط بالآخرين ، فضلا عن الارتباط بالأسرة ومعاشرة الزوجة وانجاب الأبناء ، فالرهبنة فى الاسلام أمر غير طبيعى ، بل هى اتجاه سلبى فى حياة الفرد لم يأذن به الله . وان وجدت فهى ابتداع من الانسان وليست ضمن الطبيعة الانسانية .

والقرآن الكريم ، وضع الرسل فى مستوى طبائع البشر ، ليسوا فوقهم ، بل لهم نفس الطبيعة الانسانية من الأكل والشرب والزواج والنسل[(٨٧)] .

قال تعالى : **« ولقد أرسلنا رسلا من قبلك وجعلنا لهم أزواجا وذرية »**[(٨٨)] .

وقال سبحانه : **« وما أرسلنا قبلك من المرسلين الا انهم ليأكلون الطعام ويمشون فى الأسواق »**[(٨٩)] على أن العبادة فى مجملها تستهدف

---

(٨٦) الجمعة : ٩ ، ١٠

(٨٧) محمد البهى . منهج القرآن فى تطوير المجتمع . مكتبة وهبة ، القاهرة . ١٩٧٩ ، ص ١٠٧ ، ١٠٨

(٨٨) الرعد : ٣٨

(٨٩) الفرقان : ٢٠

مساعدة المؤمن فى أن يرقى الى المستوى الفاضل فى الانسانية ، دون الحيلولة فى أن يباشر سعيه وعمله من أجل الرزق .

واذا كانت الصلاة تأتى على رأس العبادات التى ينبغى أن يمارسها المسلم ، فان أداءها فى جماعة أفضل من أدائها فرادى بخمس وعشرين درجة ، لما فى ذلك من تلاحم المسلمين فى صفوف متراصة ، متساوية ، لا اعوجاج فيها ، ولا خلخلة بينها . فعن أبى هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « صلاة الرجل فى جماعة تزيد على صلاته فى بيته وصلاته فى السوق خمسا وعشرين درجة ، وذلك بأن أحدكم اذا توضأ فأحسن الوضوء ، وأتى المسجد لا يريد الا الصلاة ، ولا ينهزه الا الصلاة ، لم يخط خطوة الا رفع له بها درجة ، وحط بها عنه خطيئة ، حتى يدخل المسجد ، فاذا دخل المسجد كان فى صلاة ما كانت الصلاة تحبسه ، والملائكة يصلون على أحدكم ما دام فى مجلسه الذى صلى فيه ، يقولون : اللهم اغفر له ، اللهم ارحمه ، اللهم تب عليه ، ما لم يؤذ فيه ، أو يحدث فيه »(٩٠) .

ولا شك أن هذا التلاحم الحسى — الشأن فيه — لابد أن يتحول الى تلاحم قيمى ومعنوى ، يظهر أثره فى العلاقات بين المصلين حتى تذوب من بينهم الفرقة والشقاق والتعالى والتباهى ، ليحل محلها الوفاق والتواضع والتسامح والتوادد والمحبة . قال تعالى : « **اتل ما أوحى اليك من الكتاب وأقم الصلاة ، ان الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر ، ولذكر الله أكبر ، والله يعلم ما تصنعون** »(٩١) .

يقول الامام البيضاوى فى تفسير الآية : « اتل ما أوحى اليك من الكتاب تقربا الى الله بقراءته وتحفظا لألفاظه واستكشافا لمعانيه فان القارىء المتأمل قد ينكشف له بالتكرار ما لم ينكشف له أول ما قرع سمعه . وأقم الصلاة ان الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر بأن تكون سببا للانتهاء عن المعاصى حال الاشتغال بها وغيرها من حيث انها تذكر الله وتورث للنفس خشية منه . روى أن فتى من الأنصار كان يصلى مع رسول الله صلى الله عليه وسلم الصلوات ولا يدع شيئا من الفواحش الا ركبه فوصف له فقال : « ان صلاته ستنهاه » فلم يلبث الا أن تاب .

---

(٩٠) الحافظ المنذرى . مختصر سنن أبى داوود . ج ١ . تحقيق محمد حامد الفقى . مكتبة السنة المحمدية ، القاهرة ، ١٣٦٨ هـ / ١٩٤٩ م ، ص ٢٩٤

(٩١) العنكبوت : ٤٥

ولذكر الله أكبر ولا الصلاة أكبر من سائر الطاعات وانما عبر عنها به للتعليل بأن اشتمالها على ذكره هو العمدة فى كونها مفضلة على الحسنات ناهية عن السيئات ولذكر الله اياكم برحمته أكبر من ذكركم اياه بطاعته والله يعلم ما تصنعون ومن سائر الطاعات فيجازيكم به أحسن المجازاة »[٩٢] .

ولو لم يكن للصلاة من مغزى وهدف سوى أنها تحيى ضمير الانسان ، فتنهاه عن ارتكاب الفواحش والمنكرات التى تؤدى الى اعتداء على الحرمات ، وهتك للأعراض وقطع للأوصال ، وفسخ للقيم ، أقول لو لم يكن للصلاة سوى وضع الفرد فى تنسيق واتزان مع طبيعته الانسانية وقيمه الأخلاقية لكفاها ، ناهيك عن طاعة الله وعبادته والامتثال لأوامره والرقى بوجدانه وعاطفته ، حتى يتحول الى انسان متعاون مع اخوانه المحتاجين ، يأخذ بيدهم ويمد لهم يد المساعدة والعون ، فيتماسك المجتمع الانسانى فى ظل العلاقات الانسانية التى تقوم على الأخوة والمودة والروابط السليمة وتبادل المصلحة ، فى ظل السماحة والمحبة والعدل والمساواة .

ولا نشك للحظة أن بناء الدولة الاسلامية فى مهدها الأول ، يرجع الفضل فيه الى وحدة المسلمين وتماسكهم ، ففى المسجد يتلاحمون وفيه يقفون صفوفا متراصة ، وبداخله يتبادلون العون والمساعدة ، وفيه تجمع الزكاة والصدقات ، وفيه يستنفر المسلمون للقتال ، ويجمعون المال للاعداد للحرب والدفاع عن الاسلام ، ناهيك عن زيارة المريض الذى غاب عن الصلاة ، ومساندة المحتاج والتفريج عن المكروب .

واذا كانت الجماعة واجبة فى أوقات الصلاة كلها ، من أجل الالتحام والتماسك الاجتماعى فانها أوجب فى صلاة الجمعة وصلاة العيدين قال تعالى : **« يا أيها الذين آمنوا اذا نودى للصلاة من يوم الجمعة فاسعوا الى ذكر الله وذروا البيع ، ذلكم خير لكم ان كنتم تعلمون . فاذا قضيت الصلاة فانتشروا فى الأرض وابتغوا من فضل الله واذكروا الله كثيرا لعلكم تفلحون »**[٩٣] .

فصلاة الجمعة لها طابع خاص فى أن تؤدى فى جماعة ، والحرص على أدائها فى جماعة ، يدعو الى السعى اليها حين يؤذن المؤذن لها ،

---

(٩٢) الامام البيضاوى . انوار التنزيل واسرار التأويل . مرجع سابق ، ص ٥٣٠

(٩٣) الجمعة : ٩ ، ١٠

وترك العمل فترة أدائها فى جماعة ، الأمر الذى يزيد من الروابط وفيه الخير للمسلمين فى أمر الدنيا والدين .

ولا يلزم من أداء الجمعة فى جماعة . التفرغ لها أكثر من وقت أدائها ، فاذا انتهت عاد المسلم الى الحركة والسعى من أجل الرزق . **« فاذا قضيت الصلاة فانتشروا فى الأرض وابتغوا من فضل الله »** « وبذلك يكون هناك تكافؤ فى المنزلة عند الله ، بين : أداء العبادة .. ومباشرة العمل فى سبيل العيش ، ويستوى نوع العمل فى سبيل العيش أن يكون تجارة .. أو زراعة .. أو حرفة ما .. أو كشفا لموارد جديدة من فضل الله فى الأرض التى يعيش عليها الانسان » **« واذكروا الله كثيرا لعلكم تفلحون »** « ولكن لا تنسيكم عودتكم الى حياة العمل وحركته ، ذكر الله بل يجب أن تكونوا على ذكر منه كذلك فى مباشرة عملكم ، اذا أردتم النجاح فيه . فذكر الله سيجعل وعيكم واضحا لما يحل ولما يحرم : من ضروب الحصول على المال ، واقتناء الملك . وعندئذ تحرصون أن يكون طريقكم فى الحصول على الرزق هو الطريق الذى لا يؤذى غيركم ان لم يعنه على منفعة له »(٩٤) .

* * *

٣ ــ دور الزكاة فى بناء العلاقات الانسانية : ألمحنا أن الصلاة لها دور فى بناء العلاقات الانسانية على مستوى الجماعة التى ينتمى اليها الفرد ، بالاضافة الى أنها طاعة لله رب العالمين ، فيها بناء للروح والوجدان والضمير الأخلاقى . وتأتى الزكاة قرينة الصلاة فى كثير من آيات القرآن الكريم . قال تعالى : **« تتجافى جنوبهم عن المضاجع يدعون ربهم خوفا وطمعا ومما رزقناهم ينفقون »**(٩٥) وصدر الآية كناية عن مداومة الصلاة ، كما أن عجزها يدل على أن الانفاق من فضل الله ونعمته .

وهكذا يكون الانفاق بوجه عام مرحلة من المراحل التى سامتت تكوين المجتمع الاسلامى ، قبل تعيين فريضة الزكاة ، ولقد كان طلب الانفاق فى مبدأ الدعوة من أجل الخير للانسانية كما طلب فى صورة غير مباشرة ، وهو أن الذى لا ينفق على صاحب الحاجة فى الأمة هو من

---

(٩٤) محمد البهى . منهج القرآن فى تطوير المجتمع . مرجع سابق ، ص ١٠٦ ، ١٠٧ .

(٩٥) السجدة : ١٦

الماديين الوثنيين غير المؤمنين ، لأن المادى هو الفرد الأنانى الذى لا يتأثر بالرابطة الاجتماعية والانسانية فى تعامله • بينما يكون المؤمن هو الذى يرتفع فى علاقاته بغيره عن الأسباب والدواعى المادية • قال تعالى : ((**أرأيت الذى يكذب بالدين • فذلك الذى يدع اليتيم • ولا يحض على طعام المسكين**))(٩٦) •

والتكذيب بالدين هو نكران الجزاء الأخروى ، وانكار البعث والجزاء والمنكر لذلك هو الوثنى المادى ، فالتكذيب بالدين تعبير عن انكار الآخرة • والذى يدع اليتيم ، هو من يحرمه من حق فى تسلم ماله ، وفى استثماره استثمارا طيبا وهو تحت حوزته ((**ولا يحض على طعام المسكين**)) أى أن من يكذب بالدين هو كذلك من يتراخى ويهمل تلبية حاجة ذى الحاجة •

من هنا تكون صفة المؤمن على الضد من صفة المادى ؟ لأن صفة المؤمن تقوم على النجدة والتعاون مع الآخرين فى الأمة • والتنديد بالمادى فى الآية ، فيه ايحاء غير مباشر بطلب الانفاق من المؤمن فى سبيل المصلحة العامة(٩٧) •

وجريا على منهج الاسلام فى أسلوب التدرج ، وبعد أن أصبح الانفاق من الصفات اللازمة للمؤمنين ، أو المكونة لمفهوم اتصافهم بالايمان ، تأتى سورة البقرة لتقرر الحد الأدنى للانفاق وتسميه بالزكاة ، كما تضع الحد الأعلى له وتسميه ((بالعفو)) أى الزائد عن حاجة صاحب المال فى الانفاق على نفسه ومن يجب عليه أن يعولهم قال تعالى : ((**وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة ، وما تقدموا لأنفسكم من خير تجدوه عند الله ، ان الله بما تعملون بصير**))(٩٨) فى الآية طلب للزكاة تناولت السنة تفصيل وجوبه ، وأسلوب اخراجه ، فى الأموال وفى الزراعة والتجارة والمعادن والثروة الحيوانية والمدخرات ، على أن الانفاق بالقدر الزائد عن الحد الأدنى الذى تقرر بالزكاة ما زال مستمرا ، وما زال بابه مفتوحا أمام المسلم ، يدل عليه عجز الآية : ((**وما تقدموا لأنفسكم من خير تجدوه عند الله**)) •

وعموما فان الاسلام أنزل الزكاة منزلة رفيعة ، بل جعلها من صفات المتقين الصادقين ، كما قرنها باقام الصلاة ، والصبر فى الشدائد ،

---

(٩٦) الماعون : ١ — ٣
(٩٧) المرجع السابق ، ص ١٢ ، ١٣
(٩٨) البقرة : ١١٠

والوفاء بالعهود ، وأيضا جعلها أمارة الصدق فى الايمان والبعد عن مسالك الماديين والوثنيين[٩٩] قال تعالى : « **ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبيين وآتى المال على حبه ذوى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل والسائلين وفى الرقاب وأقام الصلاة وآتى الزكاة والموفون بعهدهم اذا عاهدوا ، والصابرين فى البأساء والضراء وحين البأس ، أولئك الذين صدقوا ، وأولئك هم المتقون** »[١٠٠] .

وقوله تعالى : « **وآتى المال على حبه** » أى على حب المال كما قال عليه السلام حين سئل أى الصدقة أفضل ؟ قال : « أن تؤتيه وأنت صحيح شحيح تأمل العيش وتخشى الفقر . ذوى القربى اليتامى » يريد المحاويج منهم ولم يقيد لعدم الالتباس . وقدم ذوى القربى لأن ايتاءهم أفضل كما قال صلى الله عليه وسلم : « صدقتك على المسكين صدقة ، وعلى ذوى رحمك اثنتان : صدقة وصلة » والمساكين جمع مسكين وهو الذى أسكنه الخلة . وابن السبيل هو المسافر . والسائلين الذين ألجأتهم الحاجة الى السؤال . قال عليه السلام : « للسائل حق وان جاء على فرسه » . وفى الرقاب : وفى تخليصها بمعاونة المكاتبين أو فك الأسارى أو ابتياع الرقاب لعتقها « وأقام الصلاة » : المفروضة « وآتى الزكاة » : يحتمل أن يكون المقصود منه ومن قوله : « وآتى المال » : الزكاة المفروضة ، ولكن الغرض من الأول بيان مصارفها ومن الثانى أداؤها والحث عليها ، ويحتمل أن يكون المراد بالأول نوافل الصدقات أو حقوقا كانت فى المال سوى الزكاة . يقول الامام البيضاوى : « والآية كما ترى جامعة للكمالات الانسانية بأسرها دالة عليها صريحا أو ضمنا فانها بكثرتها أو تشعبها منحصرة فى ثلاثة أشياء : صحة الاعتقاد وحسن المعاشرة وتهذيب النفس . وقد أشير الى الأول بقوله : « من آمن بالله » — الى « والنبيين » . والى الثانى بقوله : « وآتى المال » الى « وفى الرقاب » .. والى الثالث بقوله : « وأقام الصلاة » الى آخرها . ولذلك وصف المستجمع لها بالصدق نظرا الى ايمانه واعتقاده وبالتقوى اعتبارا بمعاشرته للخلق ومعاملته مع الحق واليه أشار بقوله عليه السلام : « من عمل بهذه الآية فقد استكمل الايمان »[١٠١] .

---

(٩٩) المرجع السابق : ص ١٥ ، ١٦ (١٠٠) البقرة : ١٧٧

(١٠١) الامام البيضاوى . أنوار التنزيل وأسرار التأويل . مرجع سابق ، ص ٣٦

ولعلنا ندرك حينئذ أن العلاقات الانسانية الصحيحه ، يقيمها الاسلام بمناهج العبادة ، بحيث تتزامن العلاقات الانسانية ويظهر أثرها مع أداء الفرد المسلم لتلك العبادة • والترابط بين مصالح البشر فى الدنيا وأدائهم للعبادة أمر مقرر فى هذا الدين لأنه دين « لا يغفل أبدا عن الواقع العملى فى محيط الحياة ، ولا عن حقيقة النفس البشرية ، وما يعتورها من ارتفاع وهبوط ، وتطلع وانكماش ، وأشواق طائرة ، وضرورات مقيدة ، وطاقة محدودة ، على كل حال ، دون الكمال المطلق فى جميع الأحوال •

وعلى قدر علمه العميق بأغوار النفس البشرية يشرع ويوجه ، ويصوغ أوامره ونواهيه ، ويضع حدوده وينفذها ، ثم يهتف للضمير البشرى أن يتسامى فوق التكاليف المفروضة ما استطاع • والحياة تصبح ممكنة وصالحة ، اذا نحن نفذنا التكاليف المفروضة فى هذا الدين »(١٠٢) •

وحين تنفذ تكاليف الدين ، فسوف نضمن التكافل الاجتماعى ، بحيث يصبح آحاد الشعب فى كفالة الجماعة ، وأن يكون كل قادر أو ذى سلطان كفيلا فى مجتمعه يمد أخاه بالخير ، فتلتقى كل القوى الانسانية فى المجتمع من أجل مصالح الفرد ودفع الضر عنه ، وأيضا دفع الضرر عن البنيان الاجتماعى واقامته على أسس سليمة • قال صلى الله عليه وسلم : « مثل المؤمنين فى توادهم وتراحمهم وتعاطفهم كمثل الجسد الواحد اذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الأعضاء بالسهر والحمى » وقال صلى الله عليه وسلم : « المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضا »(١٠٣) •

وبهذا التكافل يتحقق المجتمع الفاضل الذى يتناسق أفراده فى سلسلة واحدة ، قوامها التوحيد وأسلوبها الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر •

هذا واذا كانت عملية اعداد الفرد فى نظم التربية الحديثة ، تختلف من مجتمع الى آخر وفقا لما يحدده كل مجتمع من نوعية ذلك الفرد ،

---

(١٠٢) سيد قطب . العدالة الاجتماعية فى الاسلام . دار الشروق . بيروت ، القاهرة ١٩٧٤ ، ص ٧٧

(١٠٣) محمد رأفت عثمان . الحقوق والواجبات والعلاقات الدولية فى الاسلام ، ط ٢ ، مطبعة السعادة ، القاهرة ١٩٧٥ ، ص ١٢٨

وما يبتغيه ويتوقعه منه ، الأمر الذى ترتب عليه اختفاء منهج التربية العالمية ، لتحل محلها تربية اجتماعية لمجتمع معين بالذات • أقول : اذا كان ذلك كذلك ، فان نظام الاسلام يصنع الاطار المتكامل للكائن الانسانى ، ويسعى فى تربيته وفقا للعناصر المكونة له ، سواء منها : العنصر الحيوى أو الشخصى أو الأسرى أو الاجتماعى أو الانسانى • من هنا كانت عالمية الاسلام — اذا أحسن تطبيقه — وأسلوبه فى بناء البشر بنمط واحد ، لا مجال فيه لمتفلسف أو صاحب منهج وضعى ، لأن مقوماته مستمدة من السماء ، والقيم الأخلاقية تتطلب ازدهار هذا المجموع من العلاقات المتشابكة فى الانسان ، لأنها كل مترابط ، وهو قابل للتطور والتقدم ، ولا يمكن نغفل واحدا من هذه العلاقات دون أن نوجد التناسق بينها ودون أن نربى على التوازى جميع الجوانب الى مستوى معين ، أى أن النفس الانسانية يجب أن تمارس جميع القيم ومنها « ان لربك عليك حقا ، ولنفسك عليك حقا ، ولأهلك عليك حقا ، فاعط كل ذى حق حقه »[104] •

وهكذا تصبح فريضة الزكاة وسيلة لترسيخ وتدعيم وبناء المجتمع المتماسك ، شريطة أن يأتى أداء المسلم لهذه العبادة بنية صادقة ، تتسم بالحقائق والموضوعية والوضوح ، بعيدا عن الشكلية فى الأداء والمظهرية فى العمل ، ومتضمنة للقيم التى يمكن أن تسهم فى بناء الأفراد وبالتالى فى بناء المجتمع •

* * *

٤ — دور الصيام فى بناء العلاقات الانسانية : لم تخل أركان الاسلام جميعا من صلاة وزكاة وصيام وحج من هدف تربوى ، ومغزى انسانى ، يرتبط بالقيم والمبادىء التى تسير ركب الحياة ، ولا تخلو هذه عن أن تكون عبادة بدنية ، مثل الصلاة والصيام ، أو مادية تتصل بالمال وهى الزكاة ، أو بدنية مادية كالحج •

وتكليف المسلم بتلك العبادات لا يعنى المشقة فى مظهرها الجسمى والمادى ، والحيلولة دون ممارسة الانسان تمتعه بالحياة من مال أو بدن ، انما يهدف الاسلام بالتكليف البدنى أو المادى تصفية الروح

---

(١٠٤) محمد عبد الله دراز • دستور الأخلاق فى القرآن • دراسة مقارنة للأخلاق النظرية فى القرآن • مؤسسة الرسالة • بيروت ، ط ١ ١٩٧٣ ، ص ٨٩ ، ٩٠

وتهذيب النفس ، يهدف الى أن ينتهى المسلم عن الفحشاء والمنكر بأداء الصلاة . ويهدف أيضا الى تقوية العلاقات الأخوية وتدعيم روح القربى والجوار بالزكاة ، ويهدف كذلك الى تجنب اللغو فى القول والباطل من العمل بالصيام ، وأخيرا يهدف الى تجديد العهد بالأخوة الصادقة بين المسلمين فى سبيل رسالة كريمة لأنفسهم وللانسانية بأدائهم الحج الذى فيه اضافة لما تقدم تذكير للمؤمنين بأول بقعة نشأت فيها دعوة الاسلام . وبآخر مكان جاء فيه نصر الله والفتح[١٠٥] .

واذا كانت الصلاة تقوم على تخلية الانسان نفسه من شواغل الدنيا حين يتوجه الى الله بقوله : « الله أكبر » واذا كانت الزكاة هى أداء حق الفقراء والمساكين وغيرهما من أصناف المستحقين للزكاة . واذا كان الحج يتسم بمشقة البدن فى السفر ، وبذل المال بالانفاق . اذا صح ما تقدم ، فان الصيام ينفرد بكونه كفاحا وجهادا موجها من الذات ضد الذات ، وموجها من نفس الانسان ضد رغبات جسمه وبدنه . عن أبى هريرة رضى الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : « كل عمل ابن آدم يضاعف الحسنة بعشر أمثالها الى سبعمائة ضعف ، قال الله عز وجل : الا الصوم فانه لى وأنا أجزى به ، يدع شهوته وطعامه من أجلى » .

وفى عدم تحديد جزاء الصائم فى هذا الحديث من قبل الله عز وجل ، بمثل ما ذكر فى صدر الحديث من مضاعفة الحسنة بعشر أمثالها الى سبعمائة ضعف ، مما يؤكد على تفرد الصوم من بين سائر العبادات الأخرى . بتساميه عن التحديد والتقدير عند الله عز وجل ، وعبادة هذا شأنها . وتلك منزلتها ، لا شك أنها الوحيدة التى يبرز فيها الصراع والكفاح من الانسان الى شىء يتعلق بذات الانسان ، لأن الصائم يكافح ويجاهد الهوى والشهوة ، لينتصر لايمانه بالله رب العالمين ، وليكبح جماح الالف والعادة التى تلازمه فى حياته اليومية ، فينتصر بارادته ، ويحيى ضميره ، ويخضع رغبات بدنه وروحه ، فيصير صاحب الأمر عليها ، بدلا من أن يكون مستسلما ذليلا لها .

والمسلم تتنازعه قوتان : دعوة الشهوة ، ودعوة الرحمن ، فبينما الأولى تستهويه ليلبى نداءها ، ويستجيب لمطالبها ، فان الثانية تناديه أن يكف عن تلبية رغبات النفس وشهوات الجسم ، ويطيع الله رب

---

(١٠٥) محمد البهى . الاسلام فى حياة المسلم . مرجع سابق ، ص ٣٥ .

العالمين ، فيدع طعامه وشهوته من أجل الله ، عندئذ يصبح خليقا باحتضان الله له مستحقا لمثوبته وجزائه اللامحدود ، بعد أن أتى بهــذا العمل الشاق ، وانتصر لنفسه من ذاته وسيطر عليها ، وأيقظ فيها الضمير ، فيصبح انسانا مراقبا لأعماله ، متمسكا بقيمه ومبادئه ، مجتنبا لليأس والاخفاق عند المحن والكروب ، كاظما غيظه حين يكون كظم الغيظ حكمة ، صابرا ومتحملا فى سبيل تحصيل رزقه ، ضاربا بأخلاقه المثل الأعلى فى محبة اخوانه ، لأنه لا يستطيع أن يعيش وحده ، انما هو مرتبط بمجتمع ومرتبط بآخرين يشاركونه الحيــاة والعمل والمنافسة فلا مندوحة له من استثمار درس الصيام ، وما خرج به منه من تعلم للصبر ورقابة على النفس ، لا مندوحة من استثمار ذلك فى السمو بعلاقاته الانسانية مع الآخرين ، لتصبح نفسه مؤهلة للقاء ما تفرضه الحياة عليها من حرمان ، وما تحدثه من أزمات ، كما تصبح نفس الغنى مقبلة على مساعدة المحروم ، والأخذ بيد المريض والعاجز ، بذلك يلتئم صدع المجتمع ، وتبدو فيه العلاقات الانسانية ، التى قوامها المشــاركة فى العبادة ، الأمر الذى يميز المسلمين عن غيرهم من الامم والمجتمعات ، ليس فى أدائهم للعبادة فقط ، وانما فى كونهم أمة لا تتخلف عن نداء ربها وتطبيق شرع الله فيما بينها .

والصيام بهذا المفهوم يعيد للأمة تماسكها ، وللأفراد ترابطهم ، فلا ينبغى أن يكون الصيام ، سببا لنفرة الأفراد بعضهم من بعض ، أو محركا للخلاف والشقاق ، أو داعيا لاهمال العمل أو التراخى فيه ، أو التستر خلفه دفعا للوم أو تبريرا لاهمال ، أو تواكلا عن عمل ، فالصيام فيه وحدة القلوب والمشاعر ، ولا مكان فيه لتبرير مهمل ، أو اعــتذار مقصر ، أو تمزيق لألفة ، بل عكس ذلك يكون ، تلاق وتصاف ، وتماسك وترابط تحت مظلة التوحيد وتلبية نداء الله رب العالمين »[١٠٦] .

والمجتمع المتمسك بأداء الصوم ، هو المجتمع الذى يمتثل أوامر الله ، ويلبى دعوته ونداءه ، هو المجتمع الذى يشيع فيه العدل والسلام والأخوة من التعاون فيتسامى الى مستوى أرفع فى الانسانية ، وهو المستوى المهذب الصافى الطاهر البعيد عن الحقــد والايذاء ، والفرد الصائم هو الانسان الصلب الذى يؤثر انسانيته على ما فيه من حيوانية ،

---

(١٠٦) محمد البهى . الاســلام فى حياة المسلم . مرجع ســابق ، ص ١٩ ــ ٢٥

فيدفع بصومه قوة اعتدائه على نفسه ، ويتهيأ لعدم الاستسلام للشر أيا كان مصدره ، لأنه طالما امتثل لله ، فهو لا يرضخ لما عداه من قوى الطغيان والفساد .

ولا غرابة فى ذلك ، فالصائم الذى تمرس على أن يتحمل الجوع والعطش طوال النهار ، والصائم الذى كف عن لغو الحديث مما يقع فى الحياة اليومية . والصائم الذى أمسك شهوته وكف جماحها ، الصائم الذى آتى بذلك كله خليق أن يلتزم بالتوجيه السليم فى الحياة ، ويتغلب على متاعبها وصعابها ويسعى فى سبيل تماسك أفرادها ، لأن هدف الصوم هو اخراج الفرد المسلم من دائرة الطفولة الى دائرة الرشد الانسانى(١٠٧) .

والصوم بذلك وسيلة لا غنى عنها لبناء الفرد الذى يستطيع أن يحمل رسالته فى الحياة ويؤديها على وجهها الصحيح ، بما يسعد نفسه لا بما يشقيها ، وبما يحييها لا بما يميتها .

وعموما فان الانسجام فى الطابع العام للمجتمع ، ووحدة الشعور والروابط والاتجاه هى سمات المجتمع المسلم الصائم ، الذى استطاع السيطرة على رغبات النفس ، وتحكم فيها بالقدر الذى يحد من متطلباتها وأغراضها . ومجتمع هذا شأنه ليس فى حاجة الى أن يراقب بعض أفراده بعضه الآخر فى أداء الواجب ، كما أنه ليس فى حاجة الى الشحناء والمخاصمة والتقاضى ، لأنه يفعل بوحى من ضميره . ووحى ضميره هو ما يخشى فيه الله سبحانه وتعالى وهو ما يطلبه ربنا سبحانه من عباده « **وأن هذا صراطى مستقيما فاتبعوه ، ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله** »(١٠٨) .

والمجتمع الذى يتمسك بأداء الصيام ويستخدم الارادة والعزم والتصميم كوسيلة له ، يستطيع بها أن يخلص فى أداء الفريضة ، بعيدا عن الانحراف أو الزيغ ، رجاء التقوى(١٠٩) . قال تعالى : « **يا أيها الذين آمنوا كتب عليكم الصيام كما كتب على الذين من قبلكم لعلكم تتقون** »(١١٠) .

---

(١٠٧) المرجع السابق ، ص ٢٧ — ٣١
(١٠٨) الأنعام : ١٥٣
(١٠٩) المرجع السابق ، ص ٣٢ — ٣٤
(١١٠) البقرة : ١٨٣

وقال سبحانه : **« شهر رمضان الذى أنزل فيه القرآن هدى للناس وبينات من الهدى والفرقان ، فمن شهد منكم الشهر فليصمه ، ومن كان مريضا أو على سفر فعدة من أيام أخر »**(111) .

ولا نعدو الصواب حين نقول : ان مساعدة الضعفاء فى المجتمع ، هدف يقرره الاسلام ، ويسهم الصوم فيه بنصيب ، حيث يتعود الصائم الاحسان الى الفقراء والمحتاجين ، من أجل « سلامة المجتمع من التفتت والتفكك من الروابط التى جمعت بين أفراده بتصفية النفوس من الحقد وتزكيتها وتطهيرها من غلواء الأنانية أو المادية : الزكاة عن طريق الاعطاء والمعاونة والصوم عن طريق تحمل الحرمان من المتع المادية ، ومن أجل تلازمهما فى تضامن المجتمع قيل : ان الصوم جاء التكليف به فى السنة الثانية من الهجرة وهى السنة التى جاء فيها التكليف بالانفاق الخير على وجه عام »(112) .

وبهذا العرض يمكن القول ان عبادة الصوم ، فيها رحمة وبر وتكافل اجتماعى ، كما أن فيها علاقات انسانية بين الفرد والفرد ، والفرد والجماعه ، الجميع يشملهم العدل الانسانى ، الذى لا يتوفر فى أى نظام وضعى قديما كان أم حديثا .. ذلكم هو الاسلام .. بعباداته السامية .

* * *

٥ — دور الحج فى بناء العلاقات الانسانية : التربية بكل مقوماتها الدينية والاجتماعية والاقتصادية ، تسعى دائما لخدمة الفرد والمجتمع ، وهى فى هذا تؤثر فى تسيير حركة المجتمع ، كما أنها تتأثر بما يدور داخل الحياة الاجتماعية من نظم وأيديولوجيات .

غير أننا فى المجتمع الاسلامى — الشأن فينا — نضع مقدساتنا الدينية فى المقام الأول ، نتلمس فيها مصادر التربية الصحيحة ، ونجد فى مبادئها الاطار السليم لبناء منهج التربية المستقيم .

من هنا كان مشهد الحج درسا فى التربية ، تتجلى فيه مواقف وتظهر فيه خبرات ، يتعلم منها المسلم ، كثيرا من المبادىء والقيم والأنماط التربوية . وتأتى العلاقات الانسانية فى مقدمة المبادىء التربوية المستفادة

---

(111) البقرة : ١٨٥

(112) محمد البهى . منهج القرآن فى تطوير المجتمع . مرجع سابق ، ص ٢٥

من هذا الموقف الذى جعله الاسلام ركنا أساسيا من أركان الاسلام لكل مقتدر ومستطيع •

ونحن فى هذا المقام ، سنقصر حديثنا عن العلاقات الانسانية فى الحج • كثمرة تربوية ، ومبدأ من المبادىء التى تسهم فى ترسيخ دعائم المجتمع المتكامل • فطالما أدرك كل فرد ما له من حقوق وما عليه من واجبات بعيدا عن الأنانية وحب الذات ، فقد استقر المجتمع ، وتثبتت أركانه فى ظل المبادىء الاسلامية الساميه •

والحج فى مظهره جمع حاشد من المسلمين توافدوا من شتى بقاع الأرض ومن كل فج عميق ، يحـدوهم الأمل والرجاء فى رضـوان الله ومغفرته • وهم بلا شك شاءوا أم أبوا لابد متبادلين الخير والمنـافع فى شئون دينهم ودنياهم • ذلك لأن الانسان اجتماعى بطبعه يميل الى الناس ، يتعلم منهم ويعلمهم ، وفى تلك المحكات تتكون العلاقات وتربو ، ويظهر أثرها جليا فى سلوك الفرد ، فيتحول من الأنانية الى الأثرة ، من الفردية والذاتية ، الى الجماعة والاتحاد ، ومن الكبر والتعالى الى التواضع والتوادد ، كما يتحول من احتقـار الضعفاء الى احترامهم ووضعهم حيث أراد الله لهم وسط هذا المجتمع الإنسانى •

وقبل أن نتعرض لذكر المواقف التى تتجلى فيها العلاقات الانسانية كثمرة تربوية ، من أداء فريضة الحج ، لابد أن نبدأ بكون الحج يربط المؤمن بربه ، ويعمق صلته بالله رب العالمين •

ولقد ارتبط الحج فى بدايته بترسيخ العقيدة عند المسلم ، وتدعيم علاقته بالله سبحانه وتعالى • لذلك نلمح أن الهدف من بناء بيت الله على هذه الأرض هو مقاومة الوثنية والمـادية ، وأحسان الصلة بالله ، وحصر الألوهية فيه سبحانه ، فلا معبود سواه ، ولا هيمنة لغيره ، ولا تعظيم الا لجلاله • قال تعالى : **« واذ بوأنا لابراهيم مكان البيت أن لا تشرك بى شيئا »**(١١٣) •

كما نرى أن ترسيخ العقيدة ، واحسان العلاقة بالله جاء أيضا فى المرحلة الأخيرة لمناسك الحج • قال تعالى : **« ذلك ومن يعظم شعائر الله فانها من تقوى القلوب »**(١١٤) •

وبهذا يهدف الحج من بدايته الى نهايته ، لبناء العقيدة الصحيحة

---

(١١٣) الحج : ٢٦

(١١٤) الحج : ٣٢

عند المسلم ، بحيث يتخلص من جميع أصناف الشرك • ويتوجه بكل طاقته الى ربه ، فيحسن علاقته به ، ويتوكل عليه • ويستمد من عنده العون والنجاة فى الدنيا والآخرة •

* * *

* مواقف وعلاقات انسانية تربوية :

تطهير البيت والاعداد للحج : والتطهير يعنى : النظافة من الأوثان والأقذار ، حتى يطيب المكان لمن يطوف ويصلى فيه[115] • « فهؤلاء هم الذين أنشىء البيت لهم ، لا لمن يشركون بالله • ويتوجهون بالعبادة الى سواه »[116] •

واذا كان تطهير البيت نداء وجهه الله سبحانه وتعالى الى ابراهيم عليه السلام فانه لتشريف وتكريم لمن يتعهد نظافة البيت الحرام ، فيجنبه الأقذار وكل ما يحيل بين المسلم وأداء الطواف والصلاة لله رب العالمين •

وهذا موقف تتجلى فيه المشاعر ، مشاعر المسلم بأنه بعمله هذا يسهم فى اتاحة الفرصة لغيره من المسلمين لأداء فريضة الحج ، ويبذل ما فى وسعه فى سبيل ذلك الهدف ، فتتوطد الروابط الروحية ، وتسمو القيم الانسانية ، بالاضافة الى اجابة نداء الله الذى جاء موجها الى ابراهيم عليه السلام •

ثم يعقب تطهير البيت الأمر لابراهيم عليه السلام ، أن يدعو المؤمنين لحج بيت الله الحرام **« وأذن فى الناس بالحج ياتوك رجالا وعلى كل ضامر ياتين من كل فج عميق »**[117] • « أى ناد فى الناس بالحج داعيا لهم لحج هذا البيت الذى أمرناك ببنائه فذكر أنه قال : يا رب كيف أبلغ الناس وصوتى لا ينفذهم ؟ فقال : ناد وعلينا البلاغ ، فقام على مقامه ، وقيل على الحجر وقيل على الصفا ، وقيـل على أبى قبيس ، وقال : يا أيها الناس •• ان ربكم قد اتخذ بيتا فحجوه • فيقال ان الجبال قد تواضعت حتى بلغ الصوت أرجاء الأرض وأسمع من فى الأرحام

---

(115) الامام البيضاوى . انوار التنزيل واسرار التاويل . مرجع سابق ، ص ٤٤٣

(116) سيد قطب . فى ظلال القرآن ، جـ ١٧ ، مرجع سابق ، ص ٢٤١٨

(117) الحج : ٢٧

والأضلاب ، وأجابه كل شيء سمعه من حجر ومدر وشجر ومن كتب الله له ان يحج الى يوم القيامة : لبيك اللهم لبيك »[118] .

وفى هذا المقام يتجلى موقف الرحلة للحج والعمرة ، وما يكتنفهما من مواقف تستدعى الاحتكاك بالآخرين ، وتبادل الخبرات معهم ، وابراز أفضل الصفات والخلال الحميدة فى هذا الموقف حتى يستفيد المسلم من ذلك المشهد ، فيطبق المبادىء والقيم النظرية ، فتصبح حية فى كيانه ، متجددة فى نفسه .

ورحلة الحج فى جوهرها استجابة لنداء الله عز وجل ، وهى بلا شك موقف ومشهد ، قلما نجد له نظيرا على وجه الأرض ، يلتحم فيه المسلم بأخيه ، بصرف النظر عن الجنس واللون والمنصب والجاه ... الخ . كما تظهر نوازع النفس ... وهى بلا شك متعددة ومتنوعة ، غير أن كبح جماحها ، وحسن قيادتها ، مطلب أساسى فى هذه الرحلة على وجه الخصوص ، حتى يستفيد المسلم ويتخلص من داء التمييز والكبر والعجب ، وينزل الى المستوى العام ، فيحيا حياته طيبة . كما يستثمر هذا الموقف ، فى تحسين علاقاته باخوانه المسلمين ، متحملا فى سبيل ذلك جميع أنواع المشاق والمتاعب .

* **تبادل المنافع** : بالحج يتحقق التبادل المنفعى بين المسلمين ، ففيه جلب للمصالح ، ودفع للمضرات ، وبناء للعلاقات ، وتبادل للمنافع الاجتماعية والانسانية والتربوية ... والحج « موسم ومؤتمر » الحج موسم تجارة وموسم عبادة ، والحج مؤتمر اجتماع وتعارف . ومؤتمر تنسيق وتعاون وهو الفريضة التى تلتقى فيها الدنيا والآخرة كما تلتقى فيها ذكريات العقيدة البعيدة والقريبة ... فهو موسم تجارة ومعرض نتاج ، وسوق عالمية تقام فى كل عام . وهو موسم عبادة تصفو فيه الأرواح ، وهى تستشعر قربها من الله فى بيته الحرام . وهى ترف حول هذا البيت وتستروح الذكريات التى تحوم عليه وترف الأطياف من قريب ومن بعيد ... »[119] .

والحج فوق كل ذلك مؤتمر جامع للمسلمين ، يجدون فيه أصلهم

---

(118) محمد على الصابونى . مختصر تفسير ابن كثير . المجلد الثانى ، دار القرآن الكريم ، ببروت ، ط ٧ ، ١٤٠٢ هـ / ١٩٨١ م ، ص ٥٣٩ .

(119) سيد قطب . فى ظلال القرآن ، ج ١٧ ، مرجع سابق ، ص ٢٤١٨ ، ٢٤١٩

العميق الضارب فى أعماق التاريخ منذ ابراهيم الخليل عليه السلام ، كما يجدون محورهم الذى يشدهم جميعا اليه ، ورايتهم التى يفيئون جميعا اليها ، راية العقيدة والتوحيد التى تذوب وتتوارى فى ظلها فوارق الجنس واللون والوطن . وفى هذا المؤتمر تتوحد قوتهم وتترابط جماعتهم ، تلك الجماعات التى تضم الملايين من كل فج وحدب ، لا تستطيع قوة فى الأرض أن تقف أمامها لو أحسنت علاقاتها ، وفاءت الى رايتها الواحدة ، راية التوحيد .

والحج « مؤتمر للتعارف والتشاور وتنسيق الخطط وتوحيد القوى ، وتبادل المنافع والسلع ، والمعارف والتجارب ، وتنظيم ذلك العالم الاسلامى الواحد الكامل المتكامل مرة فى كل عام فى ظل الله بالقرب من بيت الله . وفى ظلال الطاعات البعيدة والقريبة ، والذكريات الغائبة والحاضرة . فى أنسب مكان وأنسب جو ، وأنسب زمان »[(١٢٠)] .

وبناء على ذلك ، فمن المؤكد أن تحقيق كل تلك الغايات ، لا ولن يتم دون تبادل للعلاقات الانسانية فى صورتها النظيفة الصحيحة ، لأن الاسلام عنى ببناء علاقة الفرد بالفرد ، وعلاقته بالمجتمع ، بحيث ينتظم سلوك الجماعة ، فتستقيم لها الحياة ، بكل مقوماتها الصحيحة .

وهكذا تنعكس صورة الحج على العلاقات الانسانية فتنميها وتصحح مسارها ، وكان عبثا أن يلجأ المسلم الى قوانين وضعية تحميه ، ثم لا يجد الانسان الذى يقتنع بتلك القوانين وينفذها .

بيد أن ترسيخ دعائم المحبة والاخاء والمساواة فى ظل الاسلام ، تضمن السلامة والأمن ، بل وتفوق كل القوانين الوضعية ، التى لا تحمى البشر الا خوفا من عقاب ، دون اقتناع داخلى ، وكان لا بد من اللجوء الى الدين ، ففيه تتدعم القيم ... كالأمانة وحسن الجوار وحسن العلاقات الانسانية ... وهكذا وجد الانسان أن تلك القيم فى ظل الدين أقوى من القوانين فى حماية الأفراد من الاعتداء ، وأصبح جزءا مهما من التربية ، تلك القيم التى أصبحت بمثابة موجهات لسلوك الأفراد فى تبادل منافعهم أولا ، ثم حماية لهم من الغير ثانيا عندما تسود المجتمع تلك القيم وتصبح مادة حية فى كيان وتركيب كل انسان فى ذلك المجتمع .

---

(١٢٠) المرجع السابق ، ص ٢٤١٩ ، ٢٤٢٠

* **تدعيم الروابط بين الأغنياء والفقراء** : ويظهر ذلك جليا حين نلمح أن الآية الكريمة : ((... **ويذكروا اسم الله فى أيام معلومات على ما رزقهم من بهيمة الأنعام**))(١٢١) تعنى نحر الذبائح فى أيام العيد وأيام التشريق الثلاثة بعده وتقدم ذكر الله فى الآية على الذبح ، لأن الموسم موسم عبادة . ولكن أى الناس أحق بهذا المذبوح ؟ أنهم هم الفقراء : ((... **فكلوا منها وأطعموا البائس الفقير** ...))(١٢٢) والأمر بالأكل من الذبيحة يوم النحر هو أمر للاباحة أو الاستحباب . أما الأمر باطعام البائس الفقير منها فهو أمر للوجوب . ولعل المقصود من أكل صاحبها منها أن يشعر الفقراء أنها طيبة كريمه))(١٢٣) .

ومشاركة الفقراء هنا تعنى هدفا اجتماعيا يقوم على أساس : ((تأكيد الاعتراف بالمساواة فى الاعتبار البشرى بين أفراد المجتمع الاسلامى جميعا ... وعلى أن فى اطعام الفقراء مما لا يتيسر لهم الا فى مناسبات : هو علاج لعقد نفوسهم على الأثرياء وتقريب لهم من هؤلاء ...))(١٢٤) .

وهكذا يستمر درس الحج فى بناء الكيان الاجتماعى للمسلمين ، بحيث تتقارب بينهم الفوارق الطبقية ، وتختفى من بينهم النزعة العرقية . كما يظهر حق الفقير فى مال الغنى ، وينتظم الجميع فى جو سليم من العلاقات الانسانية المتكاملة .

* **الاقلاع عن قول الزور** : قال تعالى : ((**فاجتنبوا الرجس من الأوثان واجتنبوا قول الزور . حنفاء لله غير مشركين به**))(١٢٥) يقول الامام البيضاوى : ((**فاجتنبوا الرجس**)) الذى هو الأوثان كما تجتنب الأنجاس وهو غاية المبالغة فى النهى عن تعظيمها والتنفير من عبادتها ، ((**واجتنبوا قول الزور**)) تعميم بعد تخصيص فان عبادة الأوثان رأس الزور كأنه لما حث على تعظيم الحرمات أتبعه ذلك ردا لما كانت الكفرة عليه من تحريم البحائر والسوائب وتعظيم الأوثان والافتراء على الله بأنه حكم

---

(١٢١) الحج : ٢٨ (١٢٢) الحج : ٢٨

(١٢٣) سيد قطب . فى ظلال القرآن ، مرجع سابق ، ص ٢٤٢ .

(١٢٤) محمد البهى . منهج القرآن فى تطوير المجتمع . مرجع سابق ، ص ٣٣ (١٢٥) الحج : ٣٠ ، ٣١

بذلك • وقيل شهادة الزور لما روى أنه عليه السلام قال : « عدلت شهادة الزور الاشراك بالله » — ثلاثا ، وتلا هذه الآية ••• »(١٢٦) •

ولا شك أن قول الزور آفة تصيب الفرد يترتب عليها اهدار الحقوق وتفكك العلاقات • غير أن المسلم اذا أدرك أثناء أدائه للحج قيمة الاقلاع عن قول الزور والتمسك بالآداب والقيم ، فلا شك أنه سيصبح فردا صالحا فى ذاته وفى الجماعة التى ينتمى اليها •

وفى الصحيحين عن أبى بكر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « ألا أنبئكم بأكبر الكبائر » ؟ قلنا : بلى يا رسول الله ، قال : «الاشراك بالله وعقوق الوالدين — وكان متكئا فجلس — فقال : ألا وقول الزور ، ألا وشهادة الزور »(١٢٧) •

* **الوحدة والتآخى بين المسلمين :** مناسك الحج جميعها فيها دعوة للاخاء والتعاون ، ومشاركة المسلم لأخيه فى الدعوة الى الله ودرء الاعتداء عن المسلمين ، وفى مناسك الحج أيضا ، نلمح الانصهار والتوحد حول العقيدة نلمح ذلك فى الطواف بالكعبة ، وفى الوقوف بعرفة ، لأن ذلك يتم كله فى وقت واحد ، يلهث المسلمون بألسنتهم بدعاء واحد ، وقول واحد ، ويمتثلون لرب واحد « لبيك اللهم لبيك » انه بلا شك مظهر من مظاهر انصهار الفوارق الشخصية بين المسلمين ، والذى من شأنه أن يتحول الى شعور اخاء وعلاقات انسانية دائمة ومتجددة ومتواصلة •

ولا غرو فوحدة القلوب ، ووحدة الدعاء ووحدة المظهر ، والانصهار بين جميع الأجناس والقبائل والأماكن واللغات واللون والثقافات والمكانة الاجتماعية ، كل ذلك هو المصاحب لمناسك الحج جميعا(١٢٨) •

وبهذا يتضح أن الحج درس تربوى عملى ، يرتبط فيه المسلم بربه ودينه واخوانه ، ويصبح لبنة قوية داخل المجتمع الاسلامى الذى ينتمى اليه •

* * *

---

(١٢٦) الامام البيضاوى . أنوار التنزيل وأسرار التأويل . مرجع سابق ، ص ٤٤٣ ، ٤٤٤

(١٢٧) محمد على الصابونى . مختصر تفسير ابن كثير . المجلد الثامن ، مرجع سابق ، ص ٥٤٠

(١٢٨) محمد البهى . الاسلام فى حياة المسلم . مرجع سابق ، ص ٤٨ ، ٤٩

(ب) العلاقات الانسانية فى الأسرة :

أولا — فى الحقوق الزوجية : بنيت العلاقات الانسانية داخل الأسرة ، على أساس الرابطة القوية ، التى تربط الآباء بالأبناء ، والأبناء بالآباء ، فهى رابطة الأسرة المتلاحقة بأجيالها بعد الرابطة فى الله ووحدة الاتجاه . ولما كان الله سبحانه وتعالى أرحم بعباده من الآباء والأبناء ، فقد أوصى كلاهما بالآخر ، وقرن تلك الوصية بمعرفة ألوهيته الواحدة ، لأن الله الذى تكفل بالرزق ، لا يليق بالعبد أن يضيق بالتبعات تجاه الوالدين فى كبرهما أو الأولاد فى ضعفهم ، فالله سبحانه متكفل برزق الجميع(١٢٩) ، قال تعالى : **((قل تعالوا أتل ما حرم ربكم عليكم ، ألا تشركوا به شيئا ، وبالوالدين احسانا ، ولا تقتلوا أولادكم من املاق ، نحن نرزقكم واياهم))**(١٣٠) .

والأسرة كيانها الزوج والزوجة ، والأبناء والبنات ، والاسلام يهدف من وراء الزواج الى الاطمئنان والسكن والرحمة والمودة . قال تعالى : **((ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجا لتسكنوا اليها وجعل بينكم مودة ورحمة))**(١٣١) .

ولم يكن النمو فى العدد هو وحده المقصود كهدف ، وانما يصاحب ذلك نمو فى العلاقة بين أفراده . وبهذا يتميز الانسان عن النبات والحيوان ، ويصبح هو الكائن المتسم بالحركة والنمو والمجتمع ، لأن المجتمع ليس كثرة عددية تنمو فقط ، وانما هو علاقات بين الأفراد تقوى بالاطمئنان ، وتصفو بالمودة والرحمة بين كل اثنين .

واذا لم يتحقق هذا الهدف من الاطمئنان والسلام والمحبة والمودة والرحمة فى العلاقات الزوجية ، فان الانسان يبقى فى نطاق النمو العددى فقط شأنه فى ذلك شأن النبات والحيوان .

« ولكى يكون الزوجان : الذكر ، والأنثى ، منهما نواة المجتمع ، كان النكاح بينهما . ولكى يتحقق فى علاقتهما هدف المجتمع من الاطمئنان ... والمودة ... والرحمة ، كانت الأسرة فى حدود معينة ، تعين هذه الحدود على تحقيق الهدف المرجو بين الزوجين »(١٣٢) .

---

(١٢٩) سيد قطب . فى ظلال القرآن ، ج ٨ ، مرجع سابق ، ص ١٢٣

(١٣٠) الأنعام : ٥١ (١٣١) الروم : ٢١

(١٣٢) محمد البهى . منهج القرآن فى تطوير المجتمع . مرجع سابق ، ص ٢٣٧ ، ٢٣٨

ولم يترك الاسلام العلاقة بين الزوجين للصدفة والأهواء ، بل نظمها سواء فيما يتعلق بالمعاشرة الجنسية وموجباتها وما يتبع ازاءها . قال تعالى : « **نساؤكم حرث لكم فأتوا حرثكم أنى شئتم ، وقدموا لأنفسكم** »[١٣٣] كما نظم الاسلام ما كان سائدا فى الجاهلية من امتهان للمرأة ، واهدار لكرامتها ، واستغلال لضعف بدنها ، فوضع الطلاق كاطار يلجأ اليه الزوجان وقت احتدام الخلاف ، واستحالة المعاشرة بالمعروف[١٣٤] . قال تعالى : « **الطلاق مرتان ، فامساك بمعروف أو تسريح باحسان** »[١٣٥] .

واستمرارا فى المحافظة على بقاء الأسرة وصيانتها ، أباح الاسلام المراجعة وبقاء العلاقة الزوجية ، طالما لم تنته فترة العدة ، وطالما بدا للزوجين أنهما سيقيمان حدود الله ويتبعان نهجه السليم[١٣٦] . قال تعالى : « **فان طلقها فلا جناح عليهما أن يتراجعا ان ظنا أن يقيما حدود الله ، وتلك حدود الله يبينها لقوم يعلمون** »[١٣٧] .

ثانيا — العلاقات بين الآباء والأبناء : اذا نظرنا فى العلاقات بين الآباء والأبناء ، نجد أن الاسلام أمر بالرفق داخل الأسرة والمعاملة الحسنة للأبناء واسداء النصح لهم ، وتعليمهم وتوجيههم . قال صلى الله عليه وسلم فيما رواه البخارى : « ان الله يحب الرفق فى الأمر كله » وفيما رواه أحمد والبيهقى قال صلى الله عليه وسلم : « اذا أراد الله تعالى بأهل بيت خيرا أدخل عليهم الرفق ، وان الرفق لو كان خلقا لما رأى الناس خلقا أحسن منه ، وان العنف لو كان خلقا لما رأى الناس خلقا أقبح منه » . وروى أبو الشيخ فى الثواب عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : « رحم الله والدا أعان ولده على بره »[١٣٨] .

وليس معنى الرفق بالولد تدليله وتحقيق جميع رغباته المتلاحقة ،

---

(١٣٣) البقرة : ٢٢٣

(١٣٤) المرجع السابق ، ص ٢٣٩ ، ٢٤٠ .

(١٣٥) البقرة : ٢٢٩ (١٣٦) المرجع السابق ، ص ٤٤

(١٣٧) البقرة : ٢٣٠

(١٣٨) عبد الله ناصح علوان . تربية الأولاد فى الاسلام . ج ١ ، دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع . حلب ، بيروت ، ط ٣ (١٤٠١ هـ — ١٩٨١ م) ص ١٢٧

فان ذلك لا يعين الولد على النجاح فى حياته ، بل قد يؤدى فى النهاية الى خيبة الأمل وذهاب الرجاء فى اصلاح شأن الولد ، ذلك أن الولد المدلل فى تربيته لم يعرف من الحياة الا ما حلا له ، ورغب فى تحقيقه ، وسعى لدى والديه لانجازه فلم يتدرب على ارتكاب الصعب ومشقاته واجتياز الصعاب ومشاقها(١٣٩) .

ومن هنا كان على الآباء مسئولية كبيرة تجاه أبنائهم وبناتهم ، بحيث تنبع تلك المسئولية من صميم الدين الاسلامى ، وبحيث يؤدى الآباء حق أبنائهم عليهم ، حتى يقتنع الأبناء بواجباتهم نحو والديهم وأسرهم ، فتتم علاقات متبادلة فى ظل من هدى الاسلام وتعاليمه .

« جاء رجل الى عمر بن الخطاب رضى الله عنه يشكو اليه عقوق ابنه . فأحضر عمر الولد وأنبه على عقوقه لأبيه ، ونسيانه لحقوقه ، فقال الولد : يا أمير المؤمنين .. أليس للولد حقوق على أبيه ؟ قال : بلى . قال : فما هى يا أمير المؤمنين ؟ قال عمر : أن ينتقى أمه ، ويحسن اسمه ، ويعلمه الكتاب — أى القرآن — قال الولد : يا أمير المؤمنين ان أبى لم يفعل شيئا من ذلك ، أما أمى فانها زنجية كانت لمجوسى ، وقد سمانى جعلا — أى خنفساء — ولم يعلمنى من الكتاب حرفا واحدا .

فالتفت عمر الى الرجل وقال له : جئت الى تشكو عقوق ابنك ، وقد عققته قبل أن يعقك ، وأسأت إليه قبل أن يسىء اليك »(١٤٠) .

واذا كانت هذه هى حقوق الأبناء على الآباء فى اطار الاسلام ، فان للآباء على أبنائهم حقوقا وردت كثيرة فى القرآن الكريم والسنة المطهرة . قال تعالى : **« وقضى ربك ألا تعبدوا الا اياه وبالوالدين احسانا ، اما يبلغن عندك الكبر أحدهما أو كلاهما فلا تقل لهما أف ولا تنهرهما وقل لهما قولا كريما . واخفض لهما جناح الذل من الرحمة وقل رب ارحمهما كما ربيانى صغيرا »**(١٤١) .

يقول الامام البيضاوى فى تفسير تلك الآية : « وقضى ربك وأمر أمرا مقطوعا به بأن لا تعبدوا الا اياه لأن غاية التعظيم لا تحق الا لمن له غاية العظمة ونهاية الانعام ... وبالوالدين احسانا وبأن تحسنوا

---

(١٣٩) محمد البهى . الاسلام فى حياة المسلم . مرجع سابق ، ص ٢٦

(١٤٠) عبد الله صالح علوان . تربية الأولاد فى الاسلام . ج ١ ، مرجع سابق ، ص ١٢٧ ، ١٢٨

(١٤١) الاسراء : ٢٣ ، ٢٤

أو وأحسنوا بالوالدين احسانا لأنهما السبب الظاهر للوجود والتعيش .. اما يبلغن عندك الكبر أحدهما أو كلاهما .. ومعنى عندك أن يكونا فى كنفه وكفالته . فلا تقل لهما أف ، فلا تتضجر مما يستقذر منهما ولا تستثقل من مؤنتهما وهو صوت يدل على تضجر ... والنهى عن ذلك يدل على المنع من سائر أنواع الايذاء قياسا بطريق الأولى ... ولذلك منع رسول الله صلى الله عليه وسلم حذيفة من قتل أبيه وهو فى صف المشركين . نهى عما يؤذيهما بعد الأمر بالاحسان بهما . ولا تنهرهما ولا تزجرهما عما لا يعجبك ... وقل لهما بدل التأفيف والنهر قولا كريما جميلا لا شراسة فيه . واخفض لهما جناح الذل تذلل لهما وتواضع معهما ... وأمره بخفضه مبالغة ... من الرحمة من فرط رحمتك عليهما لافتقادهما الى من كان أفقر خلق الله تعالى اليهما بالأمس . وقل رب ارحمهما وادع الله تعالى أن يرحمهما برحمته الباقية ولا تكتف برحمتك الفانية وان كانا كافرين ، لأن من الرحمة أن يهديهما كما ربيانى صغيرا رحمة مثل رحمتهما على وتربيتهما وارشادهما لى فى صغرى وفاء بوعدك للراحمين . روى أن رجلا قال لرسول الله صلى الله عليه وسلم : ان أبوى بلغا من الكبر أنى ألى منهما ما وليا منى فى الصغر ، فهل قضيتهما حقهما ؟ قال : لا ، فانهما كانا يفعلان ذلك وهما يحبان بقاءك وأنت تفعل ذلك وتريد موتهما »(١٤٢) .

ولا نظننا بحاجة الى تعليق بعد هذا العرض الكامل المتكامل ، الذى جاء خير هاد للبشرية ، يحدد العلاقات بين الأزواج والزوجات ، والآباء والأبناء ، ويرسى معالم الطريق الصحيح ، لاستقرار الأسرة المسلمة فى ظل التعاليم الاسلامية السمحة .

* * *

(جـ) العلاقات الانسانية فى المجتمع :

لقد كانت عناية الاسلام ، بتدعيم علاقة المسلمين بعضهم ببعض ، ذات أهمية خاصة ، أولاها الدين الاسلامى عناية معينة . وملامح العلاقات الانسانية فى المجتمع متعددة ، ويصعب حصرها ، نظرا لأن علاقة الفرد بغيره متنوعة ؟ فقد تكون علاقة بالوالدين والأقارب وقد

---

(١٤٢) الامام البيضاوى . انوار التنزيل واسرار التاويل . مرجع سابق ، ص ٣٧٣ ، ٣٧٤

تكون للزوجة وقد تكون للجار القريب والبعيد ، اضافة الى أفراد المجتمع الآخرين الذين يحتك بهم ، مع زميل فى عمل ، أو شريك فى تجاره . أو رئيس يرأسه .. الخ . هذه الأنواع من العلاقات ، نظمها الاسلام وبين أحكامها التى يمكن أن تتولد عن هذه العلاقات[١٤٣] .

وقد ورد فى القرآن الكريم والسنة المطهرة الكثير من الملامح حول تلك العلاقات منها :

١ ــ **الأخوة** : هذه الأخوة التى من أجلها ، قاسم المهاجرون الأنصار ديارهم وأموالهم ، حتى كان البعض يؤثر غيره بالشىء وهو فى حاجة ماسة اليه . قال تعالى : « **انما المؤمنون اخوة** »[١٤٤] وقال جل شأنه : « **واذكروا نعمة الله عليكم اذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته اخوانا** »[١٤٥] واذا صح أن المسلمين تربطهم الأخوة فى الله ، فلا يليق بهم أن يتفرقوا ويختلفوا . قال تعالى : « **ولا تكونوا كالذين تفرقوا واختلفوا من بعد ما جاءهم البينات** »[١٤٦] .

٢ ــ **احترام حق الحياة** : فالاسلام يصون النفس البشرية . ويحفظ عليها الحياة ويحرم قتلها بغير حق . قال تعالى : « **ومن يقتل مؤمنا متعمدا فجزاؤه جهنم خالدا فيها وغضب الله عليه ولعنه وأعد له عذابا عظيما** »[١٤٧] ويقول صلى الله عليه وسلم : « لن يزال المؤمن فى فسحة من دينه ما لم يصب دما حراما » وقد بلغ من حرص الاسلام على احترام حق الحياة أن حرم الانتحار بشتى أشكاله وألوانه . قال صلى الله عليه وسلم : « من تردى من جبل فقتل نفسه فهو فى نار جهنم يتردى فيها خالدا مخلدا فيها أبدا ، ومن تحسى سما فقتل نفسه فسمه فى يده يتحساه فى نار جهنم خالدا مخلدا فيها أبدا ، ومن قتل نفسه بحديدة فحديدته فى يده يتوجأ بها فى نار جهنم خالدا مخلدا فيها أبدا » .

٣ ــ **احترام وصيانة الأعراض** : لقد كفلت شريعة الاسلام ما يصون الأعراض عن الانتهاك بالزنا أو بالقذف . وقد وضعت بذلك الحقوق والأحكام ، والعقوبات المتفاوتة وفقا لطبيعة كل فعل .

---

(١٤٣) محمد رافت عثمان . الحقوق والواجبات والعلاقات الدولية فى الاسلام . مرجع سابق ، ص ١١٤

(١٤٤) الحجرات : ١٠

(١٤٥) آل عمران : ١٠٣

(١٤٦) آل عمران : ١٠٥

(١٤٧) النساء : ٩٣

قال تعــالى : ((**الزانية والزانى فاجلدوا كل واحد منهما مائة جلدة ، ولا تأخذكم بهما رأفة فى دين الله ان كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر ، وليشهد عذابهما طائفة من المؤمنين**))(١٤٨) •

٤ ــ **المحافظة على المــال :** أمر الاسلام بحفظ أموال الضعفاء حتى يتسبوا ويكبروا • ولذلك أمر سبحانه بحفظ مال اليتيم قال تعالى : ((**ولا تقربوا مال اليتيم الا بالتى هى أحسن حتى يبلغ أشــده**))(١٤٩) كما جعل عقوبة السارق قطع اليد • قال تعالى : ((**انما جزاء الذين يحاربون الله ورسوله ويسعون فى الأرض فسادا أن يقتلوا أو يصلبوا أو تقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف أو ينفوا من الأرض ، ذلك لهم خزى فى الدنيا ، ولهم فى الآخرة عذاب عظيم • الا الذين تابوا من قبل أن تقدروا عليهم ، فاعلموا أن الله غفور رحيم**))(١٥٠) كما أوجب الاسلام رد الأمانات الى أهلها • قال تعالى : ((**ان الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات الى أهلها**))(١٥١) •

٥ ــ **مبدأ الشورى** : من سمات الاســلام أن جعل عــلاقات المسلمين ببعضهم ببعض تقوم على مبدأ الشورى • وقد مدح الله هذا المبدأ فى سورة مسماة بهذا المبــدأ العظيم • قال تعــالى : ((**والذين استجابوا لربهم وأقاموا الصلاة وأمرهم شورى بينهم ومما رزقناهم ينفقــون**))(١٥٢) •

٦ ــ **الصــدق** : حث الاسلام على التزام المسلم للصدق فى كل أقواله ، فلا يجعل للكذب عليه سبيلا ، وذلك حتى تكون علاقات الناس مبنية على أساس صحيح من الصفاء والنقاء ، لا خداع فيها ولا زيف ، قال تعــالى : ((**يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وكونوا مع الصادقين**))(١٥٣) وقال صلى الله عليه وسلم : ((عليكم بالصدق فان الصدق يهدى الى البر ، والبر يهدى الى الجنة ، وما يزال الرجل يصدق ويتحرى الصدق حتى يكتب عند الله صديقا • واياكم والكذب فان الكذب يهدى الى الفجور ، وان الفجور يهدى الى النار وما يزال الرجل يكذب ويتحرى الكذب حتى يكتب عند الله كذابا)) والصدق صفة المؤمن كما أن الكذب صفة المنــافق •

---

(١٤٨) النور : ٢
(١٤٩) الاسراء : ٣٤
(١٥٠) المــائدة : ٣٣ ، ٣٤
(١٥١) النساء : ٥٨
(١٥٢) الشورى : ٣٨
(١٥٣) التوبة : ١١٩

٧ — **حسن الجوار :** اهتم الاسلام ببناء علاقات الجوار على أسلوب الحب والاخاء والمعاملة الحسنة . قال تعالى : « **واعبدوا الله ولا تشركوا به شيئا ، وبالوالدين احسانا وبذى القربى واليتامى والمساكين والجار ذى القربى والجار الجنب والصاحب بالجنب وابن السبيل وما ملكت أيمانكم ، ان الله لا يحب من كان مختالا فخورا** »(١٥٤) .

وقال صلى الله عليه وسلم : « من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم جاره » وروى عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : « أتدرون ما حق الجار ؟ ان استعان بك أعنته ، وان استنصرك نصرته ، وان استقرضك أقرضته ، وان افتقر عدت عليه ، وان مرض عدته ، وان مات تبعت جنازته . وان أصابه خير هنأته ، وان أصابته مصيبة عزيته ، ولا تستطيل عليه بالبناء فتحجب عنه الريح الا باذنه ، ولا تؤذه ، واذا اشتريت فاكهة فاهد له ، فان لم تفعل فأدخلها سرا ولا يخرج بها ولدك ليغيظ بها ولده . ولا تؤذه بقتار قدرك — يعنى رائحة اللحم التى تفوح من القدر — الا أن تغرف له منها »(١٥٥) .

واذا عدنا الى القرآن الكريم فسنجد فيه جماع الأمر كله فى سورة الأنعام . قال تعالى : « **قل تعالوا أتل ما حرم ربكم عليكم ، ألا تشركوا به شيئا ، وبالوالدين احسانا ، ولا تقتلوا أولادكم من املاق ، نحن نرزقكم واياهم ، ولا تقربوا الفواحش ما ظهر منها وما بطن ، ولا تقتلوا النفس التى حرم الله الا بالحق ، ذلكم وصاكم به لعلكم تعقلون . ولا تقربوا مال اليتيم الا بالتى هى أحسن حتى يبلغ أشده ، وأوفوا الكيل والميزان بالقسط ، لا نكلف نفسا الا وسعها ، واذا قلتم فاعدلوا ولو كان ذا قربى ، وبعهد الله أوفوا ، ذلكم وصاكم به لعلكم تذكرون . وأن هذا صراطى مستقيما فاتبعوه ، ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله ، ذلكم وصاكم به لعلكم تتقون** »(١٥٦) .

ومما لا شك فيه أن هذه الآيات جمعت قوام هذا الدين كله ، لأن فيها « قوام حياة الضمير بالتوجيه وقوام حياة الأسرة بأجيالها

---

(١٥٤) النساء : ٣٦

(١٥٥) لمزيد من التفصيلات يرجع الى ص ١١٤ — ١٢٨ ، محمد رافت عثمان . الحقوق والواجبات والعلاقات الدولية فى الاسلام . مرجع سابق .

(١٥٦) الأنعام : ١٥١ — ١٥٣

المتتابعة ، وقوام حياة المجتمع بالتكافل والطهارة فيما يجرى من معاملات . وقوام حياة الانسانية وما يحوط الحقوق فيها من ضمانات ، مرتبطة بعهد الله ، كما أنها بدئت بتوحيد الله ... »[157] .

ويذكر الامام البيضاوى فى تفسير تلك الآيات : « **قل تعالوا** » أمر من التعالى « **أتل** » اقرأ « **ما حرم ربكم** » بمعنى اتل أى شىء حرمه ربكم « **عليكم** » ، « **ألا تشركوا به** » أى لا تشركوا به ... على تقدير المتلو أن لا تشركوا والمحرم أن تشركوا « **شيئا** » ، « **وبالوالدين احسانا** » أى أحسنوا بهما احسانا وضعه موضع النهى عن الاساءة اليهما للمبالغة للدلالة على أن ترك الاساءة فى شأنهما غير كاف بخلاف غيرهما « **ولا تقتلوا أولادكم من املاق** » من أجل فقر ومن خشية « **نحن نرزقكم واياهم** » .. « **ولا تقربوا الفواحش** » كبائر الذنوب أو الزنا « **ما ظهر منها وما بطن** » .. « **ولا تقتلوا النفس التى حرم الله الا بالحق** » .. « **ذلكم** » اشارة الى ما ذكر مفصلا « **وصاكم به** » بحفظه « **لعلكم تعقلون** » ترشدون فان كمال العقل هو الرشد ، « **ولا تقربوا مال اليتيم الا بالتى هى أحسن** » أى بالفعلة التى هى أحسن ما يفعل بماله كحفظه وتثميره « **حتى يبلغ أشده** » حتى يصير بالغا .. « **وأوفوا الكيل والميزان بالقسط** » بالعدل والتسوية « **لا نكلف نفسا الا وسعها** » .. « **واذا قلتم** » فى حكومة ونحوها « **فاعدلوا** » فيه « **ولو كان ذا قربى** » ولو كان المقول له أو عليه من ذوى قرابتكم « **وبعهد الله أوفوا** » يعنى ما عهد اليكم من ملازمة العدل وتأدية أحكام الشرع « **ذلكم وصاكم به لعلكم تذكرون** » تتعظون به .. « **وأن هذا صراطى مستقيما** » الاشارة فيه الى ما ذكر فى السورة فانها بأسرها فى اثبات التوحيد والنبوة وبيان الشريعة .. « **ولا تتبعوا السبل** » الأديان المختلفة أو الطرق التابعة للهوى فان مقتضى الحجة واحد ومقتضى الهوى متعدد لاختلاف الطبائع والعادات « **فتفرق بكم** » فتفرقكم وتزيلكم « **عن سبيله** » الذى هو اتباع الوحى .. « **ذلكم** » الاتباع « **وصاكم به لعلكم تتقون** » الضلال والتفرق عن الحق »[158] .

---

(157) سيد قطب . فى ظلال القرآن . المجلد الثالث الجزء ٨ ، مرجع سابق ، ص ١٢٢٩

(158) الأمام البيضاوى . أنوار التنزيل واسرار التاويل . مرجع سابق ، ص ١٩٦

ولا نعتقـــد أن نظاما ما يستطيع أن يكتشف كل هـــذه القواعد لأساسية الراسخة المرتبطة بحياة البشر • والمنظمة لعلاقاتهم ، لا نعتقد ن نظاما ما استطاع بمثل ما قدمه القرآن بهذا الأسلوب الدقيق ، والمنهج السليم • « هذه القواعد الأساسية الواضحة التى تكاد تلخص العقيدة الاسلامية وشريعتها الاجتماعية مبدوءة بتوحيد الله ومختومة بعهد الله »[159] •

ذلك العهد لله الذى شمل قوله الحق والعـــدل ولو كان متعلقا بقريب . ذلك العهد لله الذى يتضمن توفية الكيل والميزان بالقسط ، كما تضمن عدم قرب مال اليتيم الا بالتى هى أحسن ، ومنه كذلك حرمة الاعتداء على النفس الا بالحق ، وقبل ذلك كله عهد بعدم الاشراك بالله رب العالمين • وذلك هو العهد الأكبر الذى أخذه الله على فطرة البشر بحكم خالقها متصلة بمبدعها شاعرة بوجوده فى النواميس التى تحكمها من داخلها كما تحكم الكون من حولها[160] •

* * *

(د) صور العلاقات الانسانية :

وتتضمن هذه الصور العلاقات الانسانية بشتى جوانبها . علاقة الفرد بخالقه . علاقة الفرد بمجريات أحداث الحياة ، علاقة الفرد بأفراد المجتمع . كما تتضمن الاتزان فى القول والعدل بين الناس وسنتحدث عن كل من هذه العلاقات فيما يلى :

أولا ـــ علاقة الفرد بخالقه : واذا تمت هذه العلاقة فى اتزان ، وأدرك الفرد أن الله سبحانه هو وحده المتوكل أمر العباد وعليه المعتمد ، اذا تم هذا فقد تحقق للفرد الاطمئنان والاستقرار فى الحياة قال تعالى :

« الـــذين آمنـــوا وتطمئن قلوبهـــم بذكر الله ، ألا بـــذكر الله تطمئن القـــلوب »[161] •

ثانيا ـــ علاقة الفرد بمجريات أحداث الحياة : كون الفرد ايجابيا مع أحداث الحياة اليومية ، يستجيب لندائها ، فلا استغلال ولا نفعية ، ولا أنانية ولا فردية ، وانما تعاون وتبادل فى المنفعة وايثار • وكون الفرد كذلك فسوف يضمن لنفسه الاطمئنان وراحة البال فى حياته •

---

(١٥٩) سيد قطب . فى ظلال القرآن . المجلد الثالث ، ج ٨ ، مرجع سابق • ص ١٢٣٤

(١٦٠) المرجع السابق ، ص ١٢٣٣

(١٦١) الرعد : ٢٨

والعكس كذلك صحيح ، فقد استنكر الاسلام النزعة الفرديه وخصوصا اذا تعارضت مع مصلحة الجماعة وهدفت فقط الى تحقيق مصلحة شخصية ، استنكر الاسلام هذا الأسلوب • قال تعالى : **« وأن منكم لمن ليبطئن فان أصابتكم مصيبة قال قد أنعم الله على اذ لم أكن معهم شهيدا • ولئن أصابكم فضل من الله ليقولن كأن لم تكن بينكم وبينه مودة يا ليتنى كنت معهم فأفوز فوزا عظيما »**(١٦٢) •

ثالثا — علاقة الفرد بأفراد المجتمع : سلوك الفرد ونوعيته هى المحور الذى ترتكز عليه شخصية الفرد وتقبل الجماعة له • وكلما تهذب سلوك الفرد ، ولم يترتب عليه ايذاء لأحد كلما كان متقبلا من الجماعة متواكبا مع اتجاهاتها • قال تعالى : **« ولا تصعر خدك للناس ولا تمش فى الأرض مرحا ، ان الله لا يحب كل مختال فخور • واقصد فى مشيك واغضض من صوتك ، ان أنكر الأصوات لصوت الحمير »**(١٦٣) •

وقال جل شأنه : **« يا أيها الذين آمنوا اذا قيل لكم تفسحوا فى المجالس فافسحوا »**(١٦٤) •

وقال تعالى : **« فان أمن بعضكم بعضا فليؤد الذى اؤتمن أمانته »**(١٦٥) •

وقال تعالى : **« ولا تنسوا الفضل بينكم »**(١٦٦) •

وقال تعالى : **« ولمن صبر وغفر ان ذلك لمن عزم الأمور »**(١٦٧) •

رابعا — الاتزان فى القول والعدل بين الناس : رتب الاسلام على هذه الركيزة تفادى الخصومة ، فأوجب الاتزان فى القول والعدل فى المنطق ، فيما يترتب عليه قضاء حق لفرد أو لجماعة ، مهما كانت الدوافع التى تحاول أن تنحرف بالانسان عن العدل والاتزان • قال تعالى : **« واذا قلتم فاعدلوا ولو كان ذا قربى ، وبعهد الله أوفوا ، ذلكم وصاكم به لعلكم تذكرون »**(١٦٨) •

وقوله سبحانه : **« وقل لعبادى يقولوا التى هى أحسن ، ان الشيطان ينزغ بينهم ، ان الشيطان كان للانسان عدوا مبينا »**(١٦٩) •

---

(١٦٢) النساء : ٧٢ ، ٧٣ — (١٦٣) لقمان : ١٨ ، ١٩
(١٦٤) المجادلة : ١١ — (١٦٥) البقرة : ٢٨٣
(١٦٦) البقرة : ٢٣٧ — (١٦٧) الشورى : ٤٣
(١٦٨) الأنعام : ١٥٢ — (١٦٩) الاسراء : ٥٣

من هذا المنطلق يحدد الفرد بتصرفه الشخصى مقومات صالحة لذاته وصالح الجماعة التى يعيش فيها ، ودينه الاسلامى الذى هو فرد منه • ولا شك أن تلك الركائز الأربع كل ما يتصور فى دائرة الفرد من علاقات(١٧٠) •

وأخيرا فالفرد المؤمن المسلم هو ذلك الانسان الذى ينبغى أن يكون انسانا مهذبا فى قوله مطمئن النفس والبال فى حياته ، ايجابيا فى الحياة بعمله ، ولكنه لا يقصر ايجابيته تلك على منفعته وحده •

***

* تعقيب :

هذا البحث اشتمل على جوانب متعددة ، وجاء موجزا فى كثير من الجوانب التى تطرق اليها • غير أننا لا نجانب الصواب حين نقول : انه وضع اللبنة الأولى فى كيان البنية الاجتماعية ، اذ كيف يتصور مجتمع بدون علاقات ، أو بدون تبادل منفعة بين أفراده •

ولعلنا فى هذا البحث ، قمنا بعرض واجهة العلاقات الانسانية ، فى المدرسة ، كمؤسسة تربوية أقامها المجتمع ، وأنفق عليها ، وعهد اليها ببناء الأجيال للمستقبل القريب والبعيد •

غير أننا أيضا وضعنا للفرد المسلم ، صنوف التبادل المنفعى فى المجتمع ، وممارسة العبادات على تعددها ، وكيف يمكن بناء العلاقات الانسانية الصحيحة على هدى من السلوك السليم فى ظل المبادىء الاسلامية •

ولقد كان الفرد المسلم ، بجميع مقوماته النفسية والاجتماعية والأخلاقية سعيدا حينما ظهر أن العبادات كلها يمكن أن تستثمر كباعث على الصلة الحسنة بالأفراد داخل المجتمع وخارجه على السواء •

والاسلام فى هذا يفوق ما سبقه من ديانات ، وما ظهر من أنظمة وضعية ، لا يمكن أن تضاهى من قريب أو بعيد تلك الأسس والمبادىء التى أقامها الدين الاسلامى ، ووضع لها قواعد سليمة فى ظل الحق والعدل والخير والسلام •

***

---

(١٧٠) محمد البهى • الانسان فى حياة المسلم • مرجع سابق ، ص ٥٥ — ٥٧

الفصل الخامس

مباحث في التربية الإسلامية

* الغزو الثقافى للمجتمع الاسلامى ، وموقف التربية الاسلامية ازاءه :

لعله بات من المسلم به فى عالم اليوم ، تكالب قوى متعددة الأهداف والاتجاهات فى الشرق والغرب ، تريد النيل من المسلمين ، وبالتالى الحاق الضرر بالاسلام . والشواهد والمرائى تتواتر على تواجد الآلاف من الجمعيات التى تعمل ضد الاســلام ، من أجل النيل منه والفتك بمعتنقيه .

ولعل السؤال الملح الذى يحتاج الى اجابة واضحة هو :

ما سبب تلك الفجوة الخطيرة بين الاسلام كدين له مقومات ـــ تضمن لو أحسن تطبيقها ـــ السعادة للأفراد والجماعات ، وبين السلوك الذى يمارسه المسلمون ، وتبدو فيه مظاهر البعد بنسب متفاوتة عن تطبيق منهج الاسلام الصحيح ؟ أو بمعنى آخر :

لمــاذا لا يوجد أثر قوى لمــا ينادى به المصلحون ورجال الدعوة والفكر ، بالرغم من الكثرة الكثيرة فى الأفراد والمؤسسات التى نيطت بها هذه المهمة ؟

ولعلنا لا نجانب الصواب حين نؤكد أن التربية بما لها من رصيد ضخم وهائل فى تنمية قدرات الأفراد فى جميع المجالات قادرة ـــ لو أحسن التخطيط لها ـــ على احداث التناسق بين الفرد وبين عقيدته وبين الفرد ومجتمعه ، وبالتالى يمكن أن ينتظم المجتمع ، بل ويتوقع أن تختفى منه ـــ فى الغالب ـــ فجوة الخلخلة بين الفكر والعمل والنظر والتطبيق كما هو مشاهد فى مجتمعنا الإسلامى اليوم .

ولكن وقبل أن تقوم التربية بهذا الدور ، لابد من كشف النقاب

عن هذا الغزو الثقافى ، لمعرفة طبيعته وأساليبه ومدى تأثيره فى المجتمع الاســلامى •

وحتى نقف على ذلك ، فان هناك صعوبات تبدو فى الأفق ، وذلك نظرا لتعدد أطراف المشتركين فى ممارسة هذا الغزو ، وتنوع الأساليب المستخدمة : سواء على مستوى الأفراد أو المؤسسات ، فهم يستخدمون أساليب ملتوية ، ظاهرها الرحمة وباطنها العذاب ، ولا يمكن للفــرد العادى أن يكتشف مضمون ومحتوى تلك الأساليب ناهيك عن جذب قطاع كبير من المثقفين ــ خصوصا من درسوا فى معاهد التعليم بتلك البلاد ــ الى تلك الاتجاهات بل والدفاع عنها أحيانا •

وقد يصل الأمر الى العمل خفية ، ســواء على مســتوى الفرد أو الجمــاعة ، لبث هذا الفكر الثقــافى الوافد ، والغريب عن البيئة الاســلامية •

ومما يزيد فى ضخامة هــذه المشكلة ، أن بعض المؤيدين للفــكر الوافد ، قد يتذرعون بمبادىء تبدو كمسلمات فى كثير من الأحيان •

ومن تلك المبادىء :

١ ــ أن التبادل الثقافى أمر مطلوب ، وأن الاسلام لم يحجر على الفكر ، بل أطلق للانسان الحرية فى التزود من الثقافة أينما وجدت وحيثما حلت • وفات هؤلاء أن الاسلام يبيح ذلك ، طالمــا تم تحت رغبتنا وباختيارنا ، وجاء متمشيا مع الاسلام ومتضمنا لقيمه ومبادئه •

٢ ــ أن الغزو الثقافى يتم فى ظل فكر غريب عن البيئة الاسلامية والمجتمع الاسلامى ، وهذا الغزو فى حقيقته صدى لآراء مفكرين غير مسلمين ، يحاولون فرض هذا الفكر على المجتمع الاسلامى ، أو بمعنى آخر يحاولون فرض ذلك من جانب واحد على الانسان الغربى المسلم وعلى المجتمع المسلم •

هذا ولم تسلم المؤسسات التربوية والتعليمية ، من هذا الغزو ، بل جاءت على رأس الركائز التى كرست لها تلك الحملات كل جهدها ، ذلك أنها تدرك تماما أن بذر تلك السموم بين البراعم الغضة أمر له أهميته فى تطعيم هذا الجيل بفكر ملوث ، يهدف الى بلبلة فى الفكر ، وذبذبة للفرد ، فى ســبيل قلة ثقته فى معتقداته ومقــدراته الثقافية والحضــارية •

ومن هنا تقع على التربية مسئولية خطيرة فى مواجهة هذا الغزو الثقافى وتلك الحملة المسعورة الموجهة ضد المجتمع الاسلامى ، والتى تدعى — ضمن ما تدعى — أن الاسلام دين تواكل ، وأنه لا يواكب الحياة المعاصرة ، الأمر الذى يثير الشبه حول الاسلام ، ويشيع أفكارا مسمومة بالكذب والبهتان •

ناهيك عن تأثير تلك الحملة فى احداث التفرقة بين الدول الاسلامية بترويج النزعة العرقية ، وتفشى الروح المذهبية ، وتمزق الشخصية الاسلامية •

والواقع أن الاسلام دين له مقومات تتمشى مع الطبيعة الانسانية ، ولا تتعارض معها ، وهو دين يوائم بين صالح الفرد فى دنياه وأخراه ، كما يتيح للفرد أن يعمل فى الدنيا ويجتهد على أن يكون ذلك من أجل الآخرة • قال تعالى : **« وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة ، ولا تنس نصيبك من الدنيا ، وأحسن كما أحسن الله اليك ولا تبغ الفساد فى الأرض ، ان الله لا يحب المفسدين »**(١) •

والثقافة الاسلامية والتراث الاسلامى غنى ومملوء بالكثير مما يعد أصلا صحيحا ومصدرا قويا لبناء الشخصية المسلمة • وكلما كشف هذا التراث واتضحت معالمه ، وأصبح حيـا فى ضمـير الأفراد كلما استطاع الأفراد أن يتوافقوا مع حياتهم المعيشية •

ولا شك أن الفرد — أى فرد — تتناسب قدرته على المعيشة الناجحة فى جماعته مع القدر الذى يحصله من ثقافته ، والسبب فى هذا أن الجماعة ليست فى حقيقتها — عندما ننظر اليها بمنظار التربية — ليست الأفراد الذين يكونونها ، وليست الأجيال المتعاقبة عن هؤلاء الأفراد ، وانما تكمن حقيقة الجماعة فى الثقافة التى تتوارثها الأجيال المتعـاقبة •

ومن هنا فالأفراد يذوبون فى كل جماعة ، وتبقى الثقافة ، فهى لا تذوب أبدا لأنها واجهة الجماعة ومرآتها • لذلك فان من وظائف التربية أنها تعد الجماعة ، بنشر ثقافتها بين الأفراد ، فهى تربط الفرد بالجماعة ، وتمكنه من أن يتقن ثقافة هذه الجماعة ويتصرف فى مواقف حياة هذه الجماعة وفقا للقيم والمثل العليا التى تعتنقها تلك الجماعة •

---

(١) القصص : ٧٧

وإذا كانت التربية تولى وجهها شطر الجماعة ، فانها بلا شك تنصب أيضا على الثقافة ، فالتربية تهدف الى اكساب الثقافة ، وليس لها من معيار للحكم على نجاحها سوى قدرتها على تملك تلك الثقافة للأفراد ، وليس للتربية من وسيلة سوى أن تجعل الثقافة مادة لنشاطها •

من هذا المنطلق وفى تلك المعايير ، استهدف الغزو الثقافى المجتمع الاسلامى ، حين جعل ثقافته مادة يدور حولها نشاطه الفكرى والاعلامى والتربوى بغرض التشكيك فى صلاحية المنهج الاسلامى كنموذج صالح للمجتمع ، فركز على نشر ثقافته الوافدة عبر الاعلام الهادف ، كما استقطب البعض من المثقفين المسلمين ، واستخدمه كعوامل للهدم ، واستغل كذلك عناصر الضعف المادية ، كسلاح لجذب الكثير لاعتناق الفكر الوافد ، كما لم يتورع فى بث فكره ضمن مناهج التعليم فى البلاد الاسلامية •

والغزو الثقافى للمجتمع الاسلامى ينشد من وراء تلك الحملة اهمال الشريعة الاسلامية فى أكثر بلاد الاسلام ، والاكتفاء بها كاطار نظرى دون تطبيق عملى لمقوماتها • كما يهدف هذا الغزو الى مسخ الشخصية الاسلامية فى أكثر بلاد الاسلام ، كما لم يتورع فى اثارة العصبية والعرقية بين شعوب الاسلام ، وأيضا شيوع وانتشار المذاهب المناهضة للدين ، كما يهدف كذلك الى توزيع ولاء الأمة الاسلامية لأى من القوى الكبرى فى العالم •

وليس هناك من وسيلة قوية ، لاعتناق الفكر الثقافى الوافد ، أكثر تأثيرا فى الأفراد من بث هذه الثقافة فى شكل خدمات محسوسة ، يلمسها الأفراد وتشعر بها الجماعات ، لذلك كثرت الارساليات فى أشكالها المختلفة والمتعددة ، مثل المدارس والمستشفيات ، ودور رعاية الأطفال الفقراء ، ومراكز ثقافية متعددة ، ناهيك عن غزو الأسواق بوسائل متعددة خاصة باستقطاب المرأة •

ونظرة فاحصة فى فكرنا الاسلامى ترينا أن الاسلام قادر بمقوماته الأصيلة ، ومصادره الصحيحة الواضحة فى القرآن الكريم والسنة المطهرة وفى الاجماع والاجتهاد ، أقول ان الاسلام قادر بتلك المقومات أن يبنى الفرد المسلم والمجتمع المسلم •

وحين يهتم الاسلام بتربية الفرد المسلم ، فانه يقيم تلك التربية بما يتيحه للفرد من نصوص فى العقيدة ومن هدى للنبى صلى الله عليه

وسلم ومن خبرات تحيط به ، يكتسب من خلالها مواقف فى الحيـاة تهديه الى أقوم السبل ، وتساعده على هضم ثقافته الاسلامية . لأن الفرد لا يستطيع أن ينمو نموا حقيقيا ، الا اذا استطاع أن يواجه بيئته الطبيعية والاجتماعية وأن يتفاعل معهما فى ظل تلك الثقافة الاسلامية التى اهتدى اليها .

والفرد المسلم يستفيد من الخبرات التى تواجهه فى مواقف الحياة اليومية على الأرض وبين النـاس ، لأن الثقـافة لأية جماعة ما هى الا خبرات تراكمية .

وعموما فان تربية الفرد وتحقيق نموه لن يكون الا بأدوات الثقافة التى تقرها وتعترف بها عقيدة تلك الجماعة .

ومن هنا فالتربية الاسلامية تتحمل مسئولية تمكين الانسان المسلم من ثقافة اسلامية صحيحة ، لأن الفرد المسلم اذا تعرض لتربية لم تعطه كل ثقافة مجتمعه ، أو أعطته صورة خاطئة من هذه الثقافة ، أو تعرض لأن يتربى وينمو بوسيلة ثقافية لجماعة أخرى ، فان ذلك ينعكس على الفرد وعلى الجماعة وعلى التربية فى المقام الأول .

وحينئذ فالفرد لا يتمكن من مواكبة المعيشة فى حياته ، بالقدر الذى انحرفت به مادة التربية عن مادة ثقافة مجتمعه ، فحيثما نظرنا الى التربية من ناحية الفرد أو من ناحية الجماعة ، فاننا نجد الصلة المباشرة القوية بين التربية وبين الثقافة .

وكشف هذه الصلة ، وايضاح مفاهيم الثقافة ، هو بلا شك من الوسائل المعينة على مواجهة الغزو الثقافى للمجتمع الاسلامى .

وحتى يبرز هذا الايضاح ، فلا بد من قيام المؤسسات التربوية بأداء دورها فى هذا المجال .

ولا شك أن الأسرة والمدرسة ووسائل الاعلام كلها مؤسسات لها قدرتها فى بث الفكر الاسلامى والثقافة الاسلامية فى نفوس المجتمعات الاسـلامية .

* * *

الأسرة المسلمة .. ودورها التربوى في مواجهة الغزو الثقـافى

تعد الأسرة المسلمة اللبنة الأولى في تربية الفرد المسلم ، فالطفل يفتح عينيه على الأسرة منذ اللحظة الأولى لميلاده ، وتأثيرها عليه يلعب دورا كبيرا في توجيهه وتكوينه ، وبالقدر الذى تقدمه الاسرة للطفل من مميزات تربوية بقدر ما يتكون ويواجه المجتمع .

ولا شك أن استعداد الأبوين لبذل الجهـد التربوى ، واضفاء القدر المناسب لتنمية الطفل له أبلغ الأثر في تشكيله وتنميته ، فالأب والأم هما حجر الزاوية ، الذى عليه يمكن أن نشـيد صرح التربية الأسرية بالمنهج الصحيح ، بمعنى أن الطفل من صنع والديه ، ونبت تربيتهما . واذا أحسن الغرس ، حسن الثمر ، وكانت النتيجه فردا صحيحا نفسيا وخلقيا واجتماعيا وروحيا وجماليا .. إلخ . قال تعالى : **« والبـلد الطيب يخرج نبـاته باذن ربه ، والذى خبث لا يخـرج الا نكدا »**(1) .

ولا ننكر أن دور الأسرة ، يواجه بكثير من التيارات التى تعرقل السير في المنهج الصحيح للتربية الاسـلامية ، يبدو ذلك في اقتحام أجهزة الاعلام من مكتوبة ومسموعة ومرئية للطفل ، مما يشككه في كثير من القيم التى ترسخت لديه ، وتكونت عنده ، الأمر الذى يجعله يتذبذب بين قيم وتقاليد استقاها من الأسرة ، وبين ثقافة جديدة ، اقتحمت عليه فكره وعقله لا يحسن أى الطرق يسلك ، ولا أى المناهج يعتنـق .

من هنا بدت المسئولية الملقاة على عاتق الأسرة ، وغدا الطفل في أمس الحاجة الى وضوح في الرؤيا ، وتحديد لمعالم الطريق ، حتى يتخلص من هذا الغزو الفكرى المشبوه ، والملوث بالتيارات الهدامة ، والفكر المختلط .

---

(1) الأعراف : ٥٨

وحتى تحسن الأسرة مقاومة التيارات ، فان عليها أن تعيد النظر فى أساليبها التربويه ، وتتعرف على حاجيات الطفل النفسية والاجتماعيه ، فلا تترك الفكر الملوث ينخر فى قلبه وعقله ، بل عليها ان توفق بين قيمها الدينية وأساليب التنتشه الحديثه ، بحيث لا يقع الطفل بين شقى الرحى ويتوه فى الطريق ، ويتبعثر جهد الاسرة ، ويصبح المستقبل للطفل رهنا للمصادفات والأهواء •

واذا كانت الأسرة يتحتم عليها دائما وأبدا أن تضع مقـومات تصون بها الطفل من الوقوع فريسة لتيـارات هدامة ، اذا كان ذلك واجبا ، فانه يصبح أوجب اذا بات وشيكا توجيه البرامج التليفزيونية مباشرة من البلاد المتقدمة الى شتى أنحاء العالم ، ويغدو الطفل هدفا لتلك البرامج خصوصا اذا لم تكن هناك معاناة فى الاستقبال والمشاهدة سوى فتح الأجهزة لأى بث موجه من أية دولة شرقية كانت أم غربية ، ووقتها يكون التليفزيون ـــ مثل أجهزة الراديو ـــ ينقل الفكر ، ويغزو العقول فى كل أرض وفى كل مكان وفى كل منزل(٢) •

حينئذ سيواجه الآباء بمشاكل لا أول لها ولا آخر ، ويصبحون غير قادرين على مواجهة تلك المشاكل أو الحد منها •

ويكمن خطر الغزو الثقافى على أطفالنا فى الأمور التالية :

١ ـــ التعرض اللامحدود لهذا الغزو بالكلمة المكتوبة ، والآراء المسموعة ، والفكرة المصورة ، والتقاليد الفاضحة الممقوتة ، وذلك أن كثيرا من الروايات المسمومة تملأ الأسواق العالمية وتتسلل خفية فى الظلام الى مجتمعاتنا الاســلامية وهى مليئة بالقصص البوليسية والعــاطفية والعدوانية •• الخ • وطالمـا لا يجد الطفل المسلم ما يملأ فراغ وقته بالمفيد والجذاب والمبدع ، طالمـا لا يتوفر بين يديه ذلك ، فهو نهب شئنا أم أبينا لذلك الفكر •

أما الآراء المسموعة ، فلا مناص من الاعتراف أن البث الاذاعى من بقاع الأرض ، يسلط كثيرا من برامجه ـــ ليس فقط بلغته الأجنبية ـــ بل فى كثير من الأحيان بلغتنا العربية خلال موجاته الموجهة • وكثير من تلك البرامج مملوء بالسموم التى يقع الأطفال ضحية لها ، حيث تهتز

---

(٢) محاضرة معالى وزير الاعلام الدكتور محمـد عبده يمانى عن « أقمار الفضاء : غزو ثقافى واستعمار جديد » بتاريخ ٢ صفر سنة ١٤٠٣ هـ فى قاعة المحاضرات بجامعة أم القرى ـــ مكة المكرمة .

قيمهم وتتوه أمامهم الحقائق حول كثير من القضايا ، خصوصا اذا فقدوا برامج محلية بديله ، تشبع عندهم هذا التطلع ، وتصحح لهم كثيرا من المفاهيم الخاطئة ، ناهيك عن شرائط التسجيل الماجنه والملوءة غناء وطربا وموسيقى بها هوس وجنون ، ينبهر بها الفتيان والفتيات ويقعون فريسة لها وضحية لتدنيها .

اما الفكر المصور ، فبالرغم من حاجة الطفل اليه فى تفتيق ذهنه وتوقد قريحته ، الا اننا ما زلنا فى حاجة الى تنقية كثير منه ، من الخيالات اللامحدودة ، وعدم العقلانية فى كثير من مواقفه ، الامر الذى يربك الطفل ويضعه امام تساؤلات عدة لا يجد لها اجابه شافيه ، ويتارجح بين المعقولات والمحسوسات بل وربما يزداد ثقه فى مدرة الانسان الى أبعد مما تحتمله قدراته البشريه .

أما التقاليد الفاضحة ، فتتركز فى سفور المرأه فى بعض المجتمعات ووسائل زينتها التى فاقت الوصف فى الخروج عن آداب الاسلام وتعاليم الدين ، الأمر الذى يهون على الفتاة المسلمة قيمة الحجاب ، ويجعلها ترنو الى مجاراة المدنيه الملطخه بدماء الرذيلة والفساد .

ولا يقتصر التقليد على ذلك فهو ماثل أمامنا فى مضامين حياتية يومية . نلمحه فى حفلاتنا ، نلمحه فى جلساتنا ، نلمحه فى علاقاتنا ، نلمحه فى تصرفاتنا ، مما يترك بصماته المؤكدة فى ذهن الشباب والأطفال وينعكس ذلك على الحياة المستقبلية للفتيان والفتيات .

٢ ــ عدم الملاحظة أو المراقبة على قراءة أو سماع أو مشاهدة هذا الفكر الوافد ، وعدم الحجر أو التوجيه ازاء ذلك التقليد الأعمى ، أو بمعنى آخر تخلت أسر كثيرة عن مسئوليتها لمواجهة هذا الغزو الثقافى . فتركت الحبل على الغارب أملا فى التمشى مع ظاهر تلك الحضارة الغربية ، وما هى كذلك فى قليل أو كثير ، كما انشغلت أسر كثيرة بشئون أخرى قد تكون مادية أو غيرها ، وترك الأبناء والبنات نهبا لهذا الداء الدفين الخبيث الذى يسرى فى الجسم سريان الدم الملوث فى دم الكائن البشرى .

٣ ــ غدا الأطفال وقد فقدوا فى الأسرة أسلوب الصدق فى القول والاخلاص فى العمل والقدوة الصالحة بالمثال . ولم يعد للصدق من قيمة عند الطفل الا ألفاظا جوفاء يحفظها من كتاب ، كما بات الاخلاص فى العمل قصة تحكى وأضحت القدوة الصالحة تراثا يتلى .

من هنا جاء الانفصال بين النظر والتطبيق ، والفكر والعمل ، بينما

يقرن رب العزة جل وعلا فى كثير من آيات القرآن الكريم الايمـان بالعمل • قال تعالى : ((**ان الذين آمنوا وعملوا الصالحات آنا لا نضيع أجر من أحسن عملا**))[3] •

وقال سبحانه وتعالى : ((**أن الذين آمنوا وعملوا الصالحات كانت لهم جنات الفردوس نزلا**))[4] •

وبناء على ذلك انتهز آعداء الاسلام ، ذلك الموقف وبدأوا يتشككون فى كفاءة الاسلام على مواكبة الحياة العصرية ، مما جرف الكثير من الشباب والفتيات — على اقل تقدير — فى اهتزاز فكرهم وتبعثر قيمهم الأصـيلة •

٤ — كما يكمن خطر الغزو أيضا ، فى عدم وجود البدائل التى تنطلق من منطلقات اسلامية ، لتعوض الطفل هذا الفكر الوافد •

ولو وعينـا ذلك وابتكرنا الأساليب السليمه فى ممارسة الرياضة بأنواعها المختلفة ، والثقافة بقنواتها المتعددة بحيث نواكب الفكر الحديث بمنهج اسلامى • لو وعينا ذلك لقضينا على الكثير مما نعانيه فى عالم اليوم ، ولاستطاعت الأسرة آن تأمن عاقبة هذه الفجوة الخطيرة فى أساليب التربية •

ومن هنا يمكن أن نقول : ان المشكلة قائمة ، والتيار جارف ، والأمر جد خطير ، يحتاج الى العلاج الأمثل الذى يقتلع الداء من جذوره •• وفى نفس الوقت علينا أن لا نظن واهمين آننا نستطيع آن نغلق على الطفل نوافذ الثقافة دون وجود بدائل عنها ، آو نوجه الأسرة لتتخذ مواقف أكثر شدة وقسوة وغلظة وخشونة ازاء معاملة الطفل ، دون أن نضع لها التقييم الصحيح لكيفية إشباع حاجيات الطفل النفسية والاجتماعية والروحية والبدنية ، خصوصا فى هذا العصر الذى تزاحمت فيه منافذ الثقافة ، وصار عبثا محاولة التعمية على الطفل ازاء هـذه الثقافات ، اللهم الا فى ظل البدائل المبدعة التى توجه الطفل من منطلقات اسـلامية •

* * *

---

(٣) الكهف : ٣٠ (٤) الكهف : ١٠٧

* أما أساليب العلاج ، فيمكن أن نوجزها فى الأمور التالية :

١ — الاعتصام بالدين صمام الامان فى مواجهة هذا الغزو :

ذلك أن الأسره اذا نجحت فى تربيه الطفل بمنهج اسلامى ، واذا احتضن الطفل الاسلام قولا وعملا ، فصار دما يسرى فى عروقه ، وروحا ترتشفه نفسيته ، حينئذ يمكن القول : انه لا خوف على الطفل المسلم ، حتى ولو ملئت فجاج الارض مكرا محتلطا وأهدافا هدامه وقيما ملوثه ، طالما حققنا كلمه الله فى الأرض ، ونفذنا الهدف الصحيح من استخلافه ايانا ، بالمنهج المستقيم والاسلوب السليم •

ولا غرابه فى ذلك ، فالتربيه فى مراحل التكوين الأولى من حياة الطفل تلعب دورا هاما رئيسيا فى توجيهه ، وقد نندهش حين نلمح أن أسرا عديده ، عاشت وتعيش ، وسط البلاد العربية ، ومع ذلك فانها نجحت — الى حد ما — فى مقاومه هذا الغزو ، فلفظت فكره ورفضته ، لا لشىء سوى أنه أضحى مبتذلا وممقوتا فى نظر الآباء وانسحب ذلك على الابناء فصار مهينا فى نظرهم ، مكروها لدى فكرهم •

وكثير ممن تلقوا تعليمهم داخل أروقه الجامعات الغربية ، صاروا من أكثر خصوم الفكر الغربى ، والمهاجمين لأساليبه الهدامة • ولا شك أن الاعتصام بالدين الاسلامى وتقاليده السامية هو صمام الأمان لهذا الاتجاه المحمود ، خصوصا اذا تكون فى السنوات الأولى من حيـاة الطفـل •

٢ — التطبيق السليم للتربية :

ذلك أن الاسلام بكل مقوماته كفيل — اذا أحسن تطبيقه — أن يحمى الطفل من كل تلك الأفكار الهدامة ، غير أنه قد يحلو للبعض الادعاء أن طفل المجتمعات المتقدمة ، ونظم تربية الأسرة الغربية ، تنتج طفلا أكثر تحررا ، وأكمل صحة ، وأغزر انتاجا • وربما تبدو تلك حقيقة تلوح فى الأفق ، ولكنها فى واقع الأمر سراب يحسبه الظمآن ماء حتى اذا جاءه لم يجده شيئا • ذلك أن المرائى تكشف نقيض ذلك فى كثير من الأحيان ، فظواهر العدوان والغدر والتمرد واللامبالاة ، والهروب من الواقع كلها سمات اتصف بها كثير من الأطفال فى البلاد المتقدمة ، وما ذلك الا دليل على اخفاق تلك الأساليب التربوية الحديثة ، وعجزها عن انتاج الشخصية المتزنة المتناسقة ، بصرف النظر عن مظاهر

الترف والبهرجة وأساليب الحياة العصرية ، لأن ذلك كله يذوب أمام الفســاد الذى استشرى ، والقيم الروحية التى اهتزت أو كادت ، والتقاليد التى امتهنت . هذا مع اعترافنا فى نفس الوقت بوجود هذه الطفرة الهائلة من التقدم الاقتصادى والصناعى .

ولا نجانب الصواب حينمــا نؤكد أن فى الاســلام مبــادىء لو استخدمت بالشكل المناسب لحمت الطفل المسلم من تلك المزالق ، ولكفته الوقوع فى الهاوية ، ولحصنته من تلك التيارات الهدامة والفكر المــلوث .

٣ ــ البناء الصحيح للأسرة المسلمة :

حيث حث الاسلام آباء المستقبل أن يتخيروا الزوجه السليمة من الأمراض الخلقية والنفسية والاجتماعية على أن تكون ذات خلق ودين ، وأن تكون ولودا ودودا ، ان نظر اليها زوجها سرته ، وان أمرها أطاعته ، وان غاب عنها حفظته .

وحين يطلب الاسلام ذلك فى بناء الأسرة ، فانه يؤكد أن : العقل السليم فى الجسم السليم . روى ابن ماجه والديلمى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : « تخيروا لنطفكم فان العرق دساس » وروى ابن ماجة والدارقطنى والحاكم ، عن عائشة رضى الله عنهــا مرفوعا : « تخيروا لنطفكم وانكحوا الأكفاء » .

ولم يكن هناك من معيار لاختيار الزوجة سوى المنبت الحسن والخلق الحسن . روى الدارقطنى والعسكرى ، وابن عدى عن أبى سعيد الخدرى مرفوعا : « اياكم وخضراء الدمن » قالوا : وما خضراء الدمن يا رسول الله ؟ قال : « المرأة الحسناء فى المنبت السوء » . وانطلاقا من هذا المبدأ أوصى عثمان بن أبى العاصى الثقفى أولاده فى تخير النطف ، وتجنب عرق السوء ، حيث قال لهم : « يا بنى .. الناكح مغترس ، فلينظر امرؤ حيث يضع غرسه ، والعرق فى السوء قلما ينجب فتخيروا ولو بعد حين »(٥) . ولا غرو فان الأطفال هم ثمرة يعود أصلها الى طبيعة الآباء والأمهات ، والتكوين السليم من البداية ، يتبعه بالضرورة نبت حسن وخلق حسن .

---

(٥) عبد الله علوان . تربية الأولاد فى الاسلام . دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع ، حلب ، بيروت ، جـ ١ ، ص ٣٧ ، ٣٨

روى الترمذى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : « اذا جاءكم من ترضون دينه وخلقه فزوجوه ، الا تفعلوه تكن فتنة فى الأرض وفساد كبير » •

وأى فتنة أعظم على الدين والتربية والأخلاق من أن تقع الفتاة المؤمنة بين براثن خاطب متحلل أو زوج ملحد لا يراقب الله تعالى ، ولا يمتثل بأوامره ، ولا يقيم للشرف ولا للغيرة وزنا • وأى فتنة أكبر من فتاة تصبح زوجة لرجل فاسق يجبرها على السفور والاختلاط وارتكاب المحرمات من شرب للخمر ••• الخ[٦] •

وكم يصبح مؤسفا أن ينشأ أطفالنا ــ رجال المستقبل ــ وسط هذه البيئة المتحللة الماجنة الآثمة • فماذا نتوقع من أطفالنا والحال كذلك ؟

٤ ــ أثر الكلمة فى الأسرة :

للكلمة قيمة أساسية فى الأسرة ، فبها ومنها التوجيه الصحيح **« ألم تر كيف ضرب الله مثلا كلمة طيبة كشجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها فى السماء • تؤتى أكلها كل حين باذن ربها ، ويضرب الله الأمثال للناس لعلهم يتذكرون »**[٧] بالكلمة تستطيع الأسرة أن تبنى الضمير الخلقى لدى الطفل ، الضمير الذى لا يحيد ولا ينحرف ، ولا يهين ولا يلين أمام قوى البغى والفساد •

بالكلمة تستطيع الأسرة أن تجرد الفكر الوافد من أوهام الحقيقة ، وتعريه من مظهرية الصواب •

بالكلمة تستطيع الأسرة أن تراقب وتلاحظ تحركات الأطفال فتعدل سلوكهم اذا انحرفوا ، وتوجههم اذا ضلوا الصواب أو حادوا عن الجادة •

بالكلمة نحقق منهج الاسلام فى أساليب عقاب الطفل المذنب واثابة المطيع المجد •

ولا شك أن بالكلمة ، يمكن أن نفتت الصخر ، ونلين القلوب القاسية وكلما منح الآباء حكمة فى القول ، وسدادا فى الرأى ، وتطبيقا سليما فى العمل ، كلما توقعنا أطفالا ناجحين ، على المحن صابرين ، لكيد الأعداء صامدين ، وللفكر الملوث نابذين ورافضين •

---

(٦) المرجع السابق ص ٣٥ ، ٣٦ (٧) ابراهيم : ٢٤ ، ٢٥

المسجد .. ودوره التربوى
فى العصر الحـــديث

درج الناس على مدى التاريخ الطويل للحضارة الانسانية ، أن يستندوا الى التربية فى توجيه حياتهم ، بحيث تصبح هذه التربية طاقة وقوة دافعة للحضارة الانسانية ، ترتبط بمشكلات الفرد والجماعة ، ويرى المجتمع فيها نفسه ويؤكد فيها ذاته .

والتربية الحقيقية هى التى تؤدى دورها فى بناء المجتمع ، ولن يتحقق ذلك الا بنوع معين من التربية ، تنطلق فيه طاقات الأفراد ، وتستثمر فيه قدراتهم ، ويكونون بذلك قادرين بما لديهم من مهارات وقيم وفكر على أن يحولوا كل ما لدى المجتمع من موارد بيئية الى طاقات تكون فى خدمة الانسان .

واذا صح أن أول مدرسة اسلامية ظهرت فى الربع الأخير من القرن الرابع الهجرى ــ كما يشير الى ذلك د. سعيد اسماعيل فى كتابه « معاهد التعليم الاسلامى » وان كان لم يحدد أية المدارس أسبق فى الظهور ، هل المدرسة الصادرية (٣٩١ هـ) فى دمشق ، أم مدرسة ابن فورك (٤٠٦ هـ) . وسواء أكان هذا أم ذاك ، فالمهم أن الربع الأخير من القرن الرابع الهجرى شهد ميلاد أول مدرسة اسلامية ، وان كان بعض المؤرخين قد روج لفكرة تقول : ان نظام الملك الوزير السلجوقى هو أول من بنى المدارس فى العصور الاسلامية ، فقد أنشأ المدرسة النظامية ببغداد عام ٤٥٧ هـ ، وان كان الكثير من الكتابات يؤيد أنها ظهرت فى الربع الأخير من القرن الرابع الهجرى كما ذكر ذلك د. سعيد اسماعيل فى كتابه سالف الذكر .

أقول فاذا صح ذلك فمؤداه أن المسجد حتى هذا التاريخ كان هو المؤسسة التربوية الوحيدة ، الذى نيطت به مسئولية التربية الكاملة بجميع جوانبها العقلية والبدنية والاجتماعية والروحية والأخلاقية .

وان كان هذا لا يعنى أنه بعد هذا التاريخ وحتى الآن ، قد نقص دور المسجد وانما ما نعنيه هو أن المسجد فى تلك الفترة ــ قبل انشاء المدرسة ــ قد حقق الأهداف التربوية المنشودة ، وأدى دوره بنجاح فى غيبة المدرسة وقبل نشأتها .

المسجد .. ودوره التربوى
فى العصر الحــديث

درج الناس على مدى التاريخ الطويل للحضارة الانسانية ، أن يستندوا الى التربية فى توجيه حياتهم ، بحيث تصبح هذه التربية طاقة وقوة دافعة للحضارة الانسانية ، ترتبط بمشكلات الفرد والجماعة ، ويرى المجتمع فيها نفسه ويؤكد فيها ذاته .

والتربية الحقيقية هى التى تؤدى دورها فى بناء المجتمع ، ولن يتحقق ذلك الا بنوع معين من التربية ، تنطلق فيه طاقات الأفراد ، وتستثمر فيه قدراتهم ، ويكونون بذلك قادرين بما لديهم من مهارات وقيم وفكر على أن يحولوا كل ما لدى المجتمع من موارد بيئية الى طاقات تكون فى خدمة الانسان .

واذا صح أن أول مدرسة اسلامية ظهرت فى الربع الأخير من القرن الرابع الهجرى ــ كما يشير الى ذلك د. سعيد اسماعيل فى كتابه « معاهد التعليم الاسلامى » وان كان لم يحدد أية المدارس أسبق فى الظهور ، هل المدرسة الصادرية (٣٩١ هـ) فى دمشق ، أم مدرسة ابن فورك (٤٠٦ هـ) . وسواء أكان هذا أم ذاك ، فالمهم أن الربع الأخير من القرن الرابع الهجرى شهد ميلاد أول مدرسة اسلامية ، وان كان بعض المؤرخين قد روج لفكرة تقول : ان نظام الملك الوزير السلجوقى هو أول من بنى المدارس فى العصور الاسلامية ، فقد أنشأ المدرسة النظامية ببغداد عام ٤٥٧ هـ ، وان كان الكثير من الكتابات يؤيد أنها ظهرت فى الربع الأخير من القرن الرابع الهجرى كما ذكر ذلك د. سعيد اسماعيل فى كتابه سالف الذكر .

أقول فاذا صح ذلك فمؤداه أن المسجد حتى هذا التاريخ كان هو المؤسسة التربوية الوحيدة ، الذى نيطت به مسئولية التربية الكاملة بجميع جوانبها العقلية والبدنية والاجتماعية والروحية والأخلاقية .

وان كان هذا لا يعنى أنه بعد هذا التاريخ وحتى الآن ، قد نقص دور المسجد وانما ما نعنيه هو أن المسجد فى تلك الفترة ــ قبل انشاء المدرسة ــ قد حقق الأهداف التربوية المنشودة ، وأدى دوره بنجاح فى غيبة المدرسة وقبل نشأتها .

ومع التطور الزمنى والمحن التى اجتاحت العالم الاسلامى ، استحدثت معوقات حدت من أداء المسجد لدوره التربوى ، مما استدعى بالضرورة تحسس أساليب وأنماط تربوية للمسجد تتناسب مع متغيرات العصر الحديث وتستمد من قيم الاسلام ومقوماته .

وسنتناول ثلاث نقاط رئيسية فى هذا الموضوع :

١ ــ المنظور التاريخى للدور التربوى للمسجد .

٢ ــ المسجد وظروفه الراهنة .

٣ ــ نمط الدور التربوى للمسجد فى العصر الحديث .

أولا ــ المنظور التاريخى :

* انتشار بناء المساجد :

يعتبر المسجد الحرام بمكة أول بيت وضع للناس ، قال تعالى : ((**ان أول بيت وضع للناس للذى ببكة مباركا وهدى للعالمين**))(١) .

ويليه فى المنزلة المسجد الأقصا ، قال تعالى : ((**سبحان الذى أسرى بعبده ليلا من المسجد الحرام الى المسجد الأقصا الذى باركنا حوله لنريه من آياتنا ، انه هو السميع البصير**))(٢) .

كما يعد مسجد قباء أول ما بنى من المساجد فى الاسلام ويحتل مسجد الرســول صلى الله عليه وسلم بالمدينة مكانة عالية ، فاليه تشـد الرحال .

وتوالت بعد ذلك الانشاءات للمساجد فى كل مدينة ، وفى كل بقعة من أرض الاسلام والتى تشرفت بأن انتشر فيها الاسلام ، ففى مصر بنى الجامع الأزهر عام ٣٥٨ هـ ، كما كان قد أنشىء مسجد أحمد ابن طولون بالقاهرة (الفسطاط) عام ٢٦٥ هـ ، وفى دمشق أنشىء الجامع الأموى وتم بناؤه عام ٩٦ هـ ، وفى بغداد أنشأ الخليفة العبـاسى أبو جعفر المنصور جامع المنصور عام ١٤٥ هـ . وفى عام ٥٠ هـ بنى عقبة بن نافع جامع القيروان . وفى تونس أنشىء جامع الزيتونة عام ١١٤ هـ ، وكان قد بناه عبيد الله بن الحبحاب ، وفى قرطبة أنشىء جامع قرطبة عام ١٧٠ هـ ، بناه عبد الرحمن الداخل .. وغير ذلك من المساجد التى عمت المشرق والمغرب ، وكانت مضرب الأمثال فى الاثراء العلمى والفكرى والتربوى ، فقد أنيط بتلك المساجد مهام جسام شملت كثيرا

---

(١) آل عمران : ٩٦ (٢) الاسراء : ١ .

من مقومات الحياة الحرة الكريمة • فلم تكن تلك المساجد قاصرة فقط على الجانب الروحى ، بل اتسعت لتشمل التربية والتعليم ، ففى المسجد الحرام بمكة تخرج فطاحل الفقهاء والمحدثين منهم الامام الشافعى الذى تعلم وأفتى وجلس للتدريس بالحرم المكى ثم ارتحل الى العراق وكتب فيها مذهبه ثم ارتحل مرة أخرى الى مصر وكتب فيها مذهبه الجديد • وكان هذا العلم الغزير للشافعى نتيجة للدور الذى أداه المسجد الحرام فى التكوين العلمى للشافعى •

*** اتساع دور المسجد فى الاسلام :**

ولم يقتصر دور المسجد الحرام على علوم الفقه والشريعة بل اتسع ليشمل علوم الحديث واللغة من نحو وصرف وبلاغة • ولن ننسى الدور الذى قام به فحول العلماء بالمسجد الحرام حينما تمكنوا — على مدى التاريخ الطويل — من القيام بالاجابة عن الكثير من الأسئلة التى كانت تفد من كل صوب وحدب تستفسر عن الكثير من أحكام الدين والشريعة الاسـلامية •

وفى مسجد الرسول صلى الله عليه وسلم بالمدينة المنورة جلس النبى صلى الله عليه وسلم معلما أصحابه أمور الدين ، وشارحا قواعد الاسلام بأسلوب النبى المعلم ، بالاضافة الى أن هذا المسجد كان مكانا لاستقبال الوفود واستنفار الجيوش ، وعقد المعاهدات ، وجمع الزكاة ، الأمر الذى جعل من المسجد مجمعا لجميع مصالح المسلمين بالاضافة الى الهدف الأسمى للمسجد وهو العبادة وبناء الجانب الروحى للفرد المسلم • وفى هذا المسجد تخرج جهابذة الفكر وعظماء المسلمين ومنهم عروة بن الزبير بن العوام وسعيد بن المسيب وزيد بن ثابت وعبد الله بن عمر ، وغيرهم كثير وكثير •

وفى الجامع الأزهر كثرت حلقات الدرس ، وشملت علوم الدين واللغة والتى تطورت فيما بعد حتى أصبح هذا المسجد نواة لأعرق جامعة اسلامية •

وفى المسجد الأموى بدمشق التقى الكثير من طلاب العلم من بلاد الشام ينهلون من الفقهاء والذين جلسوا للتدريس بهذا الجامع الشهير كما أن الامام الغزالى كان قد اعتكف فى احدى صوامع هذا المسجد وعرف مكانه هذا بالغزالية وما زال بهذه التسمية حتى الآن ، ولقد شمل التعليم بهذا المسجد علوم التفسير والحديث واللغة ، وكان ابن مالك أحد فطاحل علماء اللغة الذين كانت لهم حلقة بهذا المسجد •

كما اشتهر مسجد المنصور ببغداد بكثرة طلابه الذين توافدوا من أجل طلب العلم على فطاحل العلماء ومنهم الكسائى الذى يقرأ علوم اللغـــة •

✻ دور مساجد شمال أفريقيا الرائد :

ولم يكن حظ مساجد القيروان والزيتونة وقرطبة وغيرها بأقل حظا من غيرها ، فلقد أدت المساجد دورا رئيسيا فى الحفاظ على التراث الاسلامى ، وبناء الأجيال المؤمنة التى استطاعت بايمان الرجال وعزم المسلم الذى لا يلين أن تشيد صرح الاسلام وأن تقيم الدولة الاسلامية قوية عزيزة ، مهيبة الجانب يخشاها أعداؤها ، ويرهبها كل من يحاول النيل منها • ولم تكن تلك الأجيال قد تخرجت فى جامعة ، بل كانت الجامعة والتربية والبناء كله داخل بيت الله ، داخل المسجد الذى كان ملتقى للفكر ومكانا للدرس ، وصدق الله العظيم اذ يقول : ((**انما يعمر مساجد الله من آمن بالله واليوم الآخر وأقام الصـــلاة وآتى الزكاة ولم يخش الا الله ، فعسى أولئك أن يكونوا من المهتدين**))[٣] •

وقال تعالى : ((**قل أمر ربى بالقسط ، وأقيموا وجوهكم عند كل مسجد وادعوه مخلصين له الدين ، كما بدأكم تعودون**))[٤] •

وكأننا بهذه الآيات أمام هدف أسمى للمسجد هو التوحيد والوحدة ، وتوحيد الله ، والوحدة الايمانية التى تنعكس على المسلمين ، وهم على قلب رجل واحد ، يتجهون الى الله فى وقت واحد ، وصف واحد ، وموقف واحد ، أمام رب واحد ، الكل أمامه واحد ، لا فضل لأحد على أحـــد فالدين عام وشامل ، والرب حاكم وعادل •

وهكذا تلمح الصبغة الروحية التى يكتنفها المسجد ، ويتنسم رحيقها المسلم كل يوم خمس مرات •

ولا شك أن هذا الزاد الروحى ، حين يلقى نسماته على المسلم يزيح من وجهه كل كوابيس الأرض ، وينزع عنه لباس الخوف والفزع ، ويصبح المسلم فى مأمن لأنه مع الله ((**فادعوا الله مخلصين له الدين ولو كره الكافرون**))[٥] •

---

(٣) التوبة : ١٨ ــ وانظر : د• سعيد اسماعيل على ، معاهد التعليم الاسلامى ، دار الثقافة للطباعة والنشر ، القاهرة ، ١٩٧٨ ، ص ٩٦ ــ ١٢٢

(٤) الأعراف : ٢٩. (٥) غافر : ١٤

هذه اللمسات الروحية ، بالاضافة الى الجوانب التربوية الأخرى التى سبق الحديث عنها ، تقلصت أو كادت مع مرور الزمن ومع ظهور بدائل أو وسائط تربوية جديدة ، أدت الى ظهور معوقات حدت من آداء المسجد لدوره التربوى .

* * *

ثانيا ـــ المسجد وظروفه الراهنة :

* أسباب تقلص دور المسجد الرائد :

ربما كان من أسباب تقلص دور المسجد التربوى ، ظهور المدرسة الاسلامية التى تمكنت من دراسة العلوم التجريبية والتى تحتاج الى معامل خاصة ونظام معين قد لا يتسع له المسجد . وتألقت الوسائط التربوية بمؤسساتهـا المختلفة ، والتى تمثلت فى المدرسة والجـامعة ووسائل الاعلام من صحافة واذاعة وتلفاز ، الأمر الذى أوجد الكثير من نوافذ المعرفة ، والتى أطلت على الانسانية بكثير من الفكر المستورد ، والتيارات المنحرفة والتى لا تتناسب مع مفاهيم الفكر الاسـلامى والتربية الاسلامية فى كثير منها ، ومن هذا المنطلق ، وعن طريق تلك الوسائط التربوية الحـديثة والتى جاءت فى معظمهـا على نهج غير اسلامى ، سادها التقليد السافر للفكر الغربى فيما يتعلق بالكثير من الأنماط التربوية وبتنا وأصبحنا وقد اختفى الكثير من القيم الاسلامية الخلاقة ، والأسس التربوية السلمية فى المنزل والشارع وأماكن العمل ، واضمحل بالتالى الدور التربوى للمسجد ، خصوصا فى ظل الاعداد المتواضع للدعاة والخطباء فى المساجد ، الأمر الذى ترتب عليه انصراف الكثير من المسلمين عن المسجد ، أو بالأحرى عدم تعليق الكثير من الآمال التربوية على المسجد .

* آثار انحسار دور المسجد القيادى :

وبهذا الشكل اقتصرت وظيفة المسجد الآن فى كثير من بلاد الاسلام على تأدية الصلوات ، واعطاء بعض دروس الوعظ التى تأتى فى الكثير متناثرة وغير هادفة أو مترابطة ، وكان من ثمرة ذلك أن انتشرت كثير من العادات السيئة ، والمستجلبة من وسائل الاعلام الحديثة ، فانطمست قيم أخلاقية كثيرة ، وسادت صفات أخرى ذميمة وممقوتة ، ولا شك أن هناك صيحة تعلو الآن تنـادى بأن يعود للمسجد الدور القيـادى

التربوى ، وقد تنجح هذه الاجتهادات أحيانا ، خصوصا مع توفر الامكانيات وصدق النية لله رب العالمين ، ولكن لا يخلو الامر من الحاجة لبذل المزيد من الجهد للتعرف على كيفية استعادة المسجد لدوره التربوى فى العصر الحديث •

* * *

ثالثا — أسلوب ونمط الدور التربوى للمسجد فى العصر الحديث :
حتى يعود للمسجد دوره الرائد :

تسعى التربية دائما إلى تحقيق النمو الكامل والمستمر للفرد ، ليشمل الجانب البدنى والاجتماعى والخلقى والثقافى ، وحتى يستعيد المسجد دوره ازاء هذه الغايات فلابد من توفر العناصر التالية :

وضوح الأهداف التربوية للمسجد فى فكر الأئمة والخطباء للمساجد وهذه الأهداف لابد أن تنطلق من منطلقات اسلامية ، وتعتمد على فكر اسلامى مستمد من كتاب الله تعالى وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم ، قال تعالى : « **فى بيوت أذن الله أن ترفع ويذكر فيها اسمه يسبح له فيها بالغدو والآصال • رجال لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله واقام الصلاة وايتاء الزكاة ، يخافون يوما تتقلب فيه القلوب والأبصار • ليجزيهم الله أحسن ما عملوا ويزيدهم من فضله ، والله يرزق من يشاء بغير حساب** »(٦) • وتتلخص أهداف المسجد التربوية فى :

(ا) اعداد الفرد المسلم الصحيح البدن الجيد الخلق السليم القلب المثقف بالفكر الاسلامى الخالص والمتسم بالكمال الانسانى •

(ب) بنية المسجد ورسمه وتخطيطه يجب أن تنهج منهجا جديدا ، يغطى احتياجات بناء الفرد المسلم ومن هنا يجب أن يعد المسجد فى صورته الجديدة ليكون مؤسسة اسلامية تضم قاعة كبيرة للمطالعة ، مزودة بالكثير من الكتب الاسلامية والاجتماعية والثقافية لتغطى الكثير من احتياجات الفرد المسلم • كما تضم تلك المؤسسة قاعة كبيرة تمارس فيها الأنشطة الرياضية للشباب على اختلاف أنواعها بحيث يمكن بناء المسلم الصحيح البدن ، فى ظل الرعاية السليمة الموجهة •

وبهذا نضمن اقبال الشباب على المؤسسة الاسلامية — المسجد — وقضاء معظم الوقت بداخلها ، مما يؤدى الى وجود خط موازى للوسائط

---

(٦) النور : ٣٦ — ٣٨

التربوية الأخرى . والتى بها الكثير من الخلط والتشويش على عقول الشباب .

وبالطبع فالمؤسسة — المسجد — يجب أن تتم فيها اللقاءات والندوات التربوية والاجتماعية فى المناسبات المختلفة .

(ج) التمويل الكافى للمسجد فى صورته الجديدة ، وذلك حتى يمكن تحقيق الأهداف سالفة الذكر ، ويا حبذا لو وضعت له ميزانية خاصة لها عدة مصادر للتمويل سواء على المستوى الرسمى أم المستوى الاجتماعى والشعبى .

(د) وأخيرا الاعداد الجيد للقادة التربويين من الأئمة والخطباء ، ليكونوا طاقات تربوية موجهة .

ولن يكون ذلك الا حينما تتوفر خطة متكاملة داخل كل دولة اسلامية على حدة ، وداخل كل مجموعة من الدول الاسلامية تتضح فيها الأهداف وتبرز فيها الغايات من وراء رسالة المسجد التربوية فى ظل اعداد جيد يقوم عليه أئمة متخصصون .

ولعل من دعائم ضمان الاعداد الجيد للأئمة ، أن تؤسس معاهد خاصة تستقبل حفظة كتاب الله وتقدم لهم تلك المعاهد دراسات دينية ، يمكنهم بعدها مواصلة دراساتهم بنجاح فى أقسام الاعداد المختلفة للأئمة والخطباء .

بعد هذا يمكن أن يحقق الدور الذى نيط به ويتمكن من أن يستعيد مكانته الأولى فى الأزمان السالفة .

ويصبح المسجد مؤسسة تساهم فى البناء الصحيح للفرد المسلم وتتولى علاج المشكلات الاجتماعية والأسرية ومشكلات الشباب خلال الحياة اليومية بالاضافة الى الهدف الأسمى وهو التربية الروحية .

ونحن متفائلون بأن تحقيق هذا سيكون قريبا ان شاء الله تعالى ، فالغيرة متوفرة ، والنية صادقة ، وبعض المؤسسات الاسلامية تسعى جاهدة فى سبيل هذا ، والله سبحانه من وراء القصد وهو الهادى الى سواء السبيل ، والله متم نوره ولو كره المشركون .

* * *

لا يستطيع انسان — مهما أوتى من ثقافة — أن ينكر الدور الكبير الذى يقوم به الاعلام فى عالم اليوم كما لا يستطيع أن يتملص من القراءة أو المشاهدة أو الاستماع الى وسائل الاعلام المختلفة ، فهو شاء أم أبى يتعامل مع هذه الوسائل ، ويحتك بتلك الركائز الثقافية المتعـددة .

ومع هذا التطور الهائل ، والتقدم التكنولوجى الرهيب ، تيسر للانسان التعرف على كل ما يدور فوق هذه الأرض ، من شرقها الى غربها ومن شمالها الى جنوبها ، فلم تعد المسافات الشاسعة عقبة فى تسيير الخبر الى أقصى أرجاء المعمورة ، وانما كل ما يمارسه الفرد لا يتعدى ادارة مفتاح صغير ، به ينفتح على كل ما يدور فوق هذا الكوكب من تفاعلات وأحداث وأنباء .

من هنا فلا مناص من الاعتراف بالدور الجوهرى الذى يلعبه الاعلام فى حياتنا ، بل هو بحق الصورة التى تعكس كل أوجه الثقافة المتعددة ، والمعارف الكثيرة داخل وخارج المجتمع .

والمجتمع — أى مجتمع — يمكن الحكم على تطوره أو تخلفه ، تقدمه أو تقهقره من خلال ما تقدمه وسائل الاعلام فى ذلك المجتمع ، بمعنى أنه كلما اتسمت برامج الاعـلام فيه بالجـدية والموضوعية والمسئولية كلما دل هذا على تقدم المجتمع وتطوره ، والعكس صحيح .

واذا كان هذا المعنى يصدق على الاعلام المحلى داخل المجتمع ، فان وعى الأفراد ، وتسلحهم بالوسائل العلمية الصادقة ، والثقـافة الاسلامية الصحيحة خير موجه لهم ، لتقبل الصحيح من الاعلام الموجه عبر البث الاذاعى الخارجى الذى يأتى عن طـريق برامج الاذاعات الموجهة الى عالمنا العربى والاسلامى .

ومما لا شك فيه أن تداول أجهزة الاعلام ، بهذا الكم الضخم ، وتلك الأعداد الهائلة ، واختراقها الى منازلنا وبيوتنا ، سهل أسلوب التعامل مع هذه الأجهزة ، الأمر الذى تطلب الحرص والتوعية خلال التعامل مع تلك الوسائل الاعلامية .

والواقع المر أننا لا نستطيع السيطرة أو التحكم فى تلك الأجهزة ، مما أكد علينا ضرورة التوجيه المباشر وغير المباشر لعقول الشباب والأطفال ، وتوعيتهم أثناء استماعهم للبرامج من خلال تلك الأجهزة .

ولا شك أن الدين عندما يصبح متعمقا فى نفوس الجماهير ، وأصيلا فى كيان الشباب والأطفال ، كلما توفر ذلك ، كلما استطعنا أن نأمن مخاطر البرامج الموجهة الى عالمنا العربى والاسلامى .

ومن الملاحظ أن الاعلام أصبح يشكل قوة فعالة فى جميع المجتمعات غنيها وفقيرها ، عظيمها وحقيرها ، متقدمها ومتخلفها ، كما أنه يتضمن جميع التغيرات السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية . وربما يتفاوت التأثير والتأثر من جانب الى جانب آخر ، ومع ذلك فيبقى أن وسائل الاعلام ما زالت وستظل تمثل قطاعا كبيرا وضخما ، يسير جنبا الى جنب مع وسائر المؤسسات التربوية الأخرى داخل المجتمع .

من هنا بات لزاما علينا اعطاء درجة عالية من الاهتمام بوسائل الاعلام كاحدى وسائط التربية ، التى تحتاج الى توجيه والى تبصير وتوعية ، خصوصا مع ما نشاهده فى عالم اليوم من القصور الذى أحاط بالمؤسسات التربوية ، ومنها المدرسة والأسرة وغيرهما .. وأيضا مع ما نلاحظه من أن الاعلام يخاطب الملايين ببرامجه ، مهما كانت طبيعة هذه الملايين ، مثقفة أو غير ذلك ، واعية بقيمة وفهم الكلمة أم لا ..

ولا شك أن الغزو الثقافى يحاول بشتى الوسائل استخدام الاعلام فى بذر سمومه بين البراعم الغضة من الأطفال والشباب حتى يتمكن من بلبلة الفكر ، وذبذبة الفرد فى سبيل قلة ثقته فى معتقداته ، ومقدراته الثقافية والحضارية والدينية .

وهذا الغزو الثقافى يهدف فى حقيقته الى فرض فكر غير اسلامى لمفكرين غير مسلمين ، وذلك عبر نشاطه الاعلامى والتربوى الموجه ، من أجل التشكيك فى صلاحية المنهج الاسلامى كنموذج صالح للمجتمع عبر برامج اعلامية موجهة هادفة .

والاعلام الاسلامى بما له من رصيد ضخم وهائل ، قادر على تنمية قدرات الأفراد فى جميع المجالات ، وقادر كذلك على التناسق بين الفرد وبين عقيدته ، بين الفرد ومجتمعه ، بحيث ينتظم المجتمع ، وتختفى منه فجوة الخلخلة بين الفكر والعمل ، بين النظر والتطبيق.

طالما يستمد الاعلام مادته ونصوصه من الثقافة الاسلامية ، ومن الفكر الاسلامى .

« ولا شك أن الفرد — أى فرد — تتناسب قدرته على المعيشة الناجحة فى جماعته مع القدر الذى يحصله من ثقافته . والسبب فى هذا أن الجماعة ليست فى حقيقتها — عندما ننظر اليها بمنظار التربية — ليست الأفراد الذين يكونونها ، وليست الأجيال المتعاقبة عن هؤلاء الأفراد وانما حقيقة الجماعة فى الثقافة التى تتوارثها الأجيال المتعاقبة .

ومن هنا فالأفراد يذوبون فى كل جماعة ، وتبقى الثقافة ، فهى لا تذوب أبدا ، لأنها واجهة الجماعة ومرآتها » .

وبناء على ذلك فان تربية الفرد فى ظل العقيدة الصحيحة المستمدة من القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة أمر حتمى يقع على الاعلام المسئولية الكبرى من بناء الفرد المسلم ونموه فى ظل تلك المبادىء السامية ، حتى يستطيع أن يواجه مجتمعه المحلى ، والمجتمع الدولى وأن يتفاعل معهما بما استفاده من ثقافته الاسلامية التى اهتدى اليها .

من هنا فالاعلام يتحمل « مسئولية تمكين الانسان المسلم من ثقافة اسلامية صحيحة ، لأن الفرد المسلم إذا تعرض لتربية لم تعطه كل ثقافة مجتمعه أو أعطته صورة خاطئة من هذه الثقافة ، أو تعرض لأن يتربى وينمو بوسيلة ثقافية لجماعة أخرى ، فان ذلك ينعكس على الفرد وعلى الجماعة وعلى التربية فى المقام الأول » .

* * *

مصطلحات ومفاهيم

أولا — الاعلام العام :

ويقصد به تزويد الجماهير بأكبر قدر ممكن من المعلومات الموضوعية الصحيحة والواضحة ، وكلمة الاعلام فى حد ذاتها مصاغة من أعلمه بالشىء ، فهو يقوم على مبدأ التفاهم القائم على تنظيم التفاعل بين الناس وتجاوبهم وتعاطفهم فى الآراء فيما بينهم ، والاعلام بهذا يعتبر من الظواهر التى طورتها الحضارة الحديثة وأمدتها بالمواد والامكانيات الهائلة ، بحيث أصبحت تمثل قوة لا يمكن الاستغناء عنها فى عالم اليوم على المستويين الشعبى والحكومى على السواء .

ثانيا — الاعلام الاسلامى :

ويقصد به تكوين رأى عام صائب يدرك الحقائق الدينية ويتفهمها ويتأثر بها فى معتقداته وعباداته ومعاملاته ، بشرط أن تتوفر فيمن يتعرض لهذا الميدان الصفات الدينية والخلقية المتعمقة والواسعة فى الموضوع الذى يتناوله بالكلمة المكتوبة أو المسموعة أو المشاهدة .

وبصفة عامة ، فالاعلام الاسلامى يهدف الى تزويد الجماهير بحقائق الدين الاسلامى المستمد من الكتاب والسنة بصورة مباشرة أو غير مباشرة من خلال وسيلة اعلامية دينية متخصصة أو عامة .

* * *

* الموقف الحالى للاعلام :

بنظرة متأنية فاحصة لصور الاعلام المتعددة الحالية نلمح أنه يعتريها القصور وينتابها الخلل فى كثير مما تقدمه ، وما تتعرض له من قضايا وموضوعات ، على جميع الأشكال والتخصصات سواء ما كان منها بالكلمة المكتوبة أو المسموعة أو البرامج المشاهدة .

(أ) الكلمة المكتوبة : ويلاحظ أن الكلمة المكتوبة لم تف ولم تشبع حاجات ومتطلبات مختلف القطاعات من الجماهير ، خصوصا من الشباب والأطفال .

ويظهر هذا بوضوح عندما نلمح أنه لا تنويع فى الأبواب المكتوبة بل هى ثابتة ، لا تلوين فيها ولا تجديد ، بل ربما لا تتاح الفرصة للجيل الصاعد من الشباب أن يدلى بدلوه ، وأن يدخل ميدان الكتابة بنمط جديد ، بهدف التكامل فى البنية الثقافية بين التراث الحضارى ، وبين المكتشفات المعاصرة ، فالأصالة والتجديد ملمحان ملحان نحتاج اليهما فى عالم اليوم .

والمشاهد أيضا أن فن الاخراج للكلمة المكتوبة سواء بالصحف اليومية أو المجلات أو الكتب الثقافية ، يحتاج الى اعادة نظر ، فغالبا ما ينحصر الاخراج فى أشكال محدودة لا ينفك عنها ولا يتجاوزها بحال من الأحوال ، الأمر الذى يجبر القارىء على أن يستقى المعلومات من صحف أخرى ، قد تكون خارجية وأجنبية وغريبة عن بيئتنا وغير مستمدة من قيمنا ومبادئنا الاسلامية ، وحينئذ يقع شبابنا فريسة لفكر وافد علينا ، يقتحم دارنا بارادتنا ، أو بالرغم منا ، طالما لم نخرج الصحيفة

أو المجلة بالشكل الذى يستقطب الجمهور ، ويسيطر على اتجاه الأفراد نحو القراءة .

والملاحظ كذلك أن متطلبات الجماهير لا تجد لها صدى بصورة كاملة خلال الكلمة المكتوبة ، فالشأن فى الكلمة المكتوبة أن تستجيب لحدس ومشاعر الجماهير على جميع المستويات الثقافية لا أن تفرض نوعا معينا ولونا خاصا من ألوان الثقافة .

ومما تجدر الاشارة اليه إختفاء ظاهرة توزيع الأدوار الثقافية بين الصحف والمجلات والكتب ، فلا نلمح بشكل جدى وفعال أبوابا من صحيفة أو أجزاء من مجلة خصصت للشباب أو الأطفــال تبحث فى مشاكلهم ، وتتعرف على احتياجاتهم بصورة متكاملة ، تتحرى فيها صدق التعبير ، وتراعى فيها المبادىء والقيم المستمدة من الكتاب والسنة .

(ب) الكلمة المسموعة : بالرغم من المحاولات المبذولة لبث برامج دينية متخصصة فى قضايا الدين عبر اذاعات معينة الا أننا نلمح القصور فى أمور تتركز فى : الازدواجية بين البث الاذاعى للبرنامج العام والبث الاذاعى لأمور الدين ، الأمر الذى ترتب عليه ازدواجا وبعثرة للجهود ، وغدت المسألة وكأنها مجرد ساعات تخصص لبرامج دينية فى اذاعة خاصة ، قد لا يتنبه لها قطاع كبير من الجماهير ، ناهيك عن اجتذاب البرامج المنبثة من البرنامج العام والتى تستقطب اتجاه الكثير من الشباب والأطفال . وبهذا خلا البث الاذاعى للبرامج الدينية — من المحطات الخاصة — من تحقيق هدفه بالشكل المأمول ، وهو التوعية الثقافية لأمور الدين والعقيدة الاسلامية للسواد الأعظم من الجماهير المسلمة ، اللهم فيما سوى البعض من الكبار فى السن ، ممن أهلوا أصلا فى أمور الدين .

ومن هنا بات المواطن تستهويه البرامج الترفيهية ، وتسيطر عليه ، مما لا يجد به متسعا لاستماع البرامج الدينية المتخصصة .

— لا موازنة بين البرامج الاذاعية ، وبين احتياجات الجماهير والمشكلات اليومية التى تعيشها . فالمواطن فى حاجة الى ما يمس جوهر حياته مباشرة ، سواء فيما يتصل بالجانب النفسى والروحى أو الجانب الخلقى أو العقلى أو البدنى .. الخ .

— ما زال نصيب الشباب والأطفال من البرامج فى حاجة الى جهد وتدعيم للتأكيد على دور الشباب من أجل تحقيق النمـو الاجتماعى والاقتصادى والحضارى والثقافى .

— البرامج الموجهة الى عالمنا العربى والاسلامى تصاحبها سموم مدسوسة ، بهدف النيل من اسلامنا ومن حضارتنا ومن مقدراتنا ، وبرامجنا الاذاعية لا تعير اهتماما خاصا وبشكل فعال لمواجهة هـذه المغالطات ، والرد على تلك الافتراءات والأباطيل ، وتشويه الحقائق ، الأمر الذى يربك المواطن العـادى ، وقد يقع فريسة لتلك البرامج فتحتويه ، وتستولى على فكره ، فيتشكك فى مقدرات أمته وحضارة بلاده ؛ ولم يكن ذلك سوى التقصير فى ترك الحبل على الغارب لهذه البرامج المدسوسة والدخيلة على بلادنا •

— ما زالت هناك مجالات كثيرة ، تحتاج الى برامج جديدة تساير الحضارة التى نعيشها ، وتتوازى مع التقدم الصناعى والاقتصادى الذى تعيشه أمتنا الاسلامية ، حتى تستجيب تلك البرامج بشكل مباشر وغير مباشر لحياة المسلم فى عالم اليوم ، وحتى تستقطب جميع الأفراد على جميع المستويات الثقافية والنوعية •

(جـ) البرامج المرئية : ولا مندوحة من التسليم أن هناك محاولات تبذل من أجل تطوير هذه الوسيلة الاعلامية الحديثة ، التى استقطبت معظم الجماهير من مثقفين وغير مثقفين ، لدرجة باتت الكلمة المكتوبة تعانى من ندرة قرائهـا ومن سبر أغوارها • ولا شك أن الجمـاهير تستهويها الراحة ، فطالمـا تصل اليها المعلومات بشكل أيسر ، فلا حاجة بها الى بذل الجهد المـادى والبدنى فى شراء الكتاب وفى قراءته •

وما دام الحال والشأن كذلك فان « التليفزيون » يلعب دورا تربويا خطيرا فى العصر الحالى ، ومع ذلك لا يختلف اثنان على أن هناك قصورا يتركز فى أن البرامج التليفزيونية خالية من الكثير من اعطاء الشباب القدر المناسب من مناقشة مشاكلهم ، ومن تعرف على ظروفهم خلال المتغيرات الجديدة ، سواء منها ما يرتبط بالأسرة أو العلاقات الزوجية ، أو مشكلات الزواج وما الى ذلك مما لا يمكن فصله عن حياة المواطن • كما نلاحظ أن مشكلات الناس لا بد أن تتضح من خلال برامج تناقش مشكلات الجماهير ، وتستجيب لطرائق حلها بما يتفق ومبادئنا الدينية السمحة • ومما تجدر الاشارة اليه أن بعض برامج « الكرتون للأطفال » خصوصا الأجنبية منها ما زالت تعتريها شبهات ، وينتابها الخلط فيما يتصل بالخيالات غير المعقولة ؛ الأمر الذى يحتاج الى بدائل متخصصة تتم بمادة علمية صادقة وبصورة كريمة بعيدة عن الايقاع فى الشبهات

أو الانبهار بأمور خرافية تربك الطفل وتوقعه فى تشكيك وتشويش لا أساس له من دين •

* * *

* طرق العلاج :

وتتركز طرق العلاج فى :

أولا : التنسيق بين دور الصحف والمجلات والكتب الثقافية بما يضمن تحقيق الأهداف المنشودة فى بناء المواطن المتكامل علميا وثقافيا وخلقيا ودينيا •• الخ •

ثانيا : تلاشى الازدواجية ـ بقدر الامكان ـ بين برامج البث الاذاعى من البرنامج العام ، وبين البث الاذاعى من المحطات المتخصصة فى البرامج الدينية • وهذا يتيح الفرصة لتوحيد برامج دينية كثيرة بحيث يمكن ضمان الاستماع اليها لقطاع كبير من المستمعين •

ثالثا : استحداث بدائل لبرامج الأطفال ، بحيث تظهر البطولات الاسلامية كمادة علمية فى قصص مبسطة ، تركز على التراث الاسلامى ، وتساهم فى بناء الشخصية السوية الواعية بالفكر الاسلامى الأصيل •

رابعا : يجب أن تتزامن البرامج المسموعة والمرئية مع الأوقات التى يستجيب فيها الجمهور للرؤية أو الاستماع ، خصوصا فيما يتصل بالبرامج المرتبطة بمشكلات الناس ، حتى تتلاشى بعثرة الجهد المبذول فى تلك المـادة العلمية المسموعة أو المرئية •

خامسا : ملاحقة الأفكار التى تبثها البرامج الموجهة الى عالمنـا العربى والاسلامى والعمل على تعريتها من الصحة والصواب أولا بأول •

سادسا : النزول الى الشارع وتبنى مشكلات الناس وملاحقة العمل على حلها وعلى علاجها •

سابعا : اشراك الأقلام الجديدة ، والأفكار الجديدة بالكلمة المكتوبة والمسموعة والمرئية •

* * *

المدرسه والمجتمع متلازمان رقيا وتخلفا ، تقدما وتأخرا ، تطورا وجمودا . فحيثما يكون مستوى المجتمع يكون مستوى المدرسة ، وحيثما يكون مستوى المدرسة يكون مستوى المجتمع ؛ فمن وظائف المدرسة انها تعمل على زيادة كفاية المجتمع وفاعليته ، فى معركة الصراع والتنافس الثقافى . الذى بلغ ذروته فى عصرنا الراهن ، وبات مؤكدا أن كل صراع بين الجماعات البشرية ، انما هو صراع بين ثقافات ، وحضارات وطرق حيـــــاة .

واذا كانت معظم العلاقات الدولية ، والعـــلاقات الخارجية بين المجتمعات . لا تخلو من لون التنافس والصراع الثقافى ، فان واجب المدرسة تزويد الجيل الناشىء بأدوات هذا الصراع ، سواء منها الزراعية أو الصناعية أو الأيديولوجية أو الجغرافية ، وقبل هذا وبعده الدينية .

هذا واذا تأكد لدينا أن المؤسسات التربوية والتعليمية ، وعلى رأسها المدرسة . لم تسلم من هذا الغزو الثقافى ، بل كرس هذا الغزو حملاته وجهوده . لبذر تلك السموم بين البراعم الغضة ، حتى يمكن تطعيم هذا الجيل بفكر ملوث ، يهدف إلى بلبلة الفكر ، وذبذبة الفرد من أجل زعزعة ثقته ، فى معتقداته ومقدراته الثقافية والحضارية .

أقول : اذا كان ذلك كذلك ، فما هو واقع المدرسة الحالى فى المجتمع الاسلامى ؟ ثم كيف تسلل هذا الغزو الثقافى الى المدرسة فى المجتمع الاسلامى ؟ وهل المدرسة فى المجتمع الاسلامى قادرة على مواكبة روح العصر فى ميادين العلم المختلفة ؟

ثم هل المنهج فى صورته الحالية ، يتيح الفرصة لبنـــاء العقلية الابتكارية المبدعة ، القادرة على الصمود فى وجه التيارات الالحادية الهدامة ؟ وهل المعـــلم فى المدرسة مهيأ نفسيا وعلميا وتربويا وخلقيا ودينيا لتحمل مسئوليته فى بناء الفرد المسلم ، المتسلح بمقومات الثقافة الاسلامية : القادرة على مواجهة التيارات الالحادية الهدامة ، والغزو الثقافى الخطير ؟

ثم هل تلميذ المدرسة الحالى قابل ومهيأ لتحمل دوره فى المستقبل ، سواء فى جانب الفكر والنظر ، أو الابداع والابتكار ؟

لا شك أن المدرسة فى مجتمعاتنا الاسلامية ، وفى صورتها الراهنة تحتاج الى مراجعة للبرامج والمناهج ، وطرق التدريس ، حتى يمكنها أن تواكب العصر وتساير التقدم •

* * *

أولا ــ وصف عام لطبيعة المدرسة وأهدافها فى العصر الحالى :

يغلب على طبيعة المدرسة فى عصرنا الحالى أسلوب التلقين ، الذى يعنى فرض وجهة نظر معينة على التلاميذ ، دون السماح لهم فى غالب الأحيان بمناقشة وجهات نظر أخرى ، كما يعنى التلقين أيضا محاولة التركيز على نقل المعـــارف والتراث ، كما هو من أجل المحافظة عليه والبقاء له على مر الأجيال والدهور •

من هنا فلم يكن هناك من هدف للمدرسة الحالية ، سوى أنها مكان لتلقى مجموعة من العلوم والمعارف ، وتحفيظ المتعلمين لها ، دون الاهتمام بالجانب الابتكارى أو الابداعى ، اللهم فيما عدا العلوم العلمية التى تحتاج الى جهد جهيد من أجل الوصول بها الى تحقيق أهدافها الحقيقية •

وعموما فلقد بات جل اهتمام المدرسة ، وخصوصا فى المرحلة الابتدائية منصبا على التخلص من الأمية ، للسواد الأعظم ، فى بلاد المجتمعات الاسلامية ، وخصوصا الفقيرة منها • واذا صح أن بعض تلك المدارس تولى وجهها شطر المواد الدراسية الأساسية ، فانها لا تعدو أن تكون مبادىء أولية فى الحساب ، ومختارات معينة من القرآن الكريم والسيرة النبوية والأحاديث ، وبعض الدراسات فى الأخلاق الاسلامية ، والتواريخ والمناسبات السياسية •

وحتى فى المدارس الدينية ــ المعاهد المتخصصة ــ نجد مناهجها قد تقلصت ، لتغــدو محصورة فى علوم الدين : من فقه ، وتفسير ، وعقيدة ، وعلوم اللغة العربية ، دون ما ارتباط كبير بالمواد العلمية ، المرتبطة بالمفاهيم العصرية ، والنظريات العلمية الحديثة ، الأمر الذى ترتب عليه عزل خريجى هذه المدارس عن الفكر المعاصر ، وبالتـــالى حصرهم داخل نطاق محدود ، سواء فى دور العبـــادة أو المؤسسات الدينية الضيقة •

من هنا بات التباين واضحا بين نمطين من التعليم : التعليم الدينى والتعليم المدنى وغدا معظم طلاب العلم ، وأولياء الأمور ، يجنحون الى الدفع بأبنائهم وبنـــاتهم الى التعليم المدنى ، حتى يتخلصوا من هذا الحصار المضروب عليهم .

ولا شك أن هذه النتيجة كانت الثمرة ، التى تمخضت عن الغزو الثقافى للمجتمعات الاسلامية . وهذا مما يلقى بالتبعية علينا ، من أجل تبيان كيفية تسلل ذلك الغزو الثقـــافى الى مدارسنا ، فى المجتمعات الاسلامية ، وكيف أنه لعب هذا الدور الخطير ، فى ارساء دعائم التعليم ، بصورة ازدواجية : دينية من جهة ومدنية من جهة أخرى ، فى حين لم يسلم كلا النظامين من قصور فى الأهداف ، والمناهج ، وطرق اعداد المعلم ، ونوعية التلميذ .

واذا كنا قد ألمحنا الى ذلك فى التعليم الدينى ، فان التعليم المدنى لم يكن أكثر حظا من التعليم الدينى ، حيث خلا فى كثير من مناهجه ، من الجانب الروحى ، والعقـــائدى والفكرى ، بل وحتى الابتكارى والابداعى ، وما جاء مشتملا على ذلك فلا يتعدى القشور التى لا تستقر فى ذهن المتعلم ولا تستكن فى قرارة نفسه .

واذا جاز لنا أن نقول : ان بعضا من بلاد العالم الاســـلامى ، خصوصا التى انجلى عنها الاستعمار ، قـــد سعت وجدت فى تطوير مناهجها ، واضفاء مزيد من التعديلات والتنقيحات على تلك المناهج ، حتى تغدو متلائمة مع البيئة المسلمة ، الا أنه وحتى الآن ما زالت هناك ثغرات بتلك المناهج ، خصوصا ما يرتبط منها بالجانب الروحى والدينى والعقائدى وينحصر ذلك فيما يلى :

(أ) ضيق المعرفة التحصيلية ، حيث أن ما يقدم خلال المراحل الدراسية ، لا يحقق الهدف المنشود ، مما ينتج أفرادا قليلى المعـــرفة خصوصا فى الجانب الدينى .

(ب) اعتمـــاد كثير من المدرسين على أسلوب التلقين ، وهو أسلوب لا يؤثر كثيرا فى نفوس التلاميذ ، ولا يجذبهم الى الدرس .

(جـ) قصـــور بعض المناهج الدينية عن دراسة الشخصـــيات الاسلامية المتسمة بالأخلاق الحميدة .

(د) اقحام معلمين غير أكفاء لتدريس المواد الدينية .

(هـ) ضيق الوقت المخصص لتدريس المواد الدينية المرتبطه بالعقيدة ، فهو لا يتعدى ساعة أو ساعتين أسبوعيا ، بينما يبقى الامتحان فيها رهينا بالتأرجح بين الالغاء والابقاء ، وان أجيز الامتحان فلا تضاف درجته الى المجموع ، هذا فى الوقت الذى يستغل فيه أحيانا وقت التربية الدينية لاستكمال تدريس مواد أخرى[1] .

وهذا أمر يترتب عليه انصراف الكثير من التلاميذ عن هضم تلك المواد التى هى الركيزة الأساسية فى بناء الفرد المسلم ، لان الاسلام حينما يهتم بتربية الفرد ، فانه يعتمد فى ذلك على ما يتيحه للفرد من نصوص فى العقيدة ، ومن هدى النبى صلى الله عليه وسلم ، ومن خبرات تحيط به ، يكتسب من خلالها مواقف فى الحياة تهديه الى أقوم السبل ، وتساعده على أن يهضم ثقافته الاسلامية .

والفرد لا يتمكن من النمو نموا حقيقيا الا اذا استطاع أن يواجه البيئة الطبيعية والاجتماعية وأن يتفاعل معهما فى ظل من ثقافته الاسلامية التى اهتدى اليها .

ثانيا — كيف تسلل هـذا الغزو الثقـافى الى المدرسة فى المجتمع الاسـلامى ؟

١ — **المنظور التاريخى** : ويرجع ذلك الى الاستعمار الغربى ، الذى احتل كثيرا من بلاد العالم الاسلامى ، وما تعرضت له تلك البلاد من الحروب والغزوات العسكرية .

ومع تخلص الكثير من تلك البـلاد من هذا الغزو العسكرى ، الا أنها لم تسلم من الخضوع لغزو أعظم وأشد ، وهو الغزو الفكرى ، الذى جاء من أبواب متفرقة ، وبأساليب مختلفة ، والذى ساد معظم بلاد المجتمع الاسلامى .

ولـمـا كانت المدرسة هى أخصب مرتع لنشر ذلك الفكر الوافد ، فان المناهج قد شحنت وأدخل عليها ، أفكار وآراء ، وتيارات ملوثة لبثها بين الطلاب والطالبات .

ولقد بدا ذلك واضحا فى كثير من البلاد الاسلامية ، ومنها سوريا ومصر وغيرهما ، يقول ساطع الحصرى فى تقريره عن مناهج التعليم

---

(١) محمد عبد القادر أحمد ، طرق تعلم التربية الاسلامية ، مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة ، ط ١ ، ١٤٠١ هـ / ١٩٨١ م .

فى سوريا : « ان النظم العديدة التى وضعت فى سوريا فى عهد الانتداب الفرنسى انما وضعت تنفيذا لسياسة مرسومة بوضوح واتقـــان . ونستطيع أن نقول ان غاية هذه السياسة ، كانت تأمين سيطرة الثقافه الفرنسيه والنظم الفرنسية ، على معارف البلاد سيطرة مطلقة ، من غير التفات الى ما تتطلبه التربية السليمة والعلم الصحيح »[١] .

ولم تكن مصر بأفضل حظا من سوريا ، فلقد كرس الاستعمار البريطانى حملته الهائجة ضد مناهج التعليم فيها ، بل ان الاستعمار البريطانى عمــد الى اخراج « القسيس دنلوب » من مجاله الدينى الكهنوتى ليصبح مستشارا لمناهج التعليم ، حتى يتمكن من تجـــريد الثقافة والمناهج التعليمية من كل شئ يسمى بالاســـلام أو التربية الاســـلامية[٣] .

وفى هذا الاطار نلمح الدور الذى قام به الاستعمار ، من العبث فى مناهج التربية فى بلاد العالم الاسلامى ، متمثلة فى تنحية القرآن الكريم والتاريخ الاسلامى من مناهج المدرسة الابتدائية ومن هنـــا تخرجت أجيال مضطربة ، مادية الأغراض ، مزعزعة العقيدة[٤] .

٢ ــ **اقحام مفاهيم جديدة على الاسلام :** وذلك بادخال أفكار وثقافات بعيدة عن العلوم المــادية البحتة ، لأنها علوم تخضع للتجربة المــادية . وفرصة التزييف فيها معرضة للفشل ، بالاضافة الى أنهـــا لا تمس المفهوم الاسلامى الصحيح .

من هنا لم يجد الاستعمار الفكرى مناصا من بذر أفكار وثقافات تمس المفاهيم الاسلامية ، بحيث تتهيأ الظروف الملائمة ، والوسائل الكفيلة بمزاحمة المفاهيم الاسلامية لتحل محلها .

وعلى هذا برزت علوم تتصل بحكمة الوجود ونشأته ، ومصير الحياة ومصير الانسان بعد هذه الحياة .. وكلها علوم بعيـــدة عن التجـــربة .

---

(٢) محمد امين المصرى ، المجتمع الاسلامى ، دار الأرقم ، الكويت ، ط (١) ١٤٠٠ هـ / ١٩٨٠ م .

(٣) محمد محمود الصواف ، المخططات الاستعمارية لمكافة الاسلام ، دار الاعتصام القاهرة .

(٤) محمد منير مرسى ، التربية الاسلامية ، عالم الكتب ، القاهرة ، ١٩٧٧ م .

ويمكن بطريقة أو بأخرى أن تمس العقيدة الاسلامية والمفـاهيم الاسلامية التي تدور في هذا الاطار ..

ووفق هذا الاتجاه دخلت جملة من العلوم : كعلم النفس وعلم الاجتماع ، وعلم الأخلاق ، وعلم الاقتصاد ، وعلم السياسة .. ومن شأن هذه العلوم أنها قادرة على بلبلة فكر الشباب المسلم ، وغزو عقله ، خصوصا بما استحدثته تلك العلوم ، من بعض الحقائق الظاهرة ، التي تخضع للتجربة والملاحظة ، والتي ليس بمقدور الانسان أن يحرفها عن موضعها الذي وصلت اليه بالبرهان والدليل .

هذا ولم يتورع الغزو الثقافي من اثارة الشبهات حول مفاهيم الاسلام ، بل الأدهى وأمر من ذلك أنه شكك في بعض النصوص المشتملة في مضمونها على هذه المبادىء وتلك المفاهيم(٥) .

٣ ـ الترويج بأن الثقافة الاسلامية عاجزة عن مسايرة ومواكبة العصر :

وهدف هذه الوسيلة ، تنفير الجيل المسلم الناشىء من العلوم والثقافة الاسلامية ، بدعوى أنها عقيمة غير منتجة ، وبالتالي غير صالحة لمسايرة معارف العصر ومواكبة الثقافة الغازية .

ومن هنا فلقد ناهض هذا الغزو الثقافي المعارف الاسـلامية ، وأدخل فيها الشبهات ، وأثار حولها التعقيدات ، في سبيل محاربة الأنشطة التعليمية الاسلامية ، والتي تهدف الى مواجهة كل أنواع الغزو الثقافي الملوث .

وفي هذا الاطار روج الغزو الثقافي ، لتفريغ العقول المسلمة من الفهم الاسلامي الصحيح ، بغية تقبل ما تمليه تلك الفئة الباغية من فكر وافد ، وثقافة ملوثة ، تستطيع فرضها على عقول المسلمين .

كما نلمح أن هذا الغزو ، بالغ كثيرا في الاستهانة والنقد لتاريخ المسلمين ، من أجل تثبيت عنصر استهانة الأجيال المسلمة بحضارتها ، وفقدان ثقتها في تاريخها(٦) .

٤ ـ المنح الدراسية : وذلك باستقطاب أعداد كبيرة من المثقفين ، عن طريق المنح الدراسية ، للحصول على الشهادات الجامعية ، وفوق

---

(٥) عبد الرحمن حسن حنبكة ، أجنحة المكر الثلاثة وخوافيها ، ط (٢) دار القلم ، دمشق ـ بيروت ، ١٤٠٠ هـ / ١٩٨٠ م .

(٦) المرجع السابق ، ص ٦١٩ ، ٦٢٠ .

الجامعية . وهذا بدوره يتيح الفرصة أمام الفكر الغازى ، حتى يصير دما يسرى فى عروق السواد الأعظم من هؤلاء الدارسين ، الذين يتوقع أن يكون البعض منهم أبواقا لهذا الغزو ، خصوصا عند من سيدير منهم دفة التعليم فى بلادهم الاسلامية ، أو يمتهن التدريس بالمدارس فى تلك المجتمعات .

٥ ــ اغراق المكتبة الاسلامية عامة ، ومكتبات المدارس خاصة بالقصص الأجنبية المترجمة .

وهذا أمر مشاهد فى كثير من الكتب القصصية ، التى جاءت فى كثير منها خيالية وبعيدة عن الواقع ، أو بالأحرى عن الدين ، وهذا أمر بقوى لدى الطلاب الارتباط بالماديات واهمال الروحانيات تماما .

هذا ولقد اتسمت تلك القصص فى معظمها بالخيال ، والبعد عن الواقعية ، وتلك نماذج من مسميات تلك القصص مثل قصة : الأمير والضفدع ــ وقصة جعيدان ــ وقصة القذر السحرية ــ وقصة ليلى الحمراء والذئب . ومنها أيضا قصة بياض الثلج والأقزام السبعة ، وهذا أمر يندى له الجبين ، وترتعش منه الأبدان ، وينفطر منه القلب ، اذ كيف يمكن أن نقنع الطفل بأن هذه قصص خيالية ، وأنها لا صلة لها بالواقع .. !! وهكذا يقع أطفالنا وشبابنا ضحية هذه المجموعات الكبيرة من القصص الخيالية .

وتلك القصص جاءت ضمن سلسلة « ليديبرد بوك ليمتد » وهى سلسلة انجليزية ، ترجمت الى العربية ، دون أدنى مراجعة أو فحص ، لاستبعاد الغث منها ، وما لا يتناسب مع القيم الاسلامية ، أو المبادىء التربوية ، خصوصا مع تلك البراعم الغضة ، والعقول البسيطة ، التى يؤثر فيها مثل هذا الاتجاه ، ومثل تلك الألوان من الفكر الخيالى ، الأمر الذى يترتب عليه الانبهار بالخيالات ، والثقة فى الجمادات ، وعدم الارتباط بالقيم والروحانيات ، ولم يكن ذلك الا نتيجة لتأثير مثل تلك القصص الهدامة .

٦ ــ الانبهار بالتعليم الأجنبى : وذلك بجذب قطــاع كبير من الشباب المسلم الى التعليم فى مدارس أجنبية ، تيمنا باعتلاء أرقى الوظائف ، وتباهيا بالتعليم ضمن بنية التعليم الأجنبية بفلسفتها ونظمها وأيديولوجيتها .

* * *

ثالثا — طرق العلاج :

اذا كانت التربية فى البلاد المتقدمة تكون شخصيات مبدعة ومبتكرة فانها بلا شك خاليه من الروح التى توجه تلك القدرات المبدعة ، وتجعلها تلتزم بالابتكارات والاختراعات التى تفيد الانسانية من أجل الخير[7] .

ومع ذلك فان التربية الاسلامية قادرة على الخروج من دائرة التهمة : بأنها تكون رجالا وشخصيات قادرة على الاختراع والابداع والابتكار .. كما أنها قادرة كذلك على تكوين رجال قادرين على الاتيان بجديد ، لديهم روح الابداع والابتكار والاختراع ، ولا يقتصرون على الالتزام بالماضى وبما هو موجود .

كما أن التربية الاسلامية قادرة كذلك على تنمية الطبيعة الانسانية وتربيتها وتوجيهها ، حتى توجد نوعا من التناسق والترابط بين مكونات الشخصية الاسلامية بصفة متمايزة ومتكاملة وقادرة على الابداع والاختراع ، تستطيع صد التيارات الهدامة والغزو الثقافى الموجه .

وهذا بلا شك سيحمى الأجيال المسلمة ، من اقتفاء أثر الغزو الثقافى والسير خلفه شبرا بشبر فى جميع المبتكرات والاختراعات التى تغزو بلادنا بشرها وخيرها ، وحابلها ونابلها دون تمييز أو حماية للمجتمعات الاسلامية[8] .

ووقتها يمكن للعقول المسلمة أن تقتنع بأن الاسلام هو دين علم وتقدم وحضارة ، بالاضافة الى أنه دين أخلاق وعقيدة .

هذا ويمكننا أن نحدد أساليب العلاج فى الأمور التالية :

١ — اضافة مواد علمية جديدة ، تكون أداة من أدوات الدولة الحديثة فى المجتمعات الاسلامية ، وأساسا يقوم عليه امتداد العملية التربوية لتشمل الفكر والمهارات والخبرات المختلفة والمتباينة . وهذا يعنى تدعيم برامج التعليم بمواد ابتكارية وابداعية وتكنولوجية من أجل تكوين الفرد المسلم الحر المبتكر المبدع .

٢ — استخدام أحدث الطرق التربوية فى التدريس ، والتخلص من الأنماط التقليدية فى العملية التعليمية .

---

(٧) مقداد يالجن ، التربية الابداعية فى ضوء التربية الاسلامية ، الفيصل — مجلة ثقافية شهرية — العدد ٦٨ (صفر سنة ١٤٠٣ هـ — ديسمبر سنة ١٩٨٢ م) .

(٨) المرجع السابق .

٣ ــ الاعداد الجيد للمعلم علميا ومهنيا ، ونفسيا وخلقيا ودينيا • والتركيز على طرق انتقاء المعلمين ، الذين تتوفر لديهم الرغبة الذاتية الأكيدة للعمل فى مهنة التدريس •

٤ ــ اتاحة الفرصة أمام الطلاب والطالبات ، وذلك باعطائهم مجالات علمية واسعة ، حتى يستطيعوا أن ينتقوا منها الاتجاهات التى يفضلونها ، وتتناسب مع قدراتهم وميولهم ورغباتهم •

٥ ــ وضع المناهج وبرامج التعليم ، بشكل يضمن الاستغناء عما هو سائد فى مدارس التعليم بالخارج وخصوصا ما يتعلق منها بالفلسفات والأنظمة والايديولوجيات ، وهذا حتى نأمن الانبهار بتلك الاتجاهات أو مسايرتها •

٦ ــ تكثيف الجهود الفردية والجماعية ، عن طريق المؤسسات التعليمية ، ومراكز البحوث العلمية ، من أجل كتابة مجموعات ومسلسلات من الكتب والقصص الدينية والاجتماعية والاقتصادية والأخلاقية ، بحيث تكون مشوقة وجذابة تنبثق من اطار الاسلام ، وترتبط به من جهة ، كما ترتبط بروح العصر ومقدراته من جهة أخرى •

ووقتها نستطيع أن نقول : انه لا خوف على شبابنا أو فتياتنا من الغزو الثقافى حتى ولو ملئت فجاج الأرض فكرا مختلطا أو ثقافة ملوثة • ووقتها تكون المدرسة قد أدت دورها فى مواجهة هذا الغزو الثقافى للمجتمع الاسلامى **« ولينصرن الله من ينصره ، ان الله لقوى عـزيز »**(٩) •



---

(٩) الحج : ٤٠

الصدق .. وأثره التربوى فى المجتمع المدرسى

مما لا شك فيه أن بناء المدارس ، وتشييد المؤسسات التربوية بشتى مراحلها المختلفة هدف رئيسى ، تسعى كل المجتمعات — على وجه التقريب — الى تحقيقه .

والهدف الأسمى من بناء تلك المدارس ، ليس هو البنية الظاهرية ، المكونة للعملية التعليمية ، بل يكمن الهدف الرئيسى والأساسى فى تحقيق المساهمة الفعالة نحو ترسيخ وتدعيم القيم التربوية .

وتقاس استجابة الدول لعوامل التطور والتقدم الحضارى والتكنولوجى بمدى قدرتها على تحقيق الرخاء وبناء الانسان المتكامل نفسيا واجتماعيا وثقافيا وروحيا ، ومدى قدرة المدرسة على تطبيق وتحقيق هذا الهدف .

والسؤال الذى يطرح نفسه هنا :

كيف يمكن أن نحكم على نجاح العملية التربوية والتعليمية ؟

ثم ما هو المعيار الصادق لتحقيق هذا النجاح ؟

وأيضا هل يكمن النجاح التربوى فى تخريج أفواج ضخمة من المتعلمين بصرف النظر عن تكوينهم الخلقى الكافى ؟

وبادىء ذى بدء لا أدعى أن بحثا كهذا سوف يكشف الاجابة عن كل هذه التساؤلات !!! فهى دقيقة وعميقة وواسعة ، حيث ان المبادىء التربوية تحتوى على الكثير مما لا يتسع له المجال هنا ، فهناك الصدق ، والأمانة ، والاعتدال فى الانفاق ، والحشمة ، والمحافظة على المرافق .. وغير ذلك الكثير الغزير الذى اتسعت له المبادىء التربوية فى الاسلام .

غير أننا سوف نركز هنا على مبدأ واحد ، هو الصدق حيث انه يمثل من وجهة نظرنا حجر الزاوية فى العملية التربوية ، بل فى بناء المجتمع ككل .

هذا وسنتناول معالجة هذه القضية على النحو التالى :

أولا : مفهوم الصدق .

ثانيا : الصدق فى القرآن والسنة .

ثالثا : الصدق فى الوسط المدرسى .

رابعا : صور من آثار الكذب المدرسى .
خامسا : أساليب العلاج .

* * *

أولا — مفهوم الصدق :

يعرف الصدق على أنه : « قول الحق ، وبأنه القول المطابق للواقع والحقيقة »[1] كما يعرف على أنه « التعبير الحقيقة أيا كان لون التعبير » بالقول أو بالحركة أو بالاشارة أو بتأليف الكتب ، وما الى ذلك . فاذا كان التعبير عن الذات ، وجب أن يكون مطابقا لما يدور فى النفس . وان كان التعبير عن أمر خارجى ، وجب أن يكون مطابقا له دون زيادة أو نقصان ، لأن المبالغة والزيادة كذب ، والنقصان اجحاف وبخس وهو كذب أيضا[2] .

وأى مجتمع من المجتمعات لن يكفل له الاستقرار والاطمئنان ، الا اذا ساد الصدق بين أفراده ، وانتشرت معدلات الاخلاص والثقة ، فتصاعدت انتاجية المجتمع ، ناهيك عن الثقة العالمية والدولية .

ثانيا — الصدق فى القرآن الكريم والسنة :

جاء الصدق ومشتقاته فى القرآن الكريم ، فى أكثر من مائة وخمسين موضعا . جاء بصيغة الفعل قال تعالى : **« قل صدق الله ، فاتبعوا ملة ابراهيم حنيفا وما كان من المشركين »**[3] كما جاء بصيغة اسم الفاعل قال تعالى : **« واذكر فى الكتاب اسماعيل ، انه كان صادق الوعد وكان رسولا نبيا »**[4] وجاء أيضا بصيغة المبالغة ، قال تعالى : **« وأمه صديقة ، كانا يأكلان الطعام »**[5] كما جاء أيضا بصيغة الاستفهام ، قال تعالى : **« قال سننظر أصدقت أم كنت من الكاذبين »**[6] .

هذا وقد جاء وصف الأنبياء بالصدق فى القرآن الكريم فى أكثر من موضع . فقد جاء فى شأن ابراهيم عليه السلام قوله تعالى :

---

(١) عبد الرحمن الميدانى ، الأخلاق الاسلامية وأسسها ، دار القلم ، بيروت — دمشق ، ١٣٩٩ هـ / ١٩٧٩ م ، جـ ١ ص ٤٧٩

(٢) مقداد يالجن ، الاتجاه الأخلاقى فى الاسلام ، مكتبة الخانجى بالقاهرة . ١٣٩٧ هـ / ١٩٧٧ م ، ص ٢٨٠

(٣) آل عمران : ٩٥ (٤) مريم : ٥٤

(٥) المائدة : ٧٥ (٦) النمل : ٢٧

« **وأذكر فى الكتاب ابراهيم ، أنه كان صديقا نبيا** »[٧] وجاء فى شأن ادريس عليه السلام قوله تعالى : « **واذكر فى الكتاب ادريس ، انه كان صديقا نبيا . ورفعناه مكانا عليا** »[٨] . وغير ذلك كثير فى آيات القرآن الكريم .

وهذا وقد وردت أحاديث كثيرة تحث على التمسك بالصدق وتدعو اليه ، عن ابن مسعود رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « ان الصدق يهدى الى البر وان البر يهدى الى الجنة ، وان الرجل ليصدق حتى يكتب عند الله صديقا ، وان الكذب يهدى الى الفجور ، وان الفجور يهدى الى النار وان الرجل ليكذب حتى يكتب عند الله كذابا » متفق عليه . وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « البيعان بالخيار ما لم يتفرقا فان صدقا وبينا بورك لهما فى بيعهما ، وان كتما وكذبا محقت بركة بيعهما » متفق عليه . وعن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : « تحروا الصدق وان رأيتم الهلكة فيه ، فان فيه النجاة » . وأحاديث كثيرة أخرى لا يتسع لها المجال هنا .

ثالثا — الصدق فى الوسط المدرسى :

لا شك أن توفر الصدق فى جو المدرسة سوف يكون حافزا ايجابيا للعمل ، فمدير المدرسة الذى يتوفر لديه الصدق ، سوف يقبل على العمل بروح طيبة ينعكس أثرها على أسرة المدرسة بكل من فيها من العاملين سواء منهم المدرسين أو التلاميذ أو الموظفين والاداريين .

وعكس ذلك حينما يسود جو المدرسة الكذب ، فان هذا ينعكس على عزوف الكثيرين عن العمل ، وانعدام الرغبة أو الميل اليه .

هذا ، واذا صح أن المعلم هو حجر الزاوية فى العملية التعليمية ، فان عليه تقع تبعة انتشار الصدق فى ربوع المدرسة .

وبمقدار ما يتمتع به المعلم من الصدق ، بمقدار الفائدة التى تعود على التلميذ من جهة ، وعلى المجتمع ككل من جهة أخرى .

من هنا بات الصدق من أهم الصفات التى يجب توفرها فى المعلم الجيد والتلميذ يقلد أستاذه ، ويرى فيه نفسه ، ويؤكد فيه ذاته ، وكلما اعتمد أسلوب المعلم مع طلابه على الصدق ، كلما استطاع غرس تلك الصفة فى الطلاب حتى تصبح خلقا فيهم .

---

(٧) مريم : ٤١

(٨) مريم : ٥٦ ، ٥٧

رابعا — صور من آثار الكذب فى المدرسة :

توجد مجموعة من الآثار السلبية للكذب ، تنتشر فى الوسط المدرسى ويترتب عليها الكثير من تفشى الصفات السيئة وتعمقها فى نفوس الطلاب ، من هذه الآثار :

(ا) الهروب من المواجهة ، فالطالب حينما يكلف بواجبات مدرسية أو أعمال فنية لصالح المدرسة سواء داخل الفصل أو خارجه ، أو حتى أثناء القيام بالرحلات المدرسية ، فانه يميل الى الهروب من المواجهة ولا يستطيع أداء الواجب لذاته ، فيلتمس الأعذار بشتى السبل والوسائل مما يغـرس فيه الاتكالية والهروب ، وأثر هذا فى تكوين الشخصية سيىء وممقوت خصوصا حينما يشب الفرد المتعلم فيجد نفسه سلبيا فى جميع المواقف ، ويصبح شخصية تابعة ، بل ممتهنة لا يعتمد عليها ولا يوثق بها •

ولم يكن ذلك بهذا الشكل الا نظرا لممارسته الكذب حتى صار صفة متمكنة فى كيانه •

(ب) الاهمال فى أداء العبادات سواء منها الصلاة أو الصيام •• أو غيرهما ، صفة سيئة أخرى يمكن أن تتمخض عن الكذب ، فاذا سئل الطالب عن أدائه للعبادات أجاب بالاثبات وهو كاذب فى دعواه •

وهذه بلا شك من الصفات الممقوتة التى تمحق البركة من حياة الفرد . ويترتب عليها تفشى صفة الرياء قال تعالى : « **واذا قاموا الى الصلاة قاموا كسالى يراءون الناس ولا يذكرون الله الا قليلا** »(٩) •

وما لا شك فيه أن هذا الاهمال للعبادة يترتب عليه استمراء الطالب لارتكاب كثير من المخالفات ، وقد يجره هذا الى ارتكاب الكثير من المعاصى نظرا لأنهـا قد أصبحت مألوفة لديه ، مستساغة من وجهة نظره وهكذا ••

(ج) الغياب : وهذا هو بيت الداء بل هو حجر الزاوية فى تفشى صفة الكذب ، حيث ان الطالب يكذب على الأسرة حينما يوهمها بالذهاب الى المدرسة ، ويكذب على المدرسة حينما يتلمس الأعذار عن أسباب الغياب ، وليس الغياب فى حد ذاته هو المشكلة ، بل ما يترتب عليه من ممارسات تجر الى مالا تحمد عقباه •

---

(٩) النساء : ١٤٢

والظواهر التى ترتبت على الغياب تكمن فى :

شرب الدخان مع جماعة الرفاق ، وبطبيعة الحال يصحب ذلك الكثير من المخالفات الأخرى ، منها لعب الميسر ٠٠ وهكذا تتفشى تلك الأوزار بين جماعة الرفاق حتى تصبح غير قابلة للعلاج ٠

والمدرسة التى لا تلزم أولياء الأمور بضرورة الحضور الى المدرسة وابداء المرئيات حول سلوكيات أبنائهم ، انما تكون بذلك قد حادت عن الجادة وقد قصرت تماما نحو تربية أبنائها ، وبالتالى نحو المجتمع الذى توجد فيه ٠

(د) اهمال الواجبات المدرسية : تشيع هذه الصفة بين الطلاب ، ويكذبون على المعلمين ، ويدعون الكثير من المعاذير ، وطالما هم كذلك ، فانهم يملأون فراغهم داخل الفصل بأمور أخرى تضر بالصالح العام لمصلحة الطلاب جميعا ، من ذلك مثلا : فقد احترام المعلم ، وعدم الاكتراث بما يأمرهم به من واجبات ، والتهاون فى أدائها ، وأيضا يفقد المعلم السيطرة على الطلاب داخل الفصل ، بل ربما تتفشى ظاهرة الاهمال حينما يلمح الطلاب تهاون المعلم مع الطلاب المهملين الذين يستخدمون الكذب لهم مخرجا من المواقف الحرجة خصوصا ما يتعلق بالواجبات المدرسية ، وهذا فى حد ذاته يؤدى الى التهاون فى التعليم ، والتقليل من شأنه فى الوسط الطلابى ٠

(هـ) الحقد على المجتمع : مما لا شك فيه أن صفة الكذب ، تؤدي بالفرد فى النهاية الى الحقد على المجتمع ، لأن النتيجة النهائية للطالب الكاذب الفشل فى التعليم ، وبالتالي الفشل فى الحياة ، ويخرج الى الوسط الاجتماعى مملوءا بالحقد والعدوان والميل الى ارتكاب المخالفات ٠

خامسا ــ أساليب العلاج :

تكمن أساليب العلاج فى معلم المدرسة ، وكيف يمكن أن يتحلى بالصدق حتى يكون خلقا فيه ملازما له ٠٠ واتقان المعلم لدرسه وضبطه وسيطرته على الفصل ، وحزمه مع التلاميذ وعدم التهاون فى أداء الواجبات ومعرفته بعلم نفس الطفولة والمراهقة ، كل هذه جميعا من متطلبات ترسيخ الصدق عند التلاميذ ٠

ولا شك أن انتقاء المعلمين وحسن اختيارهم ، والقدوة الحسنة التى يتمتعون بها ، انما يترتب عليها تقليد الطلاب لهم وجعلهم المثل

الأعلى لسلوكهم خصوصا أثناء النشاطات التى يقوم بها المعلمون ، والعلاقات الانسانية الصادقة التى تتسم بها الروح الجماعية ، فلا يتميز طالب على آخر ، الكل أمام المعلم سواء فى المعاملة •• وهكذا •

ولا ندعى أن المعلم وحده هو المسئول عن انتشار صفة الصدق •• وان كان هو الأساس بل يشاركه مدير المدرسة والعاملون بها •

ولا يمكن أن ننسى الدور الهام للآباء ، فهم بلا شك مشاركون فى هذه العملية ، وعليهم العبء الأكبر لتربية أبنائهم داخل الأسرة •

من هنا فمسئولية المدرسة والأسرة غدت رئيسية حتى تتمكن من تأصيل الصدق فى نفوس الأطفال والشباب ، فيصبح خلقا لهم يتمسكون به مهما كانت النتائج •

ومدارسنا اليوم فى أمس الحاجة أن تتحرى هذا الخلق ، وأن ينتشر بين ربوعها الفسيحة ، وأن يختفى الكذب من بين شبابها • حينئذ تكون المدرسة حقا قد قامت بدورها فى بناء الفرد المسلم الذى تتوفر لديه مقومات خلقية قويمة •

واذا استطاعت المدرسة أن تؤدى هذا الدور فهى بلا شك ستسهم فى بناء المجتمع ، كما أنها ستخلصه من النفاق والمنافقين ، الذين استمرأوا الكذب حتى صار خلقا فيهم ، لأنه يحقق لهم أهدافهم من أيسر وأقصر الطرق ، مهما كان هناك من مخالفة ومهما كان هناك من تعارض مع المبادىء والقيم الاسلامية •

والكذب مهما جلب من ثمرة قد تكون سريعة ، فان مصيرها فى النهاية الفشل سواء فى الدنيا أو فى الآخرة ، ويبقى الصدق دائما صفة المؤمنين الصادقين • يقول الله تبارك وتعالى : ((**فمن أظلم ممن كذب على الله وكذب بالصدق اذ جاءه ، أليس فى جهنم مثوى للكافرين • والذى جاء بالصدق وصدق به أولئك هم المتقون • لهم ما يشاءون عند ربهم ، ذلك جزاء المحسنين**))[10] •

* * *

---

(١٠) الزمر : ٣٢ — ٣٤

الصيام •• وأهدافه التربوية

* من الأهداف التربوية :

لا جدال فى أن الاسلام استهدف سعادة الانسان فى الدنيا والآخرة • ولقد كان القرآن الكريم بمحتوياته الدستور الذى تضمن كل ما يسعد البشرية ، ذلك الكتاب الذى فيه من المبادىء والقيم التربوية ما تقف أمامه العقول حائرة ، والأقلام عاجزة عن التصوير • ولا غرو أن نقتطف بعض المبادىء التربوية ، حتى نلمح الى أى مدى كانت العبادات — ومنها الصيام — فى الاسلام تسعى الى تنمية تلك المبادىء وصقلها ، كما تسعى الى تثبيتها وتدعيمها •

* * *

* التربية الروحية والنفسية :

يسعى الاسلام بتعاليمه الى أن يرتفع بالنفس البشرية فوق الصغائر ، وينأى بها عن الموبقات والشهوات ، ذلك أن النفس لا تذل لشىء ذلها لشهواتها ، واستجابتها للانغماس فى المنكرات والموبقات • من هنا كان حرص الاسلام على أن يبين للفرد المسلم نتيجة حب تلك الشهوات ، وأنها مهلكة ، بينما الاستجابة لداعى الايمان وتقوى الله فيها الخير والنجاة • ويبين الاسلام أن الدنيا فى حد ذاتها وسيلة وليست غاية ، ولا يليق بالمسلم أن يتمادى فى الاستجابة لشهواته فتزل قدمه وينجرف عن الصراط المستقيم • قال تعالى : « **زين للناس حب الشهوات من النساء والبنين والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة والخيل المسومة والأنعام والحرث ، ذلك متاع الحياة الدنيا ، والله عنده حسن المآب • قل أؤنبئكم بخير من ذلكم ، للذين اتقوا عند ربهم جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها وأزواج مطهرة ورضوان من الله ، والله بصير بالعباد** »(٢) •

واستمرارا فى تهذيب الروح والنفس البشرية ، استهدفت العبادات وعلى رأسها الصيام ، استهدفت صقل النفس وتربية الروح حتى تشف

---

(٢) آل عمران : ١٤ ، ١٥

ونسمو وتعلو فوق الاستجابة للمعـــاصى والموبقات • قال تعـــالى : ((**يا أيها الذين آمنوا كتب عليكم الصيام كما كتب على الذين من قبلكم لعلكم تتقون • أياما معدودات**))(٣) .

وقال تعالى : ((**شهر رمضان الذى أنزل فيه القرآن هدى للناس وبينات من الهدى والفرقان ، فمن شهد منكم الشهر فليصمه**))(٤) .

وقال تعالى : ((**واذا سألك عبـــادى عنى فانى قريب ، أجيب دعوة الداع اذا دعان ، فليستجيبوا لى وليؤمنوا بى لعلهم يرشدون**))(٥) .

وتتفق هذه الآيات فى مجملها على أن التقوى والهداية وطلب الرشد ملمح رئيسى ، وهدف أسمى من وراء عبادة الصيام • وطالمـــا تحققت التقوى والرشد والهداية ، فان النفس البشرية والروح الانسانية ، تصبح فى مأمن من الوقوع فى مزالق العصيان •

يقول الامام البيضاوى فى تفسير قوله تعالى : ((**يا أيهـــا الذين آمنوا كتب عليكم الصيام**)) الآية •

((**كتب عليكم الصيام كما كتب على الذين من قبلكم**)) يعنى الأنبياء والأمم من لدن آدم عليه السلام ، وفيه توكيد للحكم وترغيب على الفعل ، وتطييب على النفس • والصوم فى اللغة الامساك عما تنازع اليه النفس وفى الشرع الامساك عن المفطرات بياض النهار فانها معظم ما تشتهيه الأنفس • لعلكم تتقون المعاصى ، فان الصوم يكسر الشهوة التى هى مبـــدؤها(٦) •

وفى قوله تعـــالى : ((**شـــهر رمضان الذى أنزل فيه القرآن**)) الآية ، يذكر الامام البيضاوى أن المراد بالشهر أنه ((من الشهرة ، ورمضان مصدر رمض أى احترق فأضيف اليه الشهر •• وانما سموا بذلك اما لارتماضهم من حر الجوع والعطش أو لارتماض الذنوب فيه أو لوقوعه أيام رمد الحر ((**الذى أنزل فيه القرآن**)) أى ابتدأ انزاله وكان ذلك ليلة القدر •• هدى للناس وبينات من الهدى والفرقان ، حالان من القرآن ، أى أنزل وهو هداية للنـــاس باعجازه ، وآيات

---

(٣) البقرة : ١٨٣ ، ١٨٤ (٤) البقرة : ١٨٥

(٥) البقرة : ١٨٦

(٦) الامام ناصر الدين أبو الخير عبد الله بن عمر الشيرازى ، أنوار التنزيل وأسرار التأويل ـــ المسمى تفسير البيضاوى ـــ دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع ـــ بدون تاريخ ـــ ص ٣٨

واضحات مما يهدى الى الحق ، ويفرق بينه وبين الباطل ، بما فيه من الحكم والأحكام ، ((**فمن شهد منكم الشهر فليصمه**)) فمن حضر فى الشهر ولم يكن مسافرا فليصم فيه ، والأصل فمن شهد فيه فليصم » .

وفى قوله تعـالى : ((**واذا سألك عبـادى عنى فانى قريب**)) الآية . يذكر أيضا البيضاوى : ((**واذا سألك عبادى عنى فانى قريب**)) : أى فقل لهم انى قريب . وهو تمثيل لكمال علمه بأفعال العباد وأقوالهم واطلاعه على أحوالهم بحال من قرب مكانه منهم . روى أن أعرابيا قال لرسول الله صلى الله عليه وسلم : أقريب ربنا فنناجيه أم بعيد فنناديه ؟ فنزلت : ((**أجيب دعوة الداع اذا دعان**)) تقرير للقرب ووعد الداعى بالاجابة ، ((**فليستجيبوا لى**)) اذا دعوتهم للايمان والطاعة كما أجيبهم اذا دعونى لمهماتهم ، ((**وليؤمنوا بى**)) أمر بالثبات والمداومة عليه ، ((**لعلهم يرشدون**)) ، راجين اصابة الرشد ، وهو اصابة الحق .. واعلم أنه تعالى لمـا أمرهم بصوم الشهر ومراعاة العدة ، وحثهم على القيام بوظائف التكبير والشكر عقبه بهذه الآية الدالة على أنه تعالى خبير بأحوالهم ، سميع لأقوالهم ، مجيب لدعائهم ، مجازيهم على أعمالهم ، تأكيدا له وحثا عليه »[٧] .

واذا كانت تلك الآيات تؤكد على التقوى وطلب الهداية والرشد من أجل تربية النفس وصقلها ، اذا كان ذلك كذلك فاننـا نلمح أن الأحاديث النبوية بينت هذا ووضحته كذلك ، فعن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « قال الله عز وجل : كل عمل ابن آدم له الا الصيام فانه لى وأنا أجزى به ، والصيام جنة ــ أى وقاية من النار أو المعاصى ــ فاذا كان يوم صوم أحدكم فلا يرفث ولا يصخب ، فان سابه أحد أو قاتله ، فليقل : انى امرؤ صائم ، والذى نفس محمد بيده لخلوف فم الصائم أطيب عند الله من ريح المسك . للصائم فرحتان يفرحهما : اذا فطر فرح بفطره ، واذا لقى ربه فرح بصومه » متفق عليه .

وعن سهل بن سعد رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « ان فى الجنة بابا يقال له : الريان ، يدخل منه الصائمون يوم القيامة ، لا يدخل منه أحد غيرهم ، يقال أين الصائمون ؟ فيقومون ،

---

(٧) المرجع السابق ، ص ٣٩

لا يدخل منه أحد غيرهم ، فاذا دخلوا آغلق فلم يدخل منه آحـــد » متفق عليه • ولا شك أن تلك المنزلة وتلك المكانة فى الدار الآخرة ، التى تتم للصائمين لم تكن لتتحقق لولا آن زكت أنفسهم وتطهرت أرواحهم بالصــــوم •

***

* التربية الجسمية والبدنية :

من المبادىء التربوية التى يسعى الاسلام الى تحقيقها : المحافظة على الجسم وصيانة البدن من كل ما يوقعه فريسة للأمراض ، فضلا عن التهلكة • والاسلام حين يقرر ذلك ، يهدف أن يتمكن الفرد المسلم من تأدية رسالته فى هذه الحياة ، وحتى حينما يمارس المسلم عبادة الصيام ، يسقط الله سبحانه عنه اتيانها وقت المرض ، حتى يتم برؤه ، ويقوى بدنه • قال تعالى : « **فمن كان منكم مريضا أو على ســـفر فعدة من أيام أخر** » يقول البيضاوى فى تفسير تلك الآية : « **فمن كان منكم مريضا** » يضره الصوم ويعسر معه ، « **أو على سفر** » أو راكب سفر « **فعدة من أيام أخر** » أى فعليه صوم عدة أيام المرض ، أو السفر من أيام أخر اذا أفطر »[8] • وفى قوله تعالى : « **يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر** » أى يريد أن ييسر عليكم ولا يعسر ، فلذلك أباح الفطر فى السفر والمرض »[9] •

من هنا فلم يكن الاسلام دينا يستهدف تعذيب الانسان وارهاق بدنه لم يكلفه الا فى حدود ما تمكنه امكانياته وقدراته • قال تعالى : « **ما يفعل الله بعذابكم ان شكرتم وآمنتم** »[10] ونهى الاسلام عن المبالغة فى العبادة لدرجة يهزل معها الجسم ويضعف معها البدن ، فلا تفريط ولا افراط ، وانما وسط واعتدال ، وقصد وتنظيم •

من هنا أباح الاسلام للفرد المسلم أن يتناول من الطعام والشراب من وقت المغرب حتى يظهر بياض النهار من سواد الليل • وهذا فى حد ذاته اقرار للمسلم أن يتناول من الطعام ما يحفظ عليه بدنه ويصون له ذاته • بيد آن هذا يتم فى ضوء النظام الدقيق المحكم ، ووفق مواعيد ثابتة ، لا يحيد عنها المسلم ، فيها تعليم وتهذيب ، ودروس تربوية عملية ،

---

(8) المرجع السابق ، ص ٣٨ — (9) المرجع السابق ، ص ٣٩
(10) النساء : ١٤٧

يتمرس عليها المسلم حتى تصبح لصيقة به ، يعيشها ويعاينها ، يمارسها فى أيامه العادية من العام ولا تنزلق قدمه ، فيأكل ويشرب بدون وعى وبدون حساب • وأيضا عليه أن يتذكر بالجوع الشعور نحو بنى جنسه من البشر ومن المسلمين ، حتى يساهم بما يسعدهم ويحفظ عليهم حياتهم • يقول الامام البيضاوى فى تفسير قوله تعالى : « **وكلوا واشربوا حتى يتبين لكم الخيط الأبيض من الخيط الأسود من الفجر** » : شبه أول ما يبدو من الفجر المعترض فى الأفق وما يمتد معه من غبش الليل ، بخيطين أبيض وأسود ، واكتفى ببيان الخيط الأسود لدلالته عليه ..(11) •

واذا كان القرآن بهذه الدقة الكاملة الشاملة ، يصون للمسلم ذاته وكيانه ، فان السنة النبوية أيضا أكدت وفصلت الكثير حول هذا ، وأشار النبى صلى الله عليه وسلم فى أكثر من حديث الى أن المبالغة فى العبادة ، ومحاولة تطويع أعضاء البدن لغير ما أعدت له ، انما فيه قهر للطبيعة الانسانية ، وتنطع فى الدين يأباه الاسلام ، لأنه خروج على مفهوم مكونات الانسان ، ومفهوم الوظائف البدنية • عن أنس رضى الله عنه قال : جاء ثلاث رهط الى بيوت أزواج النبى صلى الله عليه وسلم ، يسألون عن عبادة النبى صلى الله عليه وسلم ، فلما أخبروا كأنهم تقالوها — عدوها قليلة — وقالوا : وأين نحن من النبى صلى الله عليه وسلم ، قد غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر • قال أحدهم : أما أنا فأصلى الليل أبدا ، وقال الآخر : وأنا أصوم الدهر ولا أفطر ، وقال آخر : وأنا أعتزل النساء فلا أتزوج أبدا • فجاء رسول الله صلى الله عليه وسلم اليهم فقال : « أنتم الذين قلتم كذا وكذا ؟ أما والله انى لأخشاكم لله وأتقاكم له ، ولكنى أصوم وأفطر ، وأصلى وأرقد ، وأتزوج النساء ، فمن رغب عن سنتى فليس منى » متفق عليه •

وعن أنس رضى الله عنه قال : دخل النبى صلى الله عليه وسلم المسجد فاذا حبل ممدود بين الساريتين — عمودين — فقال : « ما هذا الحبل » ؟ قالوا : هذا حبل لزينب ، فاذا فترت — كسلت عن القيام للصلاة — تعلقت به • فقال النبى صلى الله عليه وسلم : « حلوه ، ليصل أحدكم نشاطه ، فاذا فتر فليرقد » متفق عليه •

---

(11) المرجع السابق — والآية من سورة البقرة : 187 •

وهكذا يتضح أن انقياد الانسان للعبادة طاعة لله ، محمول على التنسيق بين تحقيق العبودية لله رب العالمين ، واتزان الجسم ونشاطه ، حتى يقوى على معاودة العبادة والتزامها .

* * *

* التربية الخلقية :

وبلا أدنى شك ، فالصيام يهذب الخلق ، ويبعث فى النفس حب الانفاق ، والعطف على الفقراء والمعوذين . ولقد كان النبى صلى الله عليه وسلم جوادا وكان أجود ما يكون فى رمضان . عن أنس رضى الله عنه ، أن النبى صلى الله عليه وسلم جاء الى سعد بن عبادة رضى الله عنه ، فجاء بخبز وزيت فأكل ، ثم قال النبى صلى الله عليه وسلم : « أفطر عندكم الصائمون ، وأكل طعامكم الأبرار وصلت عليكم الملائكة » رواه أبو داوود باسناد صحيح . وعن زيد بن خالد الجهنى رضى الله عنه ، عن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « من فطر صائما كان له مثل أجره ، غير أنه لا ينقص من أجر الصائم شىء » رواه الترمذى وقال : حديث حسن صحيح .

وتدريب النفس على الانفاق ، وتعودها عليه ، يصبح بعد فترة خلقا للانسان وسمة من سماته ، يلتزم بها ويحافظ عليها ، خصوصا اذا ذاق حلاوة الانفاق فى سبيل الله وأدرك قيمته فى الدنيا وعاقبته فى الآخرة . قال تعـــالى : **((الذين ينفقون أموالهم فى سبيل الله ثم لا يتبعون ما أنفقوا منا ولا أذى لهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون))**(١٢) .

* * *

* التطبيق التربوى :

الصوم ينفرد من بين سائر العبادات ، بتساميه عن تحديد وتقدير جزائه عند الله رب العالمين ، وعبادة هذا شأنها ، وتلك منزلتها ، لا شك أنها الوحيدة التى يبرز فيها الصراع والكفاح من الانسان الى شىء يتعلق بذات الانسان ، لأن الصائم يجاهد ويكافح الهوى والشهوة ، لينتصر لايمانه بربه ، وليكبح جماح الالف والعادة التى تلازمه فى

---

(١٢) البقرة : ٢٦٢

حياته اليومية ، فينتصر بارادته ، ويحيى ضميره ، ويخضع رغبات بدنه وروحه ، فيصير صاحب الأمر عليها ، بدلا من أن يكون مستسلما ذليلا لها •

والمسلم تتنازعه قوتان : دعوة الشهوه ، ودعوة الرحمن ، فبينما الأولى تستهويه ليلبى نداءها ، ويستجيب لمطالبها ، فان الثانية تناديه أن يكف عن تلبية رغبات النفس وشهوات الجسم ، ويطيع الله رب العالمين ، فيدع طعامه وشرابه وشهوته طاعة لله ، عندئذ يصبح خليقا باكرام الله له مستحقا لمثوبته وجزائه العظيم • بعد أن أتى بهذا العمل الشاق ، وانتصر لنفسه من ذاته وسيطر عليها ، وأيقظ فيها الضمير ، فيصبح انسانا مراقبا لأعماله ، متمسكا بقيمه ومبادئه ، مجتنبا لليأس والاخفاق عند المحن والكروب ، كاظما غيظه حينما يكون كظم الغيظ حكمة ، صابرا ومتحملا فى سبيل تحصيل رزقه ضاربا بأخلاقه المثل الأعلى فى محبة اخوانه ، لأنه لا يستطيع أن يعيش وحده ، انما هو مرتبط بمجتمع ومرتبط بآخرين يشاركونه الحياة والعمل والمنافسة ، فلا مندوحة له من استثمار درس الصيام ، وما خرج به منه من تعلم الصبر ورقابة على النفس وحسن العلاقات مع الآخرين •

وبهذا تؤهل نفس المسلم وتصبح مستعدة لقبول ما تفرضه الحياة من حرمان ، وما تحدثه من أزمات • كما أن نفس الغنى تصبح مقبلة على مساعدة المحروم ، والأخذ بيد المريض والعاجز •• وبهذا يلتئم صدع المجتمع ، بحيث يتميز عن غيره من المجتمعات غير المسلمة ، لأن الصيام قد أعاد للمجتمع تماسكه ، وللأفراد ترابطهم •

ومما تجدر الاشارة اليه أن الصيام لا ينبغى أن يكون سببا لنفرة الأفراد بعضهم من بعض ، أو محركا للخلاف والشقاق ، أو داعيا لاهمال العمل أو التراخى فيه ، أو التستر خلفه دفعا للوم أو تبريرا لاهمال ، أو تواكلا عن عمل فالصيام فيه وحدة القلوب والمشاعر ، ولا مكان فيه لتبرير مهمل ، أو اعتذار مقصر ، أو تمزيق لألفة ، بل عكس ذلك يكون ، تلاق وتصاف ، وتماسك وترابط تحت مظلة التوحيد وتلبية لنداء الله رب العالمين •

ولا شك أن المجتمع المتمسك بأداء الصوم ، هو المجتمع الذى يمتثل أوامر الله ، ويلبى دعوته ونداءه ، هو المجتمع الذى يشيع فيه العدل والسلام والأخوة والتعاون فيتسامى الى مستوى أرفع فى

الانسانية ، وهو المستوى المهذب الصافى الطاهر البعيد عن الحقـــد والايذاء ، والفرد الصائم هو الانسان الصالح الذى يؤثر انسانيته على ما فيه من حيوانيته ، فيدفع بصومه قوة اعتدائه على نفسه ويتهيأ لعدم الاستسلام للشر أيا كان مصدره ، لأنه طالمـــا امتثل لله ، فهو لا يرضخ لمـــا عداه من قوى الطغيان والفساد[13] .

وعلى وجه العموم ، فان الانسجام فى الطابع العام للمجتمع ، ووحدة الشعور والروابط والاتجاه هى سمات المجتمع المسلم الصائم ، الذى استطاع السيطرة على رغبات النفس ، وتحكم فيها بالقدر الذى يحد من متطلباتها وأغراضها . ومجتمع هذا شأنه ليس فى حاجة الى أن يراقب بعض أفراده بعضه الآخر فى أداء الواجب ، كما أنه ليس فى حاجة الى الشحناء والمخاصمة والتقاضى ، لأنه يفعل بوحى من ضميره ووحى ضميره هو ما يخشى فيه الله سبحانه وتعالى ، كما أنه أمر من الله ، قال تعـــالى : « **وأن هـــذا صراطى مستقيما فاتبعوه ، ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله** »[14] .

بهذه الصفات التربوية ، نصل الى أن عبادة الصوم ، تكمن فيها الرحمة والبر والتكافل الاجتماعى بين جميع أفراد المجتمع ، يشملهم جميعا العدل السماوى ، والتنظيم المحكم الدقيق الذى يتسم بالمحبة والخير والسلام .



---

(١٣) د. محمد على محمد المرصفى ، من المبادىء التربوية فى الاسلام ، مرجع سابق ، ص ١٣١ ــ ١٣٤

(١٤) الأنعام : ١٥٣

رؤية تربوية فى شهر الصيام

تشهد التربية فى عالمنـــا العربى والاسلامى فى الآونة الأخـــيرة اضطرابا منقطع النظير ، حيث بات اهتمام التعليم يقتصر على حشو ذهن المتعلمين بكم ضخم من المعلومات فى سائر مجالات العلوم والفنون ، وغدت التربية بمفهومها الصحيح غير واضحة • وتتضح هذه الصورة حينما نلمح أن المغزى التربوى لبناء الفرد فى جميع النواحى الجسمية والعقلية والخلقية والنفسية والجمالية غير محقق بالشكل المـــأمول •

وان كنا لن نتناول فى هذا المقام أسباب هذه الظاهرة ، الا أننا نسير فى عجالة سريعة الى ملمح يكاد يكون ظاهرا لكل ذى بصيرة ، ذلك أن التربية فى كثير من بلاد المسلمين اعتمدت فى بنائها على كثير من الفكر الوافد ، برز أثره واضحا فى عدم وفاء التعليم لتحقيق الكثير من أهدافه ، خصوصا اذا أدركنا أن تلك الأهداف لا تتوافق — فى غالبيتها — مع المنهج الاســـلامى •

من هنـــا فلا مناص من وقوع المتعلمين فى ذبذبات بين واقع يعايشونه فى المدرسة وبين قيم اسلامية تعتمد على الفكر الاسلامى والمنهج الاسلامى ينشد المجتمع تحقيقها فيهم ، ولا جدال أنه لو صلح المنطلق الذى تســـتمد منه التربية بنيتهـــا لصلح التطبيق التربوى ، ولاستقام بالتالى النظام التعليمى • واذا اتضح لدينا أن منطلق التعليم الحالى يشتق — فى كثير منه — من فكر سياسى أو اقتصادى أو ثقافى أو كلها مجتمعة ، اذا اتضح ذلك ، فقد بدت النتائج التربوية المنشودة متحطمة فوق صخرة التقليد ، وتحت مظلة الأنظمة الجامدة فى التعليم •

والفرد المسلم فى عصرنا بات لا هم له سوى الشكليات دون العمق ، والمظهر دون المخبر ، خصوصا وأن بنية تكوينه اعتمدت فقط على منهج يحفظ ، وكلمة تكتب ، ضاربا عرض الحائط بالقيم الأخلاقية الصحيحة ، والمغزى التربوى للعبادات المكلف بها من لدن رب العبـــاد سبحانه وتعـــالى •

بيد أننا لو عدنا الى الاسلام ، فسوف نلمح أن سائر العبادات — ومنها الصيام — تعتمد على ركيزة واضحة ، هى عدم الشرك بالله رب العـــالمين •

ولكن كيف كان ذلك .. ؟ اذا نقى الضمير عند الفرد معلما أو متعلما ، اذا نقى من أوشاب الشرك فى جميع صوره ، واذا تطهر القلب من أوشاب الخرافة ، واذا تخلص المجتمع من تقاليد الجاهلية ، واذا تطهرت الحياة من عبودية العباد للعباد ، اذا توفر ذلك ، حينئذ يكون ارتباط الفرد المسلم بربه وعلاقته به على بصيرة .

ثم تأتى علاقة الجماعات والأفراد ، مقاسة بهذا المعيار الثابت — عدم الاشراك بالله — الذى نرجع اليه فى كافة الروابط ، ومقاسة كذلك بالقيم الاسلامية التى شأنها أنها تحكم الحياة البشرية ، فلا تظل نهبا لريح الشهوات والنزوات ، واصطلاحات البشر التى تتراوح مع النزوات والشهوات[1] .

هذا واذا كنا فى مجتمعنا الاسلامى ننشد الصلاح والاصلاح ، واذا تخلصنا من الشكلية والمظهر فى الممارسات الدينية ، وخصوصا التى ترتبط ارتباطا مباشرا بقياس قدرات الفرد النفسية والخلقية ، اذا استطعنا ذلك ، فلا مراء فى أننا نكون قد ترجمنا المبادىء الدينية الى واقع تربوى نحسه ونلمسه ، فى جميع الجوانب والاتجاهات .

وعبادة الصيام تنفرد من بين سائر العبادات بكونها كفاحا وجهادا موجها من الذات ضد الذات ، وموجها من نفس الانسان ضد رغبات جسمه وبدنه . عن أبى هريرة رضى الله عنه عن الرسول صلى الله عليه وسلم أنه قال : « كل عمل ابن آدم يضاعف الحسنة بعشر أمثالها الى سبعمائة ضعف ، قال الله عز وجل : الا الصوم فانه لى وأنا أجزى به ، يدع شهوته وطعامه من أجلى »[2] .

وربما لا نجانب الصواب حينما نقرر بداية ، أن فريضة الصيام تحقق رؤية تربوية ، لا تتوفر فى أى منهج وضعى ، مهما سمت مكانته ، ومهما اتسع مداه ، ذلك أن الصيام بشكله ومضمونه ، يرشدنا الى مجموعة من الأسس التربوية التى سوف نجليها على الوجه التالى :

أولا : التربية الصحية .

ثانيا : التربية النفسية .

---

(١) سيد قطب ، فى ظلال القرآن ، دار الشروق ، ط (١٠) ، ١٩٨١ ، جـ ٣ ، ص ١٢٢٩ ، ١٢٣٠

(٢) د. محمد على المرصفى ، من المبادىء التربوية فى الاسلام ، عالم المعرفة ، جدة ، ١٤٠٣ هـ ، ص ١٣١

ثالثا : التربية الخلقية .
رابعا : التربية الروحية .

* * *

أولا — التربية الصحية :

الصوم فى الاسلام فيه جهد مثمر ومنظم ، لترقية الطبيعة البشرية وتطويرها ، فى حدود فطرتها وطاقتها وطبيعة تكوينها ، أو بمعنى آخر يعتبر الصوم منهجا اسلاميا للتربية ، فيه من النماء ما يتوافق وحاجة الانسان ، خصوصا وأن هذا المنهج مصدره خالق السموات والأرض : **« ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير »**(٣) وتتضح هذه الصورة فى أن آيات الصيام ، تقرر للمؤمنين وتحل لهم مباشرة النساء فى ليلة الصوم ما بين المغرب والفجر ، وتحل لهم الطعام فى نفس الوقت كما تبين حكم المباشرة فى فترة الاعتكاف فى المساجد . قال تعالى : **« أحل لكم ليلة الصيام الرفث الى نسائكم ، هن لباس لكم وأنتم لباس لهن ، علم الله أنكم كنتم تختانون أنفسكم فتاب عليكم وعفا عنكم ، فالآن باشروهن وابتغوا ما كتب الله لكم ، وكلوا واشربوا حتى يتبين لكم الخيط الأبيض من الخيط الأسود من الفجر ، ثم أتموا الصيام الى الليل ، ولا تباشروهن وأنتم عاكفون فى المساجد ، تلك حدود الله فلا تقربوها ، كذلك يبين الله آياته للناس لعلهم يتقون »**(٤) .

وقد نزلت هذه الآية ، بعد أن شق على المسلمين أن يلتزموا التطبيق العملى للصوم فى شكل أحكامه الأولى ، التى كانت تحتم على المسلم اذا نام بعد افطاره أن يمتنع عن الطعام والشراب ومباشرة النساء ، حتى ولو استيقظ قبل الفجر ، كما شق على المسلمين ذلك ، فدلهم الله الى اليسر ، ليشعروا بقيمته ، ومدى الرحمة والاستجابة .

وتيسيرا على الفرد المسلم ، واعترافا ببشريته وطبيعته الانسانية ، فى عدم كبت حاجاته وشهواته ، واستجلابا لتنشيطه حتى يقوى على العبادة ، استجلابا لكل ذلك أباح الاسلام المباشرة للنساء ، ما بين المغرب والفجر : **« أحل لكم ليلة الصيام الرفث الى نسائكم »** والرفث قد يكون مقدمات المباشرة ، أو المباشرة نفسها ، وكلاهما مقصود

---

(٣) الملك : ١٤ (٤) البقرة : ١٨٧

هنا ومباح ، غير أن تلك العلاقة الزوجية ، دافعها الرفق والرحمة :
« **هن لباس لكم وأنتم لباس لهن** » فالصلة بين الزوجين تستر كلا منهما وتقيه ، فالاسلام ينظر للفرد المسلم بشكل شمولى ، من ظاهره وباطنه ، ولا يكبت له رغبة ، ولا يحبط له ارادة طالما كان دافعها صيانة الفرج وحفظه بالحلال المشروع •

ويتضح منهج الاسلام فى النظر الى الانسان بشكل شمولى ، فى كونه يتحسس الرغبات المكبوتة ، خصوصا عندما نعلم انه قد ورد أن بعض المسلمين قد وقع فيه ، على مفهوم الصيام فى صورته الاولى ، حيث ورد أن بعضهم قد نام بعد الافطار ، أو نامت امرأته ، ثم وجد فى نفسه دفعه للمباشرة ففعل ، وبلغ أمره الى النبى صلى الله عليه وسلم ، وبدت المشقة فى أخذ المسلمين بهذا التكليف ، فردهم الله الى اليسر •• ونزلت هذه الاية : « **أحل لكم ليلة الصيام** » • بعد أن ظهر الضعف وبدت ظواهره : « **علم الله أنكم كنتم تختانون أنفسكم فتاب عليكم وعفا عنكم ، فالآن باشروهن وابتغوا ما كتب الله لكم** » • ابتغوا هذا الذى كتبه الله لكم من المتعة بالنساء ، ومن المتعة بالذرية — ثمرة المباشرة — فكلتاهما من أمر الله ، ومن المتاع الذى أعطاكم اياه ، ومن اباحتها واتاحتها يباح لكم طلبها وابتغاؤها ، وهى موصوله بالله فهى من عطاياه ، ومن ورائها حكمة ، ولها فى حسابه غاية ، فليست اذن مجرد اندفاع حيوانى موصول بالجسد ، منفصل عن ذلك الأفق الأعلى الذى يتجه اليه كل نشاط •

بهذا ترتبط المباشرة بين الزوجين بغاية أكبر منهما ، وأفق أرفع من الأرض ومن لحظة اللذة بينهما ، وبهذا تنظف هذه العلاقة وترق وترقى •• »(٥) •

وليس بعد هذا تكريم لانسان ، وتربية صحية له ، تراعى فيها الحاجات ، وتنشط الهمم ، وتسقط دوافع الاحباط ، فلا رهبانية فى الاسلام ، ولا كبت فيه لحاجة فيها صلاح للبدن وتنشيط للعبادة ، وتربية للفرد المسلم •

ومما تجدر الاشارة اليه أن الاسلام وهو يتيح للمسلم هذه الامكانيات يراعى مصلحة الفرد ويضعه فوق كل اعتبار •

---

(٥) سيد قطب ، فى ظلال القرآن ، مرجع سابق ، جـ ١ ص ١٧٤ ، ١٧٥

وتبدو هذه الصورة واضحة فى مجموعة من الاجراءات :

*** النهى عن الكلفة والمشقة :**

حيث نهى النبى صلى الله عليه وسلم عن الوصال فى الصيام ، رحمة بالمسلم واشفاقا عليه . عن أبى هريرة رضى الله عنه قال ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « اياكم والوصال » قالوا : فانك تواصل يا رسول الله ، قال : « انى لست كأحدكم ، انى أبيت يطعمنى ربى ويسقينى ، فاكلفوا من الأعمال ما تطيقون »(٦) .

*** اباحة الفطر لذوى الأعذار :**

وتتضح هذه الصورة حينما يباح للمريض والمرضع والحامل .. الافطار شريطة أن يؤدوا الصيام بدلا من الأيام التى أفطروا فيها .

*** تحقيق التوازن بالصيام :**

يتضح ذلك حين نعلم أن المسلم له أن يتناول طعامه وشرابه باتزان ، قال تعالى : « **يا بنى آدم خذوا زينتكم عند كل مسجد وكلوا واشربوا ولا تسرفوا ، انه لا يحب المسرفين** »(٧) .

* * *

ثانيا — التربية النفسية :

لما كان الصيام قد تبدو فى ظاهره المشقة والقهر للشهوات والحاجات ، كان لابد للفرد المسلم من عوض كامل عن مشقة الصوم ، قد بدا ذلك فى استجابة الله لدعائه ، قال تعالى : « **واذا سألك عبادى عنى فانى قريب ، أجيب دعوة الداع اذا دعان ، فليستجيبوا لى وليؤمنوا بى لعلهم يرشدون** »(٨) .وقد أجاب الله عز وجل عباده عن سؤالهم ، حيث قال تعالى مخاطبا النبى صلى الله عليه وسلم : « **انى قريب** » ولم يقل ربنا سبحانه وتعالى : أسمع الدعاء ، وانما عجل باجابة الدعاء : « **أجيب دعوة الداع اذا دعان** » فى ظل هذا الأنس وهذا القرب ، يوجه الله عباده الى الاستجابة له ، والايمان به ، لعل هذا أن يقودهم

---

(٦) صحيح مسلم شرح النووى ، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع ، ١٤٠١ هـ / ١٩٨١ م ، جـ ٧ ، ص ٢١٢ ، ٢١٣

(٧) الأعراف : ٣١ .

(٨) البقرة : ١٨٦

الى الرشد والهداية والصلاح : « **فليستجيبوا لى وليؤمنوا بى لعلهم يرشـــدون** » وتفيد الآية ان الثمرة الأخيرة من الاستجابة والايمان هى لهم حدلك .. وهى الرشد والهدى والصلاح ، فالله غنى عن العالمين . واستجابة الله للعباد مرجوة حين يستجيبون له وهم يرشدون »(٩) .

من هذا المنطلق فلا غرابه أن يأتى ذكر الدعاء فى ثنايا الحديث عن الصيام ، حتى تستثار الهمم وتنشط العزائم ، وان كانت العبادة فى شأنها قائمة فهى من الأمور التعبديه .. قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ثلاثه لا ترد دعوتهم : الامام العادل ، والصائم حتى يفطر ، ودعوه المظلوم يرفعها الله دون الغمام يوم القيامه ، وتفتح لها أبواب السماء ، ويقول : بعزتى لأنصرنك ولو بعد حين » .

ولمـــا كان مفهوم التربية النفسية ، يعتمد فى أساسه على تحقيق التوازن لبناء الشخصية السوية التى تتوافق بداخلها الأهداف ، فلا يطغى أحدها على الآخر ، لمـــا كان ذلك كذلك ، اتضح لدينا أن الصيام يقوم بأداء هذه التربية بصورة كاملة متكاملة ، حيث ان الفرد المسلم — وهو يؤدى فريضة الصوم — يوقن تمام اليقين أن ربه الذى كلفه وفرض عليه الصوم ، يشد من أزره ، ويأخذ بيده ، ويحقق له أهدافه طالمـــا أنها فى غير معصية . وفى صحيح مسلم ، عن النبى صلى الله عليه وسلم ، أنه قال : « لا يزال يستجاب للعبد ما لم يدع باثم أو قطيعة رحم ما لم يستعجل » ، قيل : يا رسول الله .. وما الاستعجال ؟ قال : « يقول قد دعوت ، وقد دعوت ، فلم أر يستجاب لى ، فينحسر عند ذلك ويدع الدعاء »(١٠) .

* * *

ثالثا — التربية الخلقية :

ترتبط الأخلاق فى الجانب الأكبر منها ، ارتباطا جوهريا بالدين وبمبادئه ، وبالقيم والفضائل التى قام عليها الدين واستند اليها ، ونادى بها . من هنا يمكن القول بأن القيم والقواعد والفضائل الخلقية ، فى مجتمع متدين ، هى قيم وقواعد وفضائل دينية ، حتى حينما يكون مصدر الأخلاق أحيانا التجربة الشخصية وتوقعات المجتمع وتأثيراته

---

(٩) سيد قطب ، فى ظلال القرآن ، مرجع سابق ، ج ١ ص ١٧٣

(١٠) المرجع السابق ، ص ١٧٣ ، ١٧٤

وسلطة القانون والعرف والتقاليد ، فانه لا يعتد بهذه الأخلاق الا اذا كانت متمشية مع الدين ، مما يجعل المصدر النهائى فى الحكم على السلوك البشرى سواء بالخيرية أو الشرية هو الدين .

وحينما يصبح الدين مصدرا للأخلاق ، فان هذا يكسبها شيئا من الاحترام والتقدير والموضوعية والثبات النسبى ، وأمر طبيعى أن لا يتوفر هذا فى الأخلاق التى مصدرها القوانين الوضعية[11] .

هذا ولما كان من شروط الأخلاق الصالحة : الشمول والتوازن والاعتدال والواقعية واليسر والربط بين الاعتقاد والعمل ، وبين القول والفعل ، وبين النظرية والتطبيق ، لما كان الأمر كذلك ، فلا غرابة أن تحتل التربية الأخلاقية مساحة لا بأس بها فى فريضة الصيام نلمح هذا فى الآتى :

*** الالتزام بالطاعة وعدم الاعتداء أو سب المسلمين :**

يتضح هذا حيث ان الصائم عليه أن يلتزم الطاعة وقت صومه ، فلا يسب أحدا من المسلمين . فقد قال صلى الله عليه وسلم : « اذا كان يوم صوم أحدكم فلا يرفث ولا يصخب فان سابه أحد أو قاتله فليقل انى صائم » .

*** تطويع النفس لممارسة الخلق الحسن :**

ويمكن تحقيق هذا الهدف حينما تتمرس النفس على كسر الشهوات ، فتنصاع فيحصل لها اعتياد والف للاتيان بالجميل ، قال صلى الله عليه وسلم : « من لم يدع قول الزور والعمل به فليس لله حاجة فى أن يدع طعامه وشرابه » .

*** التزام صفة الكرم :**

ولا شك أن هذه الصفة ، اذا سادت المجتمع ، فان فئة الفقراء والمساكين ، تحصل على ما تحتاجه ، وتنال ما ترجوه من العيش دون ما تمسكن أو مسألة . ولقد كان النبى صلى الله عليه وسلم كريما جوادا وكان كرمه يزداد فى شهر الصيام .

* * *

---

(١١) محمد على المرصفى ، حسن عبد العال ، فى أصول التربية ، مطبعة التقدم ، طنطا ، ١٩٨٥ ، ص ١٤٨

رابعا – التربية الروحية :

اقترنت فريضة الصيام فى مفتتح الآيات التى تتحدث عنها بالتقوى ، كما اختتمت أيضا بالتقوى • وهذا يؤكد ويدلل أن رجاء التقوى من العباد هدف روحى ، ومغزى جوهرى ، تسعى العبادات كلها الى تحقيقه ومنها الصيام ، فاذا تهذبت الروح ، واذا تحققت التقوى ، فقد امتلك المسلم زمام تصرفاته وأصبح على بصيرة من أمره • قال تعالى : **« يا أيها الذين آمنوا كتب عليكم الصيام كما كتب على الذين من قبلكم لعلكم تتقون »**[١٢] •

وقوله تعالى : **« ولا تباشروهن وأنتم عاكفون فى المساجد ، تلك حدود الله فلا تقربوها ، كذلك يبين الله آياته للناس لعلهم يتقون »**[١٣] •

« فالتقوى هى التى تستيقظ فى القلوب وهى تؤدى هذه الفريضة ، طاعة لله ، وايثارا لرضاه • والتقوى هى التى تحرس هذه القلوب من افساد الصوم بالمعصية ، ولو تلك التى تهجس فى البال ، والمخاطبون بهذا القرآن يعلمون مقام التقوى عند الله ووزنها فى ميزانه • فهى غاية تتطلع اليها أرواحهم •• وهذا الصوم أداة من أدواتها ، وطريق موصل اليها •• ومن ثم يرفعها السياق أمام عيونهم هدفا وضيئا يتجهون اليه عن طريق الصيام »[١٤] • وكما بدئت آيات الصيام بالتقوى اختتمت بالتقوى : **« كذلك يبين الله آياته للناس لعلهم يتقون »** وبهذا يبين أن التقوى غاية ، يبين الله آياته للناس ليبلغوها ، وهى غاية كبيرة يدرك قيمتها الذين آمنوا وهم المخاطبون بهذا القرآن فى كل حين[١٥] •

* * *

* خلاصة :

من العرض السابق يتضح أن الصيام فى هذا العصر ، وفى كل عصر ، ضرورة ملحة ، بل ومعسكر ترويضى ، يخرج منه الفرد المسلم وقد سمت نفسه ، وشفت روحه ، واستقامت صحته ، وانتظمت أخلاقه ، فلا افراط ولا تفريط ، ولا غلو ولا تهاون ، بل وسط واعتدال وتناسق

---

(١٢) البقرة : ١٨٣ (١٣) البقرة : ١٨٧
(١٤) سيد قطب ، فى ظلال القرآن ، مرجع سابق ، جـ ١ ص ١٦٨
(١٥) المرجع السابق ، ص ١٧٦

واتزان فى جميع المجالات ، ما يرتبط منها بالتدين ، وما يرتبط منهــا بالسلوك ، ما يرتبط منها بالنظر وما يرتبط منها بالعمل : « **وفى ذلك فليتنافس المتنافسون** »[16] ، « **وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنــون** »[17] .

* * *

---

(١٦) المطففين : ٢٦ (١٧) التوبة : ١٠٥

أهم المراجع

* المراجع العربية :

١ ــ القرآن الكريم

٢ ــ أبو حامد الغزالى ، احياء علوم الدين ، مكتبة ومطبعة المشهد الحسينى ، القاهرة ، بدون تاريخ .

٣ ــ ابن تيمية ، الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان ، المكتب الاسلامى ، بيروت ، ط ٢ ، ١٣٩٠ هـ .

٤ ــ ابن الخطيب ، أوضح التفاسير .

٥ ــ أحمد جمال طاهر ، نظريات فى العلاقات العامة ، دار الشروق ، جدة ، ط ١ ، ١٩٧٨ .

٦ ــ البيضاوى (الامام ناصر الدين أبو الخير عبد الله بن عمر الشيرازى البيضاوى) ، أنوار التنزيل وأسرار التأويل المسمى تفسير البيضاوى ، دار الفكر للطباعة والتوزيع ، بدون تاريخ .

٧ ــ جليل شكرى عجبان ، مشكلات الطفولة فى المجتمع المدرسى : تطبيقات تربوية ، مطبعة النجاح ، دمنهور ، بدون تاريخ .

٨ ــ جميل م. منيمنة ، مشكلة الحرية فى الاسلام : المشكلة الاجتماعية ، دار الكتاب اللبنانى ، بيروت ، ط ١ ، ١٩٧٤ .

٩ ــ جميل م. منيمنة ، مشكلة الحرية فى الاسلام : المشكلة الفلسطينية ، دار الكتاب اللبنانى ، بيروت ، ط ١ ، ١٩٧٤ .

١٠ ــ جورج موكو ، التربية الوجدانية والمزاجية للطفل ، ترجمة : منير العصرة ونظمى لوقا ، الجمعية المصرية لنشر الثقافة والمعرفة العالمية ، القاهرة ، ١٩٧٨ .

١١ ــ جيمس س. دوس ، الأسس العامة لنظريات التربية ، ترجمة صالح عبد العزيز وآخرين ، مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة ، بدون تاريخ .

١٢ ــ حسن مصطفى وآخرون ، اتجاهات جديدة فى الادارة المدرسية ، مكتبة الانجلو المصرية ، القاهرة ، ط ٤ ، ١٩٨٢ .

١٣ ــ ر. ف. ديردن ، فلسفة التعليم الابتدائى ، ترجمة سعد مرسى أحمد ، عالم الكتب ، القاهرة ، ١٩٧٩

١٤ ــ زكى راغب غوشة ، العلاقات العامة فى الادارة المعاصرة ، الأردن ، عمان ، ١٩٨١

١٥ ــ سعد مرسى أحمد ، التربية والتقدم ، عالم الكتب ، القاهرة ، ط ٣ ، ١٩٧٩

١٦ ــ سعيد اسماعيل على ، أصول التربية الاسلامية ، دار الثقافة للطباعة والنشر ، القاهرة ، ١٩٧٨

١٧ ــ سعيد اسماعيل على ، ديمقراطية التربية الاسلامية ، دار الثقافة للطباعة والنشر ، القاهرة ، ١٩٧٤

١٨ ــ سعيد اسماعيل على ، معاهد التعليم الاسلامى ، دار الثقافة للطباعة والنشر ، القاهرة ، ١٩٧٨

١٩ ــ سيد صبحى ، الانسان وسلوكه الاجتماعى ، دار مرجان للطباعة ، القاهرة ، ١٩٧٩

٢٠ ــ السيد سابق ، عناصر القوة فى الاسلام ، دار الكتاب العربى ، بيروت ، ط ٢ ، ١٩٧٨

٢١ ــ سيد قطب ، العدالة الاجتماعية فى الاســلام ، مطبعة عيسى البابى الحلبى ، القاهرة ، ط ٢ ، ١٩٦٤

٢٢ ــ سيد قطب ، فى ظلال القرآن ، دار الشروق ، القاهرة ــ بيروت ، ط ١٠ ، ١٩٨١

٢٣ ــ سيد قطب ، معركة الاسلام والرأسمالية ، دار الشروق ، القاهرة ــ بيروت ، ط ٦ ، ١٩٧٩

٢٤ ــ صادق سمعان ، الفلسفة والتربية : محاولة لتحديد ميدان فلسفة التربية ، دار النهضة العربية ، القاهرة ، ١٩٦٢

٢٥ ــ الطبرى (أبو جعفر محمد بن جرير الطبرى) ، جامع البيان عن تأويل آى القرآن ، مطبعة مصطفى البابى الحلبى ، القاهرة ، ط ٢ ، ١٩٥٤

٢٦ ــ عباس محمود العقاد ، الانسان فى القرآن الكريم ، دار الهلال ، القاهرة ، بدون تاريخ .

٢٧ ــ عبد الرحمن بن حماد آل عمر ، دين الحق ، مطابع الرياض ، ١٣٩٥ هـ .

٢٨ ـــ عبد الرحمن حسن حنبكة ، أجنحة المكر الثلاثة وخوافيها ، دار القلم ، دمشق ـ بيروت ، ط ٢ ، ١٩٨٠
٢٩ ـــ عبد الرحمن عبد الباقى عمر ، العـلاقات الانسانية ، مكتبة عين شمس ، القاهرة ، ١٩٨٠
٣٠ ـــ عبد الرحمن الميدانى ، الأخلاق الاسلامية وأسسها ، دار القلم ، بيروت ـ دمشق ، ١٩٧٩
٣١ ـــ عبد الله شحاتة ، علوم القرآن والتفسير ، دار الاعتصام ، القاهرة ، ١٩٨٠
٣٢ ـــ عبد الله ناصح علوان ، تربية الأولاد فى الاسلام ، دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع ، حلب ـ بيروت ، ط٣ ، ١٩٨١
٣٣ ـــ عبد الله كنون ، اسلام رائد ، دار الكتاب المصرى ، القاهرة ، ١٩٧٩
٣٤ ـــ فيليب هـ فينكس ، فلسفة التربية ، ترجمة : محمـد نجيب النجيحى ، دار النهضة العربية ، القاهرة ، ١٩٦٥
٣٥ ـــ محمـد أمين المصرى ، المجتمع الاسـلامى ، دار الأرقم ، الكويت ، ١٩٨٠
٣٦ ـــ محمد البهى ، الاسلام فى حياة المسلم ، مكتبة وهبة ، القاهرة ، ط ٥ ، ١٩٧٧
٣٧ ـــ منهج القرآن فى تطوير المجتمع ، مكتبة وهبة ، القاهرة ، ١٩٧٩
٣٨ ـــ محمد رأفت عثمان ، الحقوق والواجبات والعلاقات الدولية فى الاسلام ، مطبعة السعادة ، ط ٢ ، ١٩٧٧
٣٩ ـــ محمد عبد القادر أحمد ، طرق تعلم التربية الاسلامية ، مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة ، ط ١ ، ١٩٨١
٤٠ ـــ محمد عبد الله دراز ، دستور الأخلاق فى القرآن : دراسة مقارنة للأخلاق النظرية ، تحقيق وتعليق عبد الصبور شاهين ، مؤسسة الرسالة ، دار البحوث العلمية ، الكويت ، ط ١ ، ١٩٧٣
٤١ ـــ محمد عطية الأبراشى ، التربية الاسلامية وفلاسفتها ، مطبعة عيسى البابى الحلبى ، القاهرة ، ط ٣ ، ١٩٧٥
٤٢ ـــ محمد على الصابونى ، مختصر تفسير ابن كثير ، دار القرآن الكريم ، بيروت ، ط ٧ ، ١٩٨١
٤٣ ـــ محمد على المرصفى وحسن عبد العال ، فى أصول التربية ، مطبعة التقدم ، طنطا ، ١٩٨٥

٤٤ ـــ محمد على المرصفى ، من المبادىء التربوية فى الاسلام ، عالم المعرفة ، جدة ، ١٤٠٣ هـ .
٤٥ ـــ محمد على المرصفى ، نظرة عامة حول التربية الاسلامية ، مجلة كلية التربية ، جامعة أم القرى ، مكة المكرمة ، العدد الثامن ، المحرم ١٤٠٣ هـ .
٤٦ ـــ محمد المبارك ، دراسة أدبية لنصوص القرآن ، دار الفكر ، ط ٤ ، ١٩٧٣
٤٧ ـــ محمد محمود الصواف ، المخططات الاستعمارية لمكافحة الاسلام ، دار الاعتصام ، القاهرة .
٤٨ ـــ محمد معروف الدواليبى ، المدخل الى علم أصول الفقه ، دار الكتاب الجديد ، ط ٥ ، ١٩٦٥
٤٩ ـــ محمد منير مرسى ، الادارة التعليمية : أصولها وتطبيقاتها ، عالم الكتب ، القاهرة ، ط ٢ ، ١٩٧٧
٥٠ ـــ محمد منير مرسى ، التربية الاسلامية ، عالم الكتب ، القاهرة ، ١٩٧٧
٥١ ـــ مصطفى الرافعى ، الاسلام انطلاق لا جمود ، دار مكتبة الحياة ، ١٩٥٩
٥٢ ـــ مقداد يالجن ، الاتجاه الأخلاقى فى الاسلام ، مكتبة الخانجى ، القاهرة ، ١٩٧٧
٥٣ ـــ مقداد يالجن ، التربية الابداعية فى ضوء التربية الاسلامية ، الفيصل ـــ مجلة ثقافية شهرية ـــ العدد ٦٨ (صفر ١٤٠٣ هـ ـــ ديسمبر ١٩٨٢) .
٥٤ ـــ المنذرى ، مختصر سنن أبى داوود ، تحقيق محمد حامد الفقى ، مكتبة السنة المحمدية ، القاهرة ، ١٩٤٩
٥٥ ـــ النووى ، صحيح مسلم بشرح النووى ، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع ، ١٩٨١
٥٦ ـــ يوسف القرضاوى ، الحلول المستوردة وكيف جنت على أمتنا ، مؤسسة الرسالة ، الكويت ، ١٩٨٠

*** المراجع الأجنبية :**

1 — Olive Banks, The Sociology of Education. B. T. Patsford Ltd. Third edition. London. 1976.

محتويات الكتاب

* * *

رقم الايداع ٧٢٣١ / ١٩٨٦
الترقيم الدولى ٢ ــ ٠٨٣ ــ ٣٠٧ ــ ٩٧٧

مطابع
دار التراث العربى
ت ٩٣٦١٤٥